

في جوف النكتة

الفكاهة لعكس هندسة العقل

ماثيو هيرلي
دانيال دانيت
رينالد آدمز

ترجمة وتقديم
قيس قاسم العجرش

إصدارات معهد ماساتشوستس
للتكنولوجيا [MIT Press]



مكتبة | 833
سُر مَن قرأ

في جوف النكتة

الفكاهة لعكس هندسة العقل

في جوف النكتة

الفكاهة لعكس هندسة العقل

تأليف: ماثيو هيرلي/دانيال دانيت/رينالد آدم

ترجمة وتقديم: قيس قاسم العجرش

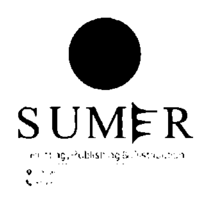
Behind the humor

Qais Qasim Al-Ajrash

الطبعة الاولى 2021



إصدار دار سطور للنشر والتوزيع
العراق ــ بغداد ــ شارع المتنبي ــ مدخل جديد حسن باشا
ص. بـ 74090
الرمز البريدي 12114
هاتف: 07711002790 ــ 07700492576
email: bal_alame@yahoo. com



ISBN: 978- 1- 77472- 046- 2

مكتبة | 833
سُر مَن قرأ

في جوف النكتة

الفكاهة لعكس هندسة العقل

تأليف
ماثيو هيرلي
دانيال دانيت
رينالد آدم

ترجمة وتقديم
قيس قاسم العجرش



مقدمة المترجم

في كانون الثاني من عام 1962، كانت هناك بلدة تسمى كيشاشا، تقع في تنزانيا حاليًا. كانت هناك مدرسة داخلية للبنات تتبع إرسالية تبشيرية. وكانت ثلاث طالبات يتمشين سوية خلال الفسحة بين درسين. بدأ الأمر معهن، إذ كنّ يضحكن بصوت عال. وبعد توبيخ من الهيأة التدريسية لهذا السلوك غير المقبول (والمتضمن ضحكاً متواصلاً بلا سبب)، انتقلت الحالة في تلك المدرسة إلى باقي البنات. وماهي إلّا ساعات حتى صار المئات من الطالبات يضحكن باستمرار بلا توقف، بينما كان الكادر التدريسي لا يضحك ويراقب ما يحصل بذهول.

استمرت نوبات الضحك لعدّة ساعات متواصلة. واضطرت المدرسة أن تغلق أبوابها أمام الدراسة لمدّة أسبوعين. وبقي التأثير متواصلاً إلى غاية منتصف آذار. ثم أعيد فتح المدرسة في أيار، لكنها سرعان ما أغلقت ثانية في حزيران، لأن الوباء (وباء الضحك) انتشر وانتقل إلى مدارس أخرى. ثم خفُت الوباء من ذاته ليختفي خلال ستة أشهر. وكانت النتيجة أن 14 مدرسة مختلفة وفي بلدات متقاربة أصيبت بالوباء. وأن أكثر من ألف طالبة تأثرن بشكل عصبي وفسلجي ومباشر بهستيريا الوباء، الذي تراوحت أعراضه بين الضحك لساعات طويلة، أو الانتقال إلى البكاء أو الصراخ

غير المفهومين.

يقول البروفيسور كريستيان.أف.هيمبلمان/ Hempelmann، الأستاذ في جامعة بورديو. إن هذه الحالة كانت من الحالات المتأثرة بوجود حث جماعي يدفعها. وقتها كانت تنزانيا قد نالت استقلالها عام 1962. وكانت الطالبات يتعرّضن إلى توقعات عالية في الإنجاز سواء من قبل الأهالي، أو من قبل أساتذتهن. لنتصوّر أن التوقعات الإيجابية العالية في المجتمع نتيجة نيل الاستقلال، انعكست من قبل مختلف الفئات إلى أن تنتقل إلى شكل توقّعات عالية مطلوب من الطالبات أن يحققنها خلال دراستهن. لهذا فقد كنّ تحت مظلة شدٍّ نسبيٍّ جماعيٍّ التأثير. ويتأثر الشخص أكثر كلما كان تأثيره واطئًا في تسلسل الإرادات العامة، إذ ينتقل الضغط من المرتبة الأعلى إلى الأدنى.

إن ذاكرة هذا الحادث، تظهر لنا بشكل صادم ما يمكن لوباء الضحك أن يصل إليه من مستويات. بل إنه شيء قد نكون اختبرناه جميعاً وعشناه ومررنا به دون أن نعلم. وكلّنا نتذكر تأثيرات أصوات ضحك الجمهور في المسلسلات التلفزيونية، وكيف إنها تستغل تجاريًّا من أجل تحفيز المشاهدين على الضحك في لحظات ومشاهد معيّنة.

أما روبرت بارثولوميو/ Bartholomew، استاذ الطب النفسي في جامعة أوكلاند. فقد وضع فرضية تفسيرية لهستيريا الضحك التي حصلت في تنزانيا بأنها يجب أن تفسّر على ضوء نشأتها الوضعية. فقد كان المجتمع في تنزانيا مجتمعاً محافظاً تقليديًّا تتأصل فيه المعتقدات المتوارثة، بينما تمكنت المدارس الإرسالية التبشيرية من إظهار وجه آخر للحياة أمام الجيل الجديد. فالحدث (هستيريا الضحك) لا ينفصل أبداً عن عدِّه تجلّيًا

من تجليات هذه الفجوة الحضارية والثقافية القاسية التي تعرّضت الفتيات لها. وذهب بعيدًا إذ نظّر لمصطلح علمي جديد وهو (تفاعلات التحوّل)، في كتابه «التفشّي، موسوعة السلوك الإجتماعي الإستثنائي»[1].

وعلى مرّ تاريخ العلوم الإنسانية، وحتى البايولوجية، كان الضحك ميزة وموضوعة إستقصائية جاذبة تحت مجهر البحث، وتختص بنوعنا الإنساني المعروف. ونجد أن عدداً كبيراً من الفلاسفة والعلماء ذوي الأسماء التاريخية المؤثرة قد تناولوا الضحك على أنه سمة تخضع للتساؤل السببي، ومجال بحث تأثيري لا يستهان به.

كانت، وفرويد، وداروين، وقبلهم أرسطو، وبيرغسون، وآخرون غيرهم كثر، كلّهم عدّوا الضحك (ومن خلفه مفهوم الفكاهة الأوسع) قضيّة جوهرية في دراسة الطبيعة الإنسانية.

نجد أن هذا الكتاب، يغوص في أعماق معنى الفكاهة والضحك من وجهة النظر العلمية. ويركز تماماً على الربط بنظرية التطوّر التي تفسّر «المُعقد التكيفي» الذي سارت عليه أهم التعبيرات العاطفية ـ من بينها التعبير عن الإحساس بالفكاهة ـ وكيف أنها اليوم تمثل النقطة الحساسة جداً في التعبير الإنساني. بل إنها مقياس تفصيلي للانفعال الانساني ومقدار التعاطي مع الفكاهة، بشكل يستحضر كل قدرات التمثيل والظهور والإحساس التي يمارسها الإنسان في حياته اليومية.

كل إيماءة إنسانية، وكل حركة تعبيرية أو انقباضية أو سلوكية يمكن

---

(1) Robert E. Bartholomew. «Outbreak! The Encyclopedia of Extraordinary Social Behavior» (2009) with Hilary Evans.

أن تصاغ ثانية في إطار فكاهي. فقط لو تغيّر الفضاء المعرفي أو العقلي الحاضن لها. ومصطلح (الفضاء العقلي) من بين أدقّ المصطلحات التي يتعرّض لها هذا الكتاب من ناحية المفهوم أو التطبيق وسعة المعنى.

ولا يمكن فصل هذا الكتاب عن جهود المؤلفين، كلًّا على حدة في محاولتهم إثبات نظرية التطوّر وتدعيم وجودها. بل أوجدوا فعلاً مجالات تطبيقية وتجريبية تربط هذه النظرية مع كل العلوم الطبيعية التي تسير على قدم وساق، ربما دون أن تتكلف عناء القول بأن لها أساسًا في الداروينية التطوّرية. لكن الواقع يقول؛ إن كل الدراسات الإنسانية والطبيعية والبايولوجية الحديثة لا يمكن لها أن تغفل حقائق التطوّر كنظرية وكأدلة لها تأثيرها الفعلي. وما إنكارها إلا ضرب من القفز الإعلامي «الكلامي ـ الشعبوي» الشائع بفوضى والمتخالف مع الواقع العلمي.

يهتم صلب الكتاب بوجود التناقضات كمتلازمة للتمتع بالفكاهة. ويفسر ذلك بأن الفكاهة ترتبط بخطأ من نوعٍ ما؛ فكلّ تورية، أو مُزحة، أو حدث كوميدي يبدو أنه يحتوي على أحمقٍ ما، أي الأضحوكة محور المُزحة. وعادةً ما تكون الاستجابة الطبيعية هي الاستمتاع بالحماقة، أو بصورة أدق؛ التفرّج على الحماقة. كما يطرح تساؤلات عميقة من قبيل؛ إننا نتفهّم لماذا نضحك من الآخر المنافس، أو أخطاء الأغيار (ربما تُصاغ على شكل نكات)، لمن؟، ما تفسير السخرية من الذات؟!. وهذا السؤال يقود إلى آخر؛ لماذا بالأصل نستمتع بالأخطاء؟. وإلى افتراض أنه ليست الأخطاء في حد ذاتها هي ما يضحك الناس، بل ما يسميه مؤلفو الكتاب بـ«المكافأة العاطفية لاكتشاف الأخطاء ومن ثم إبطالها في الذهن. فنحن لا نستمتع باقتراف الأخطاء، بل نستمتع بتفاديها».

تكمن أطروحة هذا الكتاب في أن عقلنا يمارس بصفة مستمرة عملية وضع تخميناتٍ عامةٍ بشأن ما سيحدث بعد ذلك، وكذلك بشأن نوايا الآخرين. والفكرة هي أن الفكاهة نشأت من عملية التأكيد المستمرة هذه؛ فالناس يستمدون التسلية من اكتشاف التناقضات بين التوقعات والواقع عندما تكون التناقضات غير مؤذية، وتلك المُتعة تجعلنا نستمر في البحث عن مثل هذه التناقضات. (على سبيل الفكاهة: «كنت أتساءل لماذا يكبر الصحن الطائر، ومن ثم اصطدم بي!) وهي من الفكاهات الواردة في هذا الكتاب. وإضافةً إلى ذلك، فإن الضحك يشكل علامة عامة على قدرتنا للتعرَّف على التناقضات. إنه علامة ترفع من مكانتنا الاجتماعية، وتتيح لنا أن نجذب شركاء ذوي قدرة على التناسل، وهو محور ذو أهمية بالغة في حقيقة البقاء.

وبعبارة أخرى، الطُرفة تمثّل في علاقتها مع حس الفكاهة، ما يشبه تأثير الحلويات المتخمة بالسكّر والزبدة تجاه حس التذوّق. إنها محفز «فائق القدرة»، قادر على استثارة دفقةٍ من المتعة الحسية، وفي هذه الحالة يحدث ذلك نتيجةً لاكتشاف الأخطاء التي تسوقها الطرفة أو الموقف الطريف على أنها حدثت في الحقيقة. مع أن المستمع (المُستمتع) يعلم أنها مجرّد طُرفة، لكن تركيزه سينتقل تماماً إلى تفاصيل السرد. ويختفي الخط الفاصل بين الحدث الحقيقي، وكونها مجرد رواية تتشكل صورها في ذهن المُتلقي (مؤقتاً وإراديًّا).

ولأن إدراك التناقضات يتطلب مخزونًا من المعرفة والمعتقدات (المعلومات التي نعتقد بأنها لن تتغير، أو على الأقل إنها ثابتة لحظة إستدعائها من الذاكرة طويلة الأمد)، فإن مشاركة الضحك تشير إلى تطابق

في الآراء العامة، وتقارب شديد في التفضيلات، والقناعات، وهو ما يعزِّز الروابط الاجتماعية، والشعور بالانتماء إلى المجموعة ذاتها. ويقول هيرلي في هذا الشأن: » إن النظرية تذهب إلى ما هو أبعد من التنبُّؤ بما يبعث الناس على الضحك؛ فهي تفسر أيضًا القيمة الإدراكية للفكاهة ودورها في صراع البقاء».

ويطرح مؤلفو الكتاب هنا في هذه المرحلة من التنظير أهم هدف لهم، وهو ربط كل الفكاهة بالتطوّر وبالعلوم التي تفرّعت نتيجة اعتماده كحقيقة علمية تقف إلى جانبها إثباتات كثيرة ومتزايدة.

ومع ذلك، فإن الإطار النظري الذي يضعه هذا الكتاب، تراه بعض الآراء النقدية التي تعرّضت له عند صدوره على أنه ما زال يمثّل نظرية غير مكتملة. فهي تجيب عن بعض الأسئلة، لكنها تترك أسئلة أخرى دون جواب؛ فعلى سبيل المثال: «لماذا يتغيّر تقديرنا للفكاهة والمَرِح وفق حالتنا المزاجية أو غيرها من الحالات الظرفية؟».

ولا تزال هناك أسئلة أخرى. فعلى سبيل المثال، كيف يمكن التوفيق بين الوظائف المتضادة أحيانًا للفكاهة، مثل دعمها الروابط الاجتماعية، وفي نفس الوقت يمكن أن تستخدم لإقصاء آخرين عن طريق السخرية منهم؟. وعندما يعزِّز الضحك مشاعر الارتباط الاجتماعي، فهل يُعَدُّ ذلك التأثير وظيفةً أساسيةً للضحك أو إنه مجرد نتيجة ثانوية لدور رئيس آخر (كما أن تناوُل الطعام مع الآخرين يحمل قيمةً اجتماعيةً لا يمكن إنكارها، على الرغم من أن تناوُل الطعام يكون دافعه الأساسي هو الحاجة إلى التغذية)؟.

وثمة الكثير من الأدلة على الوظيفة الأساسية للفكاهة. فقد بيَّن روبرت بروفاين (الذي يتناول الكتاب طروحاته بالكثير من التمعّن

والتفصيل)،على سبيل المثال، إن الناس يضحكون وهم بصُحبة الآخرين أكثر مما يضحكون وهم بمفردهم بثلاثين ضعفاً. وفي بحثه، راقب هو وطلابه خلسةً الضحك التلقائي في أثناء ممارسة الناس أعمالَهم في بيئات مختلفة، من جمعيات الطلبة وحتى مراكز التسوّق.

ومن اللطيف أن ننظر في رأي جيوفان أنتونيو فورابوسكو/ Forabosco، في الفكاهة، بِعَدِّ ما كتبه[1] ممهدًا لفهم تنوّع المسارات المعرفية كمنهج لهذا الكتاب. ونجد رأيه يشير إلى أنه تأكد من وجود بعض الارتباك بشأن العلاقة بين الفكاهة والضحك، إذ يقول: «الضحك ظاهرة أكثر اجتماعية في محتواها، وهو يحدث لأسباب غير الفكاهة المجرّدة، وربما منها أسباب بغيضة. وإضافةً إلى ذلك، فإن الفكاهة لا تجعلنا نضحك دائمًا». ويشير فورابوسكو إلى المواقف التي يجري فيها القدح بشخصٍ ما، أو عندما يبدو تعليقٌ ما مضحكًا ولكنه لا يؤدي إلى الضحك.

ويتعلق أحد المجالات الأخرى الملحّة المطروحة للنقاش بدور الفكاهة في الانجذاب الجنسي، وبالتالي في النجاح بالتناسل. ففي أحد الآراء، يقول إن معرفة المرء كيف يكون مضحكًا هي علامة على صحّة الدماغ وعلى امتلاكه جينات جيدة، وهذا يجتذب الشركاء بالتبعية. وقد وجد الباحثون أن الرجال أكثر ميلًا إلى أن يكونوا مُضحكين، وأن الإناث أكثر ميلًا لتقدير حس الفكاهة، وهو ما يعني أن الرجال يتنافسون لجذب الانتباه، والنساء يقمن بعملية الاختيار. غير أن وجهات النظر تختلف بالطبع حول هذه النقطة تحديداً.

---

(1) Giovannantonio Forabosco, «Is the Concept of Incongruity Still a Useful Construct for the Advancement of Humor Research?».

يضع مؤلفو الكتاب رأيهم النظري في ظاهرة الفكاهة ومعه استنتاج مُهم، خلاصته بأنها ليست مجرّد ظاهرة إجتماعية يمكن تفسير آليّات عملها وتأثيرها وحتى نشأتها بنظرية واحدة موحّدة لجميع المُعطيات. هذا سيكون ضرباً من القفز على حقيقة عُمق هذه الظاهرة في وجودها. وطالما أنها تمتد إلى ما قبل تطوّر الإنسان الحالي، وإلى ما قبل الهوميند، فضلاً عن أن آثارها وأشكالها البدائية موجودة في الكائنات الأقرب للإنسان، فإنها إذن كانت من «مُستلزمات» التطوّر وليس مجرّد بقعة ظهرت على خط التاريخ البايولوجي ثم تنامت.

تكاد تكون الفكاهة بعمق اللغة نفسها، وهي أقدم منها فعليًا. وتحمل معانيَ نفسيةً واجتماعيةً لا تقل عُمقاً عمّا يمكن أن تحمله اللغة إن لم تتفوّق عليها في تعقيد رسائلها. ثم ينتهي المؤلفون إلى رأيٍ مهم، هو جوهر فلسفة السؤال عن الفكاهة. فهل للفكاهة تعريف أو»جوهر» واحد؟.

إن الأمر يشبه إلى حدّ بعيد فلسفة الأسئلة التي وضعها معظم دارسي التطوّر والمُدافعين عنه. إنه سيغدو سؤالاً لا معنى له، حينما تكون لا إجابة واحدة ممكنة له. وهنا نلاحظ أن الجدل في الفكاهة وأصلها يعود بنا إلى مسار فلسفي ـ علمي عن نشوء الكون والتطوّر الأول وتبنّي مفاهيم ما كشفته المكتشفات الأحفورية. وهي مفاهيم تردم الفجوات في المنظومة المعرفية (العلمية التي تسير وفقها الإكتشافات العلمية الحالية)، كلّما أضيف إليه إكتشاف أحفوري جديد. وفي الوقت نفسه، فإنها تقلع حجراً من أسوار الإفتراضات القديمة، التي أصّلت نفسها عبر الربط منذ البدايات المبكرة مع الميتافيزيقا، واللاهوت وما لا يمكن إثباته.

هذه (المعرفة) القديمة، رسّخت نفسها عبر التكرار والنقل وكثافة

المؤمنين بها، فاصبحت في الذهنية الإنسانية من «الطبيعيات» ومن الأسئلة التي لا يضطر الإنسان العادي أن يطرحها كل يوم.

وحين نتحدث عن «جوهر» الفكاهة، فكأنما نطرح سؤالاً عن «جوهر» الحب مثلاً. على الأغلب يمكن دراسة المشاعر المُفضية الى الحُب أو المصاحبة له. مثلما يمكن دراسة الجوانب التأثيرية، وحتى الإختلافات الفسلجية المؤثرة على عوامل الانجذاب. في النهاية يمكن دراسة هذه المشاعر من عدّة جوانب، أما جوهر الحب فهو سؤال ليس بالضرورة أن تتوفر إجابة له. وإن لم تتوفر، فهذا لا يعني أنه سؤال علمي عجزت الدراسات العلمية عن السير في منهج الإجابة عنه. الفكاهة يمكن أن توصف، وأن نلاحق تأثيراتها وآليّات عملها. وكذلك البحث في السمات المشتركة بين أنواعها، وتطبيقها على الحالات المأخوذة كعيّنات.

إحدى هذه السّمات المشتركة، وهي عنصر إدراكي يتمثل في «فهم التناقض». يطرح هذا الكتاب أن من الضروري دراسة التناقض المحفّز لعمل الفكاهة، ولكنه ليس كافيًا؛ لأن ثمة تناقضات غير مضحكة. لذا فإن علينا أن نبحث عن العناصر الأخرى. والتناقض يحتاج إلى تخفيفه، من دون أن يُحَل بالكامل، بمعنى أنه يجب أن يظل غامضًا، أي أن يظل هناك شيء غريب لا يمكن تفسيره بالكامل قط.

ويمكن لعناصر إدراكية ونفسية أخرى أن تضيف بعض التأثير. هذه العناصر تتضمن سمات مثل العدوانية، والجنس، والسادية، والتشاؤم. ليس بالضرورة أن تكون هذه العناصر حاضرة، إلا أن أكثر المزحات إثارةً للضحك هي تلك التي تحتوي عليها. وبالمثل، يميل الناس إلى

عدِّ الدعابات التي تكون «غاية في الذكاء والخبث» هي التي تحمل القدر الأكبر من الفكاهة.

لا يخفى أن هذا الكتاب يأتي ضمن سياق البحوث والدراسات التي تطرح أفكار ما بعد التطوّر. فالنظرة الثقافية الحديثة، المتواشجة مع القواعد العلمية المُثبتة، والتي تثبتها الإكتشافات الحديثة كل يوم، باتت تتعامل مع قضية (سُمعة) نظرية التطوّر على أنها أصبحت من الماضي. فالساحة العلمية لم تعد تناقش التطوّر إلّا من زاوية الكشف عن تطبيقاته الحديثة، أو النبش في زوايا قديمة لم تستوفِ حقّها من الدراسة، وإعادة طرحها على الطاولة، لكن من زاوية حضور مضلّة التطوّر بقوّة. والفكاهة موضوع هذا الكتاب، هي إحدى هذه الزوايا. إن الفكاهة التي تتخذ من الفضاء العقلي ملعباً لها، بإمكانها أن تكون نقّالة أفكارعالية الكفاءة[1]. ومنصّة يصعب دحض نشوئها الأصيل في سياق التفاعل الإجتماعي.

وخلال سَير ترجمة الكتاب وتنوّع الأوجه العلمية التي قلّب بها مؤلفو الكتاب أوجه بحثهم في الفكاهة، كنت أرغب كقارئ أولاً أن تكون هناك مساحات أكبر للدوافع الإجتماعية المستجدة في المواضيع التي اختّصت بها الفكاهة، رغم أنها ليست من صلب الأسئلة التي تطرح عن هويّة العميقة الفكاهة. إذ نجد عبر صفحات الكتاب، أن سؤال النشأة قد هيمن على أهداف المؤلفين.

وسيجد القارئ رغبة لدى المؤلفين في الربط بين حداثة النظر للفكاهة، وحتمية الحداثة العلمية المرتبطة بطرفها النهائي بنظرية التطوّر. بعبارة أخرى، ليس علينا أن نتوقع فهمًا حديثًا للفكاهة، يواكب العِلم الحديث

---

(1) W. Larry Ventis.«Why do we have a sense of humor?».

مالم نتبنّى بالأصل قناعة شاملة لكل ما أنتجته نظرية التطوّر وبراهينها المتزايدة يومًا بعد آخر.

إن الأصل في مشكلة التعامل مع نظرية التطوّر لا علاقة له بالمجتمع العلمي أو الدوائر العلمية والتكنولوجية، فهذه هضمت وجود التطوّر وتبني تقدّمها على حزمة علوم كلّها تتوافق معه. لكنني أجد المؤلفين هنا يرغبون في القول: إن التطوّر له آثاره في كل مسارات البحث العلمي، حتى الفكاهة التي لم تدرس إلّا نادراً. وهي ترتبط بحياتنا عبر تطوّر وظائف الفكاهة وأغراضها.

كما سيجد القارئ بعض الشروحات في هوامش عدد من المصطلحات أو المعلومات التي أوردها الكتاب. والحقيقة أني لجأت إلى هذا الأسلوب حين أجد أن الترجمة المباشرة غير كافية لإيضاح المعنى، خاصّة أن اللغة التي كُتب بها الكتاب كانت تميل إلى التعالي الفلسفي المُنهِك للجُملة. أو أنها كانت لغة مطوّلة متعددة المعاني، مما اضطرني إلى شرح المعنى بهامش، أو اللجوء الى التصرّف في الترجمة في كثير من الأحيان. على أنني قدّمت أهمية وصول الموضوع بأكمله إلى القارئ في النهاية، وهي الأهمية الأولى التي رأيتها في هذا السياق. وقدّمتها على نوعية المبنى اللغوي الذي صيغ به النص الأصلي للكتاب.

وأخيراً، أتمنى أن يعثر القارئ بالعربية على ضالّته في هذا الكتاب، علمية أو إجتماعية، من بين شوارد كثيرة فاتت على المكتبة العربية أن تقتنيها وتضمّها من بين العلوم والآداب الحديثة.

قيس قاسم العجرش

بغداد 2021

مكتبة
t.me/t_pdf

تصدير

في نيسان من عام 1975، كتب مارتن غاردنر / Gardner، عموداً صحافياً في مجلة «ساينتفيك أميركان»، تحت عنوان؛ «ألعاب رياضية»، يقول فيه إن برنامجًا جديدًا للعب الشطرنج عبر الحاسبة الإلكترونية، قد جرى تصميمه في معهد ماساتشيوسيت للتكنولوجيا. وقد جرت برمجته وفقاً لقاعدة ضخمة من الإحتمالات، بحيث أنك ما أن تحرّك بيدق الملك إلى المربع الرابع في إفتتاح الدست، حتى تكون النتيجة قد حُسمت لصالح الأبيض، كش مات!.

إنها مأساة حقيقية إن كان هذا الأمر حقيقيًا كما وصفه غراندر. إذ أن لعبة الشطرنج النبيلة والراقية ستكون قد وصلت إلى موتها بهذا الإختراع. ولن يعود هناك المزيد من التحدّي العقلي أو أي دور للمهارة والتفكير. وحتى لو كانت هناك خوارزمية يمكنها جمع الإحتمالات كلّها التي ممكن أن تُلعب، فإن هناك شيئًا غير إنساني سيتمكن من إحراز الإنتصار في لعبة إنسانية. وسيتمكن هذا الذكاء من إفراغ اللعبة من أي محتوى للذكاء الإنساني، مثلما سيكون وصفةً لتبديد كلّ المجد الذي صاحب أعقد المباريات بين أشهر اللاعبين عبر التاريخ.

وبعد ذلك، من سيكون متاحاً له أن يفني عُمره في حيازة مهارات

اللعب، ومعرفة الأسرار للفوز!، إن كانت هناك طريقة سهلة لربح الدست في ثوانٍ، ومحفوظة على ظهر برنامج إلكتروني. من هذا الذي يرغب بأن تضيع كلّ جهوده، وقراءاته، ومتابعاته لتاريخ لعبة الشطرنج، من أجل أن تتحول إلى مجرّد ضربات في هذا البرنامج؟. بالتأكيد كان هناك عدد كبير من الذين ضاقت صدورهم بهذا الخبر قبل أن يعرفوا أنها لم تكن سوى مُزحة الأول من نيسان، لكنّها إلى حد ما تنطلق من أساس حقيقي. وتحوّلت فيما بعد لتكون أقرب إلى الصداع لمحبّي اللعبة.

بعد سنوات من تلك الحادثة، وفي ساعة متأخرة من الليل، كان هناك باحثان علميَّان يعملان على تحليل كمّية ضخمة من البيانات التجريبية والتسجيلية المتوفرة لديهما عن مسألة (الذّروة الجنسية). الباحثان هما؛ فرجينيا جونسن/ Johnson، ووليام ماسترز/ Masters [1].

إكتشف الباحثان في ومضةٍ معرفية، أن هناك نمطاً متكرراً من الإستجابة للذروة الجنسية، يحدث فيما لو تكررت أنماط محددة من المقاطع الصوتية بين المشتركين في التجارب في أثناء ممارستهم للعلاقة الحميمية. ولا يهم بأي لغة كانت هذه الأصوات، إلّا أنها يمكن أن تعجّل بإنهاء اللقاء الجنسي خلال ثوانٍ فيما لو تكررت، أو جرى

---

(1) فرجينيا.أي.جونسن، ووليام.أتش.ماسترز، باحثان أميركيان نشطا مطلع الخمسينيات من القرن الماضي. واشتغلا على وضع قواعد علمية للجنس، واستقراء السلوك البشري الفسيولوجي خلال الإتصال الجنسي. استمرّت أبحَاثهما منذ أوائل الستينيات وإلى غاية نهاية التسعينيات. ولاقت أبحاثهما رواجاً كبيراً في الأوساط العلمية، حتى أنها تحوّلت إلى سبعة كتب نشراها بين عامي1966، و1994. لخص سيرتهما الكاتب ثوماس ماير، في كتاب شهيرعنوانه؛(Masters of sex) الذي تحوّل فيها بعد إلى مسلسل تلفزيوني واسع الإنتشار تحت نفس العنوان ـ المترجم.

ترديدها. أكثرمن ذلك، إن الباحثين اكتشفا أن النمط التكراري يخضع لمتوالية فيبانوتشي/ Fibonacci الرياضية.

أعاد الباحثان فحص قواعد البيانات. ثم أجريا بعض التجارب التأكيدية الإضافية ليتأكد ما توصّلا إليه. لكن ماذا فعلا بعد ذلك؟.

لقد دمّرا قواعد البيانات التي بحوزتهما. وأعدَما كل النتائج التي توصّلا إليها. وتعاهدا على ألّا يبوحا بهذه التفاصيل عن حقائق هذه التجربة التفصيلية. وبفضلهما جرى (إنقاذ!) حياتنا الجنسية من التلاشي. وبقي (الجنس) كما نعرفه قائمًا لحد الآن.

وفي بدايات عام 2010، وضع كل من؛ دانيال دانييت، وهارلي، وآدامز، اللمسات الأخيرة على نظريتهم النموذجية في الفكاهة التي تخضع للنظام العصبي المُحوسب، وقد يكونون بالفعل قد توصلوا إلى كسر اللغز الذي حيّر المحللين والدارسين لهذا السلوك الإنساني منذ ألفي عام. ويبدو أنهم لم ينجحوا في كشف الميكانيكية العصبية للفكاهة فحسب، إنما وضعوا وصفة وظائفية تحليلية للطريقة التي تستولد فيها الفكاهة. وكيف تجري عملية تحفيزها. وهذا يشتمل كل أنواع الدُعابة والفكاهات؛ من التهريج، وصولًا إلى الدُّعابة الطريفة البارعة، ومن النّكات القذرة إلى الكوميديا الراقية. فقط طبِّقِ النمذجةَ العلميةَ التي وضعوها، حسب مفاهيمها ومنطلقاتها وسيكون الناتج هو أعمال أوسكار وايلد، وتشارلي تشابلين. ووليام كلود دوكنفيلد/ Dukinfield (كوميدي أميركي 1880 ـ 1946). وبيلهام وديهواس/ Woodyhouse (مؤلف هزلي بريطاني 1881 ـ 1975). ستكون كل نتاجات هؤلاء، مفسّرة ومفهومة. وستتضح روح دعابتها سواء في الدوافع، أو المحرّكات التي أطلقتها، أو نطاق عملها وتأثيرها.

ولو قلّبنا التطبيق هذا كرّة أخرى، وأسقطناه على ما في الحداثة من مُعطيات، سيكون واضحاً لدينا أن الناتج هو ستيف مارتن، ودايف باري، وكاري لارسون. كلّها كانت نتاجات متناغمة مع السبب والمُسبب والطريقة والهدف من الدعابة.

لقد انتصر العِلم الاختزالي مرّة أخرى. وستموت الدعابة التي سبق أن عرفناها طوال حياتنا قريباً..

حسناً، لقد كذبنا عليكم فيما يخص بحوث ماسترز وجونسن (الباحثان حقيقيان،إلّا أن قصّة اكتشاف أسرار فشل الذروة الجنسية مُختلقة). وكذلك فيما يتعلّق بوجود (وصفة) ستؤدي إلى موت الفكاهة والدُّعابة كما نعرفها قريباً.

إن النظرية التي سيتطرّق لها هذا الكتاب، لا تكتفي بنفي وجود هكذا وصفة شمولية وشاملة تفسّر كل شيء، إنما ستبيّن لماذا أن من المستبعد جداً لأي شخص، أو أي مجموعة من العقول الإلكترونية أن تجد مثل هذه الوصفة السّحرية تحت غِطاء العِلم.

إن الأدب يختلف واقعاً وحقيقة عن العِلم. والكوميديا ليست إلّا أدباً وفنًّا. مثلها مثل الموسيقى. والفنّ يستبطن في العادة تقنية من نوع ما تعمل على تحريكه وتنسيق تأثيره. لكن، دائماً كان يتوجّب على هذه التقنية الفاعلة أن تكون معقّدة بشكل فنطازي، يربط هذا التعقيد بشكل ساخر (وليس بالضرورة أن يكون منطقيًّا) بين مكوناتها الفاعلة التي تعمل سوية.

على أرض الواقع، ليس هناك من يستطيع أن يؤكد استحالة ظهور

خوارزمية تحمل حلولاً مطلقة للشطرنج، وتكون كاملة مكمّلة بحيث (تموت) اللعبة بوجودها. وإن من المعروف فعلاً أن الشطرنج يمكن وضعه ضمن خوارزميات مُحددة، لكنّ من شبه المستحيل أو غير معروفٍ لحد الآن، وجودَ عقل إلكتروني مهما بلغت سعته، أن يحيط بكل هذه الخوارزميات. لأنها قصّة لا نهاية لها.

وعلى نفس الشاكلة، لا يمكن لأحد أن يقول بوجود طريق اختزالي يمكن أن تسلكه الفكاهة، بحيث تنتهي من التأثير، وتفقد المفعول مع تغيّر ثقافات التلقّي. بل العكس تقريباً صار أقرب إلى الإثبات، وكلما مرّ الزمن سنكتشف أن الفكاهة كشفت عن ديمومتها، وأنها يمكن أن تسلك مسالك جديدة ومفاهيم محدّثة، لتفعل فعلها مجدداً وتؤثر على أناسٍ جُدد. هذا الواقع، لا يمكن تقييده بافتراض مأساوي بأن هناك (ميكانيكيّة) مُحددة، وطريقًا مُختصرًا تسلكه الفكاهة لتحقق مراميها.

ولو كانت هناك فعلاً ميكانيكية واضحة ولا تقبل التغيير لعمل الفكاهة، عندها يمكن أيضاً صنع آلة مُحوسبة واسعة جداً يمكنها إنتاج كل أنواع الفكاهة.

وقياساً على ذلك، فلا يمكن لأحد أن يجزم بوجود طريق مختصرة تسلكها الدُّعابة والطُرفة والفكاهة. أو وجود طريق مماثلة لفهم أسرارها وسبر أغوارها. إلّا أن مجال الفعل الفُكاهي والفضاء الذي يعمل فيه، هو أكبر بكثير، أكبر بما لا يوصف، لن تتمكن أي خوارزمية من الإحاطه به. وهو أكبر من إحتماليات لعبة الشطرنج بما لايقارن على الإطلاق.

مع ذلك، فإننا ندرك أن العديدين سيقابلون هذا ما نطرحه من نموذج

نظري في الكتاب بعواطف ومشاعر مُختلفة. وربما سيكون أبرزها الفضول لمن يحاول أن يجيب عن السؤال المشدد والخانق؛ لماذا هناك بالأصل فكاهة؟. وكيف يمكن للفكاهة والدُّعابة أن تفعل فِعلها أو تنشر تأثيرها؟. وكيف يمكن أن تتنافس في وجودها على أمل أن تنتصر في النهاية؟.

إننا نتشاطر في الحقيقة مع القراء هذه التساؤلات المهمة. وكيف أنها في لحظة ما سيتوجّب عليها أن تنصاع للعِلم. وسنكون في كلا الحالتين ممتنين. وسنحاول أن نشرح سبب الوجود الأصيل للفكاهة. ولماذا يجب أن تكون الكوميديا فنًّا وأدباً وليست عِلماً.

إن الموضوع الرئيس في هذا الكتاب هو الفكاهة، لكنه لن يتحدث عن الفكاهة فقط. إنه عن المِحنة الفردانية، مِحنة الفرد الذي يعيش وسط عالم أو طبقة تتبنى نموذجاً من الإدراك يمكنه أن يتعامل بنجاح مع مِحنة الوجود هذه. لقد شهدنا جدلاً يطرح أن العواطف والمشاعر إنما تحكم (كلّ) نشاطنا الإدراكي. تحكمه قليلاً أو كثيراً. ولهذا، فإن الفكاهة تشكل جُزءاً حيويًّا، ومصدراً غنيًّا يعزز فكرتنا عن مشهد الميكانيزما الناعمة العاملة داخل أدمغتنا. لو استخدمنا التنظير المناسب، لأمكن استخدام الفكاهة كنوع من وسائل قراءة الفكر والعقل الفاعل.

لقد اعتمدنا كثيراً على ما سبق أن وُضع من كتابات ونظريّات في هذا المضمار، لكننا أضفنا وجهة نظر تطوّرية ومقارنة كانت مفقودة، فأصبحت هي حلقة الربط بين عناصر القوّة في هذه النظريّات المختلفة.

إن الفكاهة لا يمكن أن تكون مجرد حادثة سعيدة في سياقاتنا البايولوجية. والمشكلة أنها خضعت للتصميم والتوجيه الموظف عبر

عملية التطوّر كي تُسهم في حل مشكلة قد تكون فريدة من نوعها لنوعنا الإنساني. نقول هذا رغم إننا نلاحظ نوعاً من الفكاهة البدائية، أو سلوك (ما قبل الفكاهة) في أنواع أخرى من الكائنات الحيّة غير الإنسان.

إن الإطار النظري الذي نقدمه يحاول الإجابة عن الأسئلة التي لم يسبق أن طرحها الدارسون الأوائل لظاهرة الفكاهة. وربما لن تكون هذه الأسئلة صائبة تماماً، لكنها بالتأكيد ستصنع تقدمًا كبيراً وفرقاً عن الدراسات الأولى.

ونحن مدينون إلى عدد من المنظِّرين والباحثين الذين اشتغلوا في هذا المجال، وستظهر أفكارهم في هذا الكتاب.

ومن بين الأوائل الذين درسوا بعمق هذه الظاهرة، هو الكساندر تشيسلينكو/ Chislenko، الذي ألهمت أعماله وكتاباته ونظريته ماثيو. أم.هيرلي/ Hurley (وهو أحد مؤلفي هذا الكتاب)، كي يبحث في إيجاد أجوبة ضمن إطار نظرية التطوّر للإجابة عن هذه المُعضلات.

إن ما نضعه هنا من أسس نظرية، تختلف عن وجهة نظر تشيسلينكو، لكن لولا إيضاح الزاوية التي اشتغل منها على إطاره النظري، ماكان لهذا الكتاب وما فيه أن يرى النور. كما أن عرفاننا يتجه إلى عدد كبير من الذين قدّموا يد العون، ووضعوا أعمالهم رهن بحثنا.

ماثيو.أم.هيرلي.
دانيال.سي.دانيت.
رينالد.بي.آدمز جونيور.
2011

(1)

مدخل إلى الفكاهة

المسرح يقسّم الحياة على نصفين؛ الكوميديا والتراجيديا[1]. وعلى أرض الواقع، نجد أن وقتًا كبيرًا يصرفه الناس من حياتهم اليومية في محاولة جعل الآخرين يضحكون. تروى القصص، وتتلى الطرائف والمفارقات، وتبرز الدّعابات أينما أمكن لها ذلك. وفي مناسبات جادّة محدودة فقط ستبدو الفُكاهة لو ألقيت أنها في غير محلها. ويدأب مبتكرو الفكاهة على الدفع بظروف مناسبتها طوال الوقت. وحين نجد الفكاهة في موقف ما، سيعترينا شعور بلزوم مشاركتها مع الآخرين. كما أن ذائقتنا في انتقاء الكوميديا الجيدة، تبدو اليوم أكثر حذاقة ودقّة من ذائقتنا المماثلة اتجاه الأعمال الدرامية والتراجيدية الجيدة.

ويقبع الجزء الأعظم من صناعة الترفيه اليوم ـ لو استثنينا الموسيقى ـ ضمن قطّاع الفكاهة، أو على علاقة بها بشكل من الأشكال. ولو صادف أن سير أحداث حياتنا اليومية كان خالياً مما يكفي من الكوميديا، فإننا سنلجأ إلى التلفزيون وندع مؤدّي الكوميديا المشهورين يملؤون هذا الفراغ.

(1) الملهاة والمأساة تعريب لهذين المصطلحين اللذين يمكن استخدامهما بلا تعريب لشيوعهما ـ المترجم.

وسيملؤونه بطريقة تشبه إصرارنا على ملء ساعات الصمت بالموسيقى خلال أوقات الحاجة إليها. إن ما تفعله الفكاهة هنا هو التعبئة بالمُتعة والتزوّد بها مثل وقودٍ لماكنةٍ ما.

إن الفكاهة، مثلها مثل الكحول والتبغ والقهوة والموسيقى، فهي جزء من الإدمان الحديث للإنسان. وإذا كنّا بصدد محاولة فهم الفكاهة، سنجد أنفسنا بحاجة أولاً لتبني وجهة نظر بايلوجية تلقي ضوءاً على التفاصيل. وأيضاً سنكون بحاجة إلى إيجاد علاقات وقوانين تحكمها، وتكون قابلة للاختبار والقياس. وأن نفهم قبل كل شيء، كيف تطوّر هذا الإحتياج الإدماني في داخلنا.

إن كل خليّة في أجسامنا هي بحاجة مستمرة للسكّر (الغلوكوز)، وهو الوقود الذي يبقينا أحياءً. وواحد من المصادر الجيّدة للغلوكوز هو الفركتوز، وهو السكّر المتوافر في الفواكه اليانعة، والذي يمكن للكبد أن يحوّله مباشرة إلى غلوكوز.

وحين يتحوَّل هذا، إلى نوع السكّر الشائع ـ النوع الذي يتذوّقه لساننا ويتحسس حلاوته وهو (الفركتوز)، سيستقبله الجسم، فقد صمم التطوّر نظاماً قويًّا لحصاد الفركتوز، ومنحه الأولوية وجعل خلايانا تعمل وفق المبدأ العام التالي:

متى ما تحسس الإنسان إمكانية لحيازة الفركتوز، فإنها فرصة ستُعد جيّدة. سيتعامل معها الدماغ على أنها «فرصة جيّدة». إنه لأمر يصعُب تصديقه، بأن طعم الكيك اللذيذ، أو الشوكولاتا الرائعة، أو الشراب الحلو المذاق، أو طعم مربى الستروبيري المُمتع، كلها ستتحوّل أو تتلخص في

نهاية العملية إلى فركتوز، وهو ما يحصل في الحقيقة. هذا هو السبب الحقيقي والعلمي كي نفهم لماذا لدينا ميلٌ عميقٌ ودفين نحو استطياب الأشياء الحلوة المذاق.

إننا نمتلك «عظمة الطرافة»، لسبب مشتق بنفس الطريقة التي ننجذب فيها إلى السكّريات. وللأسف، فإن ظاهرة التطوّر ليست على البساطة والإختزال التي يُظهرها البعض بها.

إنها ليست مجرد مسألة إنتخاب طبيعي، أو تقديم لهذا الجين أو ذاك، حسب ما تعلّق بأي من الملامح أو الصّفات التي يبحث فيها الباحثون. ففي التطبيق والدراسة العملية، يكون من المهم الأخذ بنظر الإعتبار عند دراسة التطوّر، أن يُنظر إلى الوسيلة التي جرى بها. وألّا يكتفى فقط في تحصيل ما انتهت إليه هذه العملية. الوسيلة التي تنجز بها الآلية العضوية مهماتها. وسنجد دائماً أن سؤال «كيف»، في البايولوجيا، هو أهم من السؤال «لماذا».

وببساطة أخرى، نجد أن بعض الألغاز المتعلّقة بالتطوّر، لا يمكن حلّها ما لم تتوافر المعلومات عن المعوّقات التي تواجه المنظومة المتكاملة وهي تحاول أن تنجز واجباتها. بل حتى لا يمكن وضع قواعد تعليمية لمقاربة هذه الحلول، ما لم يتوافر لنا نموذج أولي عن عمل هذه المنظومة.

وخلال سير صفحات هذا الكتاب، سنعرض للقارئ كيف أن تطوّر «حس الفكاهة» لدى الإنسان، لا يمكن تفسيره ما لم نتوفر على فكرة واضحة عن الهيكل الوظائفي للدماغ الإنساني. وسنكون بحاجة إلى وضع فرضيات عن طبيعة هذا العمل الوظائفي. يأتي هذا لسبب مبسّط، خلاصته أن المقوّمات المختلفة الصانعة للفكاهة، ليس لديها ما يجمعها

سوى تأثيرها المتشابه على أنظمة الدماغ، وما ينتج عنها من تجارب ذاتية. أي إن الموارد التي تتحصل منها الفكاهة لا تشبه بعضها سوى في أثرها على الدماغ البشري.

ولقد جلبنا الإنتباه ـ خلال الكتاب ـ إلى أهمية التعقيدات الفيزيائية التي هي موضع أهمية حقيقية. لكننا عادة ما نشيح بهذه التعقيدات جانباً خدمةً لأغراضنا، حتى لو كان هذا الترك فيه مخاطرة ومجازفة، لكننا نفعل هذا حتى مع التعقيدات التي تواجهنا في الحياة اليومية.

ورغم كثافة وجود الفكاهة في حياتنا اليومية، لكنّها بنفس القدر على الأقل تكون غامضة ولا يُستبان منها كل آلياتها وطرائق عملها وتأثيرها. لكن، لماذا وجدت الفكاهة بالأصل؟. أو في سؤال آخر؛ لماذا تكون الفكاهة ممتعة؟. ولماذا لا يمكن لنا ملاحقة النكتة والتعامل معها دون أن يكون ذلك مصحوباً بأي مشاعر؟.

والسؤال اللاحق لماذا نضحك حينما يكون الموقف أو الموضوع طريفاً؟. ولماذا لا يكون البديل أن نحكّ آذاننا مثلاً؟، أو نغيّر من نمط وجوهنا أو أي فعل جسدي آخر، فلماذا الضحك تعييناً؟.

إن هذه الأسئلة تقفز أمامنا حين نعرض لدراسة الفكاهة. ويبدو عجزنا عن إجابة هذه الأسئلة وكأنه على صلة بالعجز عن إجابة السؤال الدافع الأساس الذي قاد معظم الأبحاث حول الفكاهة، وهو؛ ما هو (حسُّ الفكاهة)، ولأي غرض يخدم؟. وما هي الصفات الواجب توفرها كي نفرّق بين الأشياء التي نعدُّها «طريفة»، وتلك التي نتعامل معها على أنها لا علاقة لها بالفكاهة والطّرافة؟.

إننا نؤكد أن هذه الأسئلة لم تطرح إلّا لُماماً وبشحّة، كما هو الحال في

عالم المعرفة الذي سبق ظهور نظرية داروين، وعصر التفكّر قبل اكتشاف التطوّر البايولوجي. وإن من الخطأ البحث عن صفات أساسية إفتراضية طالما أن الباحث سيواجه أمامه احتمال أن يجد خيوطاً تربط هذه الفقرات ضمن التغيير الحادث تحت ضغط الإنتخاب.

والمعضلة الجوهرية في دراسة الفكاهة لها وجهان؛ فقد ذكرنا للتو صعوبات التصنيف والتقسيم للصّفات الميزة للفكاهة والطرافة، لكن من جانب آخر، سنواجه مخاطر الخلط بين هذه الصفات المتوفرة في الفكاهة، والصفات الأخرى الموجودة أصلاً في ظواهر أخرى قريبة. ففي عالَم بصماتِ الإدراك الإنساني المجاور للفكاهة، سنجد مثلاً تقارباً مع «الألغاز غير الفكاهية»، سواء في الصفات أو التشخيص أو التمييز. أو تشابهاً مع «ألعاب الكلمات»، أو مع «حل العُقد السردية».

أو حتى تشابهاً في التقدير المعنوي، الأشياء التي حين نقدّرها وننظر لها إكباراً تعترينا مشاعر ما، مثل مشاعر الفرح المصاحبة لمشاهدة إنجاز لموهبة ما. إن تجربة الفكاهة تختلط وتتشابك مع هذه التجارب القريبة الأخرى دون أن يكون هناك حدودٌ فاصلةٌ واضحة بينهما. إن «ألعاب الكلمات»، من الممكن أن تكون ممتعة دون أن تحتوي في تفاصيلها على طرافة من أي نوع. الأمر نفسه ينطبق على صيد السمك، أو العناية بالحديقة، أو أي فعل آخر.

إننا نلاحظ حدوداً ضيقة بين الأفعال التي يمكن إطلاق صفة «الطرافة» على محتواها، في مقابل الأفعال التي تنطوي على «بهجة»، فتكون أفعالاً سارّة ومُبهجة. رغم أن كليهما من النوع الحاوي على المتعة الإدراكية المحسوسة، بشكل أو بآخر.

ولهذا ستواجهنا (مثلما واجهت الباحثين سابقاً وحاليًّا) مشكلة التصنيف والتمييز الدقيق بين الأفعال على أنها طريفة، أو أنها تنتمي إلى الفكاهة. والأجدى أن تستبدل محاولات التصنيف هذه بالسؤال التالي: ما الذي يجعلنا (نحن)، نشعر بأن هذا الشيء أو ذاك الشيء طريفٌ أو فكاهيٌّ؟.

إن هذا السؤال يؤدي بنا إلى مواجهة نوع من الإجابات العرضية، وبدلالة عملية معيّنة تجري في أذهاننا نحن. وهي أن نطوّر نموذجاً من المخططات الإبتدائية. هذه المخططات أو (الخرائط الإيضاحية) لا تختص فقط للفكاهة المبنية على الإدراك، إنما تُدخل المشاعر والحسابات (حساب الأشياء في الذهن وتوقّع مُخرجاتها)، في رسم شكل الفُكاهة وآلية عملها[1] وتأثيرها.

قد يبدو هذا الأمر للوهلة الأولى طموحاً بإفراط، وقد يبدو غير مترابط بالأصل. إن أصل الفكرة بوجود كينونة مُحوسبة (أي قابلة للإحتساب) للفكاهة، قد جرى اعتبارها أمراً مستحيلاً منذ وقت طويل.

في قصص الخيال العلمي، نجد أن الشخصيات التي تحمل الذكاء الصناعي الخارق (مثل شخصية داتا/ Data، في المسلسل التلفزيوني الشهير ستار تريك)، نجدها مُصَممة على ألّا تحمل معها تأثير المشاعر بالعموم، وبالخصوص في سلوكيات معيّنة تستدعي فعلاً الفكاهة بالنسبة للجيل المعاصر الذي يقرأ أو يشاهد قصّة الخيال العلمي. ويبدو أن كتّاب

(1) أينما يرد مصطلح «آليّة عمل الفكاهة»، أو«ميكانيزما الفكاهة»، فإنّه يعني فكاهة معيّنة هي موضوع البحث، أو المثال التجريبي المدروس، ولا تعني (كل) آليات عمل الفكاهة بعمومها، فالمؤلفون يؤكدون على أن ليس هناك آليّة موحّدة تجمع كل أنواع الفكاهة بتوصيف طريقة عمل وتأثير واحدة ـ المترجم.

هذا النوع من الأدب يؤمنون نمطيًّا بعدم إمكانية منح الصفات الفكاهية، أو ممارسة الفكاهة من قبل كائن محوسب غير بايولوجي. أو إنهم يتحفّظون على منح الصفات الفكاهية للكائنات الصناعية، لأن ذلك يتطلب الكثير من الجهود التفسيرية والتبريرية ضمن العمل الفني.

إننا نطرح هنا، الفرضية التالية؛ إن العناصر التي جرى حوسبتها بشكل حقيقي، ويجري منحها الذكاء الصناعي الخارق، لا يمكن أن تتم هذه العملية ما لم يجرِ تضمين الفكاهة وبعض المشاعر فيها. إن هذه المشاعر ـ أوما يقابلها من وظائف ـ ستكون ضرورية لأي كائن، سواء كان بايولوجيًّا أم يمتلك الذكاء الصناعي، طالما كان لديه ذكاء من المستوى الإنساني تحديداً.

بمعنى آخر، لا يمكن حيازة الذكاء الإنساني بمعزل عن حيازة المشاعر المرافقة لهذا النوع من الاكتساب المعرفي.

وعندما نستخدم كلمة «مُحوسب»[1]، هنا فإننا نشير في دلالتها إلى معنًى أوسع مما تستخدم فيه عادة ضمن العلوم الإدراكية. إننا هنا نتوجّه مباشرة إلى المتطلبات الوظائفية التي يشترطها وجود هكذا نظام محوسب، مما سيسمح في يوم ما بوضع خريطة فعل متكاملة لها. ربما سيقوم بذلك علماء الأعصاب، فهم الأكثر تأهيلاً لخوض هذا الاستكشاف المستقبلي.

إن النموذج النظري الذي نعمل على بحثه وتأسيسه هو نموذج يفسر

(1) يركز المؤلفون سردهم هنا على أن الفكاهة، وتأثيرها وفعلها ووجودها ووظيفتها، كل هذه الملامح، إنما تعمل ضمن فضاء شامل لنظام محوسب مسبقاً. يمكن ربطه بعلاقات أمبريقية أو حتى رياضية، يتوافر فيها الغرض والدافع والمؤثر والنموذج. وهو ما يسعون إلى إيضاحه ضمن سير فصول هذا الكتاب ـ المترجم.

الفكاهة كما أوجدها الحسُّ الإنساني والحاجة الإنسانية والإستخدام الإنساني. هذا النموذج النظري الذي نعمل عليه، سيسمح للفهم غير الإنساني ـ الذكاء الصناعي مثلاً ـ أن يختبر الفكاهة وأن يكون لديه قواعد علمية (أكثر من كونها تفاصيل تشريحية فسلجية يختص بها علماء الأعصاب)، بما يمكّنه من قياس وتوقّع «حس الفكاهة».

ولنتذكر، أن ليس كل مظاهر التعبير التي تتضمن ملامح الفكاهة، هي رسائل فُكاهية أصيلة ومقصودة. فقد لا تحتوي بالأصل على روح الفكاهة. ولكي نصنّف الفكاهة على أنها ـ في حالات ما ـ تكون نتاج الذكاء الصناعي الحائز على حسّ الفكاهة أو الذي يمتلك القدرة على التعبير السلوكي، وجب أن تشترك هذه الكيانات (التي تستشعرالفكاهة)، في طُرُق معالجتها لموضوعة الفكاهة، أو تشترك في محتواها المعلوماتي مع الفكاهة الطبيعية.

لكن، أيُّ شقٍّ من عملية مُعالجة الفكاهة والتعامل معها هو الأهم؟. هنا، لن نناقش وفرة البروتين في الخلية خلال هذه العملية، ولا أي مادة بايو ـ كيميائية أخرى. وبدلاً من ذلك، سنركّز على الخاصّية الأكثر تعبيراً عن خلاصة هذه العملية، إنها بالضبط تفصيلة عملية «التعامل» مع المعلومات ومداولتها وتعاطي الذاكرة معها، ولماذا وُجدت هذه العملية بالأصل؟.

ولقد وضعنا في تفاصيل بحثنا أن المقاربة الرياضية الجبرية المباشرة لن تكون مناسبة للإحاطة بكائن يحمل «حس الفكاهة»، ويعمل به. لأن الفكاهة مبنيّة على أن تستجيب لتحرّي عملية محوسبة كاشفة حين تتحرى عنها. هذه العملية الكاشفة تطوّرت لكي تسمح بالإستنتاجات الآنية واللحظية أن تتوافق معها.

بعبارة أخرى، الفكاهة هي ما يُستدرك على أنه فكاهة على الفور، وما يكتشف طرافته من فوره. وما إن تكن بحاجة الى شرح، فإنّها ستنحدر عن هذا الوصف بلا أدنى تأخير.

إن القضية الأساسية في الغموض الأصيل والضحك المُفضي إلى الفكاهة، لن تكون ببساطة في معرفة القدحة الأساسية المُطلِقة للفكاهة. ويفترض بهذه (القدحة) أنّه يمكن بطريقة ما أن «يُستشعر بها» مُبكّراً. لكن القضية الأساسية تكمن في الإستجابة الداخلية في عقل المتلقّي. وتحديداً، في الإستجابة التي (لا) يمكن إستثارتها بالفكاهة أو بالعوامل المحفّزة عليها طالما أن هذا العقل (لا) يحتوي على هذه المُستجيبات أساساً. هنا، نحن بصدد الكشف عن هيكلية معيّنة موجودة في المنظومة العقلية ستعمل الفكاهة على استغلالها لأجل إيصال رسالتها أو تحقيق هدفها.

ومع سير فصول الكتاب، سنسلّط الضوء على «الفكاهة المُحوسبة/ المُضبّطة». والتي قد نسميها؛ «المُشكلة الكاملة من كل النواحي». وفي سرديات نظرية الحوسبة[1]، نجد أن المنظّرين والباحثين قد طوّروا شكلاً

(1) نظرية الحوسبة، أو النظرية الإحتسابية، تتعامل نظرية الحاسوبية في المقام الأول مع مسألة المدى الذي تكون فيه المسألة قابلة للحل على الحاسوب. وعلاقتها هنا في دراسة الفكاهة، هي مدى القدرة على وضع نماذج حسابية لعمل الفكاهة، وتقسيم الاستجابة حسب نوعية المؤثر. وإعطاء كل مؤثر وزناً رياضيًّا، وبذلك يمكن وضع قواعد رياضية أو (مقاربة) رياضية، يجري عبرها التنبؤ بآليات عمل الفكاهة وتأثيرها، طالما أن الإستجابات (على كونها استجابة بشرية) إلا أنها قابلة للحساب. كما إن عملية تلقي الدعابة (وهي تحتوي لغزاً من شكل من الأشكال) ستتضمن عملية معالجة لدى المتلقي، وسيتعامل الدماغ معها على أنها (مسألة) تريد حلا. ثم تنتقل بعد مرحلة المفاجأة بالحل إلى هويّتها الأخيرة كدعابة وتتحقق الفكاهة ـ المترجم.

من أشكال التصنيف. ومنها فرع يدعى: نظرية التعقيد. وهي التي تصنف كل مسائل الحَوسبة ضمن ثلاث مجموعات؛ السّهل، والصّعب، والمُستحيل على الحل.

وهنا يبرزأصعب شكل من أشكال المسائل، هو المسمى (ـ NP complete problems)[1]، وهو الذي يتطلب وقتاً يُصرف في وسائل غير متناهية ومتعددة الحدود. هذا في حالة أن المتصدي للحل تساءل واستعجب من الحل ـ أما من يعرف الحل، فإنه سيكون قادراً على حلّها جميعاً وبنفس المجموعات.

إن الفكاهة، كما سنطرح عبر فصول الكتاب، تعتمد على الفكرة؛ بما في ذلك استدعاء الذاكرة والإستنتاج، فضلاً عن تكامل المعنى (تكامل الفكاهة دَلاليًّا). هنا، سنعمل على تقديم نظرية عامة تحكم العقلية أو الذكاء الذي يمكن أن يحوز حسّ الفكاهة بصورة جوهرية.

ولو افترضنا أننا سنسير عكس هذا المتّجه في بحثنا. عكس هذه المقاربة، سنجد أن الأبحاث في هذا الشأن قد بُنيت على أساس وضع خوارزمية معيّنة للفكاهة، أو أن هناك بناءً نحويًّا ـ لغويًّا تعتمد عليه الطُرفة، أو كلا الحالتين. مثلاً أن تستخدم الأحاجي المتجانسة، أو الكلمات بطريقة التعويض الصوتي المنطقي. أي أن تُعوَّض إحدى الكلمات بأخرى ضمن مقاربة منطقية تشكّل في النهاية لُبَّ الفكاهة. ويجري هذا ضمن

---

(1) هو مستوى من مستويات تعقيد المسائل الرياضية، يقاس على مدى تداخل مجموعات الحل في مساحة الأرقام والحدود الخيالية. ومن أشهر نماذج هذه المسائل هو النموذج المعروف بـ «مسألة البائع المتجوّل». ولا توجد خوارزمية مباشرة يمكنها حل هذا النمط من المسائل، لأنها تبدو سهلة لكنها من النوع الذي يفاقم التشعّب في الحلول الرياضية. صحيح أن لها نهاية، لكنها نهاية تقترب من اللانهاية الرياضية ـ المترجم.

هيكل قواعدي نحوي معيّن للعبارة الفكاهية. ثم يجري خلق دلالة ما، أو تعويض (صوتي ـ منطقي). وعادة ما يكون هذا خارج الإطار المُعجمي، من أجل خلق النكتة واستيلاد الطُرفة.

إن أكبر هفوة وقعت فيها هذه النظريات، هي أنها لن تكون قادرة على تقييم كفاءة الطُرفة التي أنتجتها للتو. مثلما لن تكون قادرة على أن تقول بملء الفم إن ما انتجته هو (فكاهة)، على أساس أن هذه الآليات الموصوفة يمكن ـ بطريقة إعتيادية جداً ـ أن تنتج (اللا طرفة).

وهنا لا نعني (طرفة غير مُضحكة، أو هزيلة التأثير)، إنما نعني أن تنتج عبارة/ جملة/ سردًا نصِّيًا لن يكون مُمكناً تصنيفه كفكاهة أبداً. ولن يكون هناك فهم أو تقييم للطرفة المُنتجة من قبل الآخرين، فضلاً عن عدم القدرة على الشعور بالتسلية بها.

وبدلاً من مسألة «حسّ الفكاهة»، فقد طرحوا نماذج محددة من الخوارزميات التي تعتمد على «بواقي الذكريات» التي يوفّرها العقل والتي تنتج نماذج للفكاهة. هذه البواقي، ولأجل إعمال الفكاهة ستكون مبنيّة على أساس من القواعد اللغوية التقليدية المُرتبطة بتلك البواقي.

أما البحوث الحديثة التي تناولت استدراك العبارات في اللغة، فقد طرحت مسألة مفادها أن التعامل اللغوي ذا الأساس المبني على قواعد اللغة والتلاعب بها، لا يُشبه في عمله الأساس الذي تنطلق منه ميكانيزما إنتاج الطُرفة وإعمال الفكاهة.

هذا ما نتفقُ معه، ونتفق أكثر من ذلك أن نموذج الطُرفة المبني على خوارزمية لغوية، لا يتناسب فعليًّا مع مُتطلبات إنتاج الفكاهة، مثلما لا

يشرح آلية عملها. بل إنه لا يتفق مع وسائل ومسارات الفهم والإستدراك اللغوي المصاحب بعمومه.

إن الأولى بالعناية خلال جهد البحث عن نظرية تفسر عمل الفكاهة، هي أن لا نذهب بعيداً في وضع نموذج مُحوسب (مبني على الإحتمالات والحسابات) لعمل الفكاهة. هذا الطريق لن يؤدي إلّا الى المزيد من التيه والتداخل. والأصح، هو أن نبحث في صفات النظرية المُحوسبة التي يمكن أن تقدم فكاهة متكاملة. أو البحث في أيٍّ من المسائل الجانبية التي سيتعين حلّها من أجل تنظير هذا النموذج على أكملِ وجه، وعلى قواعد العقلانية، وفي الوقت نفسه نستفيد من السِّمات التطوّرية التي تهيمن على الموضوع بأكمله.

إن المستجد الأساس هنا هو التفسير التطوّري الجديد لأصل نشوء الفكاهة؛ نظرية ذات أساس بيئي في تحرّي البواعث والمُحفزات للمكوّنات العاطفية والمشاعر التي يحتويها «المَرَح». نظرية إدراكية ملموسة مبنيّة على النظريات الثاقبة الرؤية التي سبق أن ظهرت، لكن عبر جعلها أكثر تخصيصاً في سماتها. نظرية تقع خارج نطاق المتطلبات المعلوماتية والإجرائية التي تتطلبها الأسس المُحوسبة التي تسند الفكاهة المصطنعة، أو (صناعة فكاهة مقصودة ومُوجّهة).

كما أن بحثنا يتعرّض إلى «عظْمة الطرافة»، وهو مفهوم يُبحث لأوّل مرّة بهذا العُمق، وهو المفهوم الذي يزوّدنا بتفاصيل آلية عمل الفكاهة تأثيريًّا، والذي من غيره لن تكون فكاهة ولن تحوز هويّتها. لكنه مُجرّد جزءٍ من القصّة الكاملة. كما سنطرح الكيفية التي جرى بها استغلال القاعدة الإدراكية لمفهوم الفكاهة من قبل النوع الإنساني، وضمن النظام الإجتماعي بعمومه.

لقد وضع الإدراك الإنساني طواعيةً مُعتقداته ورغباته موضع الإستخدام ضمن مفهوم الفكاهة. وأن يكون الإنسان «طريفاً»، فإن الأمر لا يدور حول مجرّد اكتسابه الطرافة وممارسته الفكاهة. لقد ثبت أن الفكاهة استُخدمت بالفعل كوسيلة في اختيار الشريك، وفي التنافس الجنسي، وفي إظهار الولاء ومنحهِ، وفي بناءِ رأس المال الإجتماعي.

إن ما نطرحه من نظريّة لتفسير الفكاهة، هي نظرية انتقائية بصورة واضحة. ونعترف بذلك بشكل مباشر. تعتمد على ما تمَّ طرحه من نظريات الفكاهة إلى غاية الوقت الحاضر. وتعمل على توحيد الأطر التي تجمع تلك النظريات في الوقت نفسه. مع الأخذ بنظر الاعتبار، الضَّعف الأكبر في النظريات السابقة الذي نشأ عن إهمال الجانب البايولوجي والتطوّري في سير وجود الفكاهة عند الإنسان.

إن الفكاهة مسألة صعبة. ولأجل وضع تصوّر عن هذه الصعوبة، لنتخيّل فقط حجم التنوّع في المواضيع التي يمكن صَوغها لتكون لُبًّا للطرافة؛

- الكاريكاتور، والرسوم الساخرة.
- المواقف الكوميدية.
- الطرف الموسيقية.
- الوجه المطاطي للممثل جيم كاري، أو النظرة الميتة الحزينة التي يؤديها تشارلي شابلن.
- المشاهد الكوميدية الكاريكاتورية.
- الفكاهة السردية، أو المواقف الصُدفية الداعية إلى السخرية والفكاهة.
- كل ما يدعونا إلى الضحك، نتيجة طرافة نستشعرها في موقف أو جملة أو مشهد.

ماذا يمكن أن يجمع كل هذه التفاصيل بشكل عام، إلى جانب كونها مواقف أو أحداثاً طريفة؟.

إن هذا التنوّع المُحيّر والمذهل (وبالتأكيد هناك المزيد مما لم نذكره)، سيُغري أي شخص أن يصبَّ تركيزه على نوع واحد ويُهمل الآخر. فيركز على نوع واحد يناسب الإطار النظري الخاص بنظريته. وأين ما ألقينا نظَرَنا، فإننا سنكتشف فقدان الحدود الواضحة، وكذلك فقد حدّ العتبة بالتأثير (متى يصبح الموضوع مَثاراً للفكاهة، ومتى يفقد القدرة على إثارة الفكاهة).

إن الأخذ بتأثير التطوّر البايولوجي هو الوسيلة الأنسب لإيجاد الروابط بين الأنواع المختلفة من حالات الفكاهة، أو المؤثرات المتنوّعة التي تحفّز الفكاهة. وحتى قبل أن يضع داروين نظريّته المبنية على الإنتخاب الطبيعي، فإن أشكال الحياة كانت ولا تزال تتنوع بصورة مذهلة. فما هو ذلك الشيء الجامع بينهما غير كونهما من الكائنات الحيّة؟.

لقد وضع داروين سجلًا ضخماً مُعدّاً بشكل ممتاز ويخدم التاريخ الطبيعي. قواعد بيانات ومعلومات رائعة تنتظر أن تتحوّل إلى دليل عبر نظرية أساسية مناسبة. وعلى خطى هذا المثال، فإننا سنمشّط هذا الكنز بحثاً ودراسة. كنزٌ ضخمٌ قد نصطلح عليه بـ«التاريخ الطبيعي للفكاهة». مستفيدين من الدراسات المبكّرة والملحوظات الميدانية التي جرت بعينٍ ثاقبة. ونبحث في كيفية صَوغها ضمن هيكل نظري يمكن له أن يفسر الأنماط والتوقّعات فيما يتعلّق بالفكاهة.

ويرى باحثون معاصرون[1] أن الفكاهة هي التمدد الطبيعي للسلوك

(1) هذا ما يطرحه بشكل رئيس البروفيسور لاري فينتس/ W. Larry Ventis، أستاذ الفسلجة في كلية ماري أندوليام، ورئيس الجمعية الدولية لدراسات الفكاهة ـ المؤلفون.

العَبثي. أو إنها تُدرس على هذا الأساس، تمدد عشوائي للسلوك العَبثي، لكن جرى توظيفه في النهاية ليخدم أغراضًا محددة. وبينما كان ينظر للعبث المادي (الفيزيائي) على أنه نشاط يستثمر في تحسين المهارات، وتعظيم فُرص التعامل مع الحالات المختلفة. ولو جرى عدُّ الفكاهة ضمن هذا السياق البحثي، فإنها ستكون «تمريناً»، يستثمر لتحسين عدد كبير من السلوكيات. وبإمكان الفكاهة أن تحتضنَ وترعى التنمية الذاتية لأشكالٍ عدّة من الأفكار.

وقد جرى طرحٌ علميٌ قويٌ يفيد بأن البشر، هم النوع الأحيائي الوحيد الذي بإمكانه أن يضع احتمالات متعددة لمسار حدثٍ ما يحدث في مجال الأفكار. إن الفكاهة هي وسيلة من وسائل إظهار هذه المهارة التي يمتلكها الإنسان. مثلما يمكن أن تكون وسيلة تكيّفٍ قوية تنفع في حذف المسارات الخاطئة لحل مشكلة ما، أو حل مسألةٍ تواجهُ العقل البشري. أي إنها ستعمل على أن تكون ساحة تدريب تبنّاها الوعي من أجل (عدم) الوقوع في خطأ الإختيار حين يُصادف الدماغُ مَسألةً بعينها. أي، إن الفكاهة ستتضمن السخرية والمواقف الضاحكة المضحكة من أجل أن نتوقّى أن نمون نحن أنفسنا مادّة في المستقبل لهكذا ظرف.

وفي سياق طرحِ الفكاهة ـ الطُرفة والنّكتة المرويّة بشكل خاص ـ فإننا نبدأ من وجهة نظر مُعتمدةٍ أصلاً على ما هو متوقّع. ثم نصل إلى الجوهر الصّادم في سياق أحدوثة الطرفة. بعدها يتعيّن تبنّي وجهة نظر أخرى لاستكمال فعل الفكاهة وتأثيرها. الفكاهة في الواقع تدعم المرونة في الأفكار. وهي تتضمن حلًّا لبعض المُمكنات والإحتمالات المتنافسة في ذهن المتلقي، لكنها تتجه إلى تبني الحلِّ الأكثر إرضاءً.

تتضمن الفكاهة إيجاد حلٍ من شكل ما. هذا الحل سيكون مناسباً ـ بالإعتماد على السياق المتبنّى ضمن الطرفة ـ أن يُسهم في إيجاد هذا الحل للغموض الذي زرعه النص السردي ابتداءً في ذهن المُتلقي. ولن ينجح في زرعه ما لم يلامس ويستخدم فعليًا الفضاء العقلي للطُرفة، وما لم يكُن المتلقي على درجةٍ مقبولة من الإدراك لهذا الفضاء العقلي المُنشّط خصيصاً ليرافق الطُرفة.

وبين ردِّ الفعل، الذي نعبّر عنه بـ كلمة «أها!»، وردّ الفعل الآخر المُتمثل بـ «هههههه»، سيكون وقع حل اللغز، الذي لا يمثل بالضرورة شيئاً متفقًا على تشخيصه بأنه طريف. لكنه يتحتم أن يكون نوعاً موازياً من الحالات العقلية الإدراكية.

وإلى حدٍّ ما يمكن النظر إلى الفكاهة على أنها تمرين أو انتقالة إلى استعمال المزيد من العقلانية، وعكس المزيد من الأفكار.

هنا نحن نقدم على التكهّن بأن هناك غرضًا تطوّريًا واحدًا يتعلّق بحسِّ الفكاهة على أقل تقدير. هذا الغرض قد جرى تفعيله في وقفةٍ ما على خط الزمن. وربما كان الهدف هو تأكيد واستعراض القدرة على إظهار الذكاء لأجل إنتقاء الشركاء. كما يمكننا أن نحكم بأن الشخص لديه القدرة الفعلية على التلاعب بالأفكار، فضلاً عن قدرته على التعامل معها من مختلف الوجوه. سيتم هذا عبر اعتماد الفكاهة كـ «ثرموميتر» لهذه العملية.

وليس من باب الصدفة أن نجد في زمننا الحاضر إن صفة عبارة «يمتلكُ حسّ الفكاهة»، هي من بين الصفات المطلوبة بكثرة على مواقع المواعدة الإلكترونية، أو في التقديم على عمل ضمن العلاقات العامة. وليس غريباً

أيضاً أن نقرأ عبارة «..وأمتلكُ حسَّ الفكاهة»، حين نفحص السيرة الذاتية لمن يقدّم نفسه أملاً في الحصول على شريك في المواعدة. إذن، يمكن بسهولة أن نجد الفكاهة وقد أضحت ميزة شائعة في عالم البحث عن شريك، حتى أنها صارت صفة يُعلن عنها.

وعلى مر القرون، كان هناك دائماً من يُمكن أن نطلق عليهم صفة «الكوميدي بالفطرة»، أولئك الذين لديهم القدرة على افتعال الكوميديا من مواقف يصعُب على الآخرين استغلالها بشكل مماثل لخلق مواقف كوميدية، وبالتالي يصعُب عليهم إفتعال فكاهة من المادّة الخام المتوفرة للجميع؛ وهي الموقف أو الحدث هنا.

هؤلاء الفطريون لم تجرِ دراسة «عبقريتهم» إلّا عبر النزر اليسير من الأعمال والسرديات. لكن ليس من باب المفاجأة أيضاً، أن تكون الموهبة في مجال الكوميديا، شأنها في هذا شأن الموهبة في مجال الفنون والموسيقى، قد جرى المعتقد حولها بأنها غير قابلة للقياس والاستكشاف والدراسة. فهي موهبة لا يمكن تفكيك عناصرها، طالما أن «الموهوب بها»، لا يمكن له أن يخسرها أو أن يتخلى عنها.

ونجد أن «السَحَرة»، أصحاب العُروض المبنية على الخفّة والإيهام هم على العكس من هذه الحال، قد خضعوا إلى دراسات وتحليلات كثيرة. إذ أن أصل عروضهم مبنيٌّ على زرع الوهم والخفة في الحركة وجذب الإنتباه أو تشتيته. وهي صفات أو مهارات يمكن دراستها وقياس قوّة جودتها وفعلها على الأشخاص، سواء كانوا متلقين أم قائمين بالفعل نفسه. بل إن الأفضل من بينهم هو من تمكَّن من دراسة تاريخ لعبة الإيهام هذه، واستيعاب تطوّرها وفهم الإضافات التي نزلت بها عبر الزمن.

لكن، ما هو الفرق الأساس بين أداء كوميديا (الستاند آب)، وأداء السَحَرة على خشبة المسرح؟. إن أفضل السَحَرة، سيعمل على تضمين الكوميديا في ما يقدمه لأجل الحصول على المزيد من التأثير. وكلاهما سيعتمدان على ضبط الوقت في الجانب التطبيقي. فمن المهم فعل أو قول الأشياء في التوقيت المناسب. كما أن الأفضل سواءٌ من بين السَحَرة أو مقدّمي الكوميديا، هو من ينجح في قيادة عقول المتلقين إلى مسار معيّن يرغب به ويمهّد له. ويومئ بإشارة هنا، أو يؤدي غواية هناك، ويسيطر على عملية التفكير للجمهور بطريقة مذهلة. ونعرج هنا على ما ذكره ساحر الخفّة جيمس آيان سويس/ Swiss، في مقالة كاشفة له حول ما يسميه الناس بالسِحر إذ يقول؛ «الحقيقة هي، لا مجال للغرور والذاتية في ألعاب السِّحر. إذا كنت ستتصور أن العقل الوحيد العامل هو عقلك، فستنتهي إلى أن العقل الوحيد الذي يمكن لك أن تخدعه هو عقلك. ويمضي العديد من سَحَرة الخِفة حياتهم وهم يفعلون هذا الشيء». ويقتبس مما قاله ساحر الخفّة روبيرتو غيوبي/ Roberto Giobbi، الذي يقول؛ «إن السِحر لا يحدث بين يدي من يقدم العرض ولا على المنصّة التي يقف عليها، بل إنه يحدث حرفيًا في عقل المتفرّج».

إن الفكاهة تعتمد مبدأً مماثلاً في آلية عملها. فهي تعتمد، لحظة انطلاقها إلى حيّز التنشيط، على المعتقدات التي يتبنّاها المتلقي أساساً، وعلى انعكاسات الدلالة اللغوية ـ لو كانت نكتة مروية مثلاً ـ في ذهن المتلقي. وسيكون لزاماً عليه أن يستحضر المعتقدات الخاصة بكل مُفردة من مفردات تكوين الفكاهة من ذاكرته طويلة الأمد ليستحضرها على شكل «عدّة سبّاك» يضعها تحت تصرفه. لكن قد لا يستخدمها جميعها في التفاعل مع الفكاهة. مثلما أنه قد لا ينجح في استخدامها أيضاً.

عندما نفكر في السؤال؛ من أين أتى حسُّ الفكاهة؟، فإننا بحاجة أولاً إلى فهم ماذا نعني بالضبط بمصطلح»حسّ الفكاهة».

إننا عادة ما نستخدم هذا المصطلح كثيراً. لكنه في الحقيقة مفهوم مُبهم إلى حد ما. وله معانٍ متجاورة ومتعددة. وعلى سبيل المثال، حين نقول عن شخص ما إن لديه حسَّ الفكاهة، قد نعني أنه يحسن طرح النكات والطُرف. وهو بارع في دفع الآخرين أن يضحكوا. أو إننا قد نعني شخصاً ما يضحك كثيراً، وهو مَرِحٌ في العموم وينتهز الفرصة ليكون لوذعيًّا ساخراً في تعليقاته.

أو إننا قد نعني شخصاً لا يأخذ الأشياء على محمل الجد، وهو قادر على الضحك والإضحاك حتى في مواقف مُحرجة. أو إننا قد نشير إلى شخص قادر على إيجاد مساحة من الطرافة حتى في المواقف الضاغطة. أو إننا قد نشير إلى نوع محدد من الفكاهة قد يفضلها الشخص المشار إليه، حين نشير إلى شخص ما بأن لديه «حسًّا سخيفًا للفكاهة»، أو أنه يمتلك «جفافاً في حسّ الفكاهة».

يطرح رود مارتن/ Rod A. Martin، مؤلف كتاب «سايكولوجيا الفكاهة؛ مقاربة تكاملية»، إن الحديث عن «حسّ الفكاهة»، ليس مدلولاً لشيء واحد حين يتحدّث به الجميع. وإن مفهوم «حسّ الفكاهة» ينضوي على قدرات متعددة ومتنوعة على علاقة بالفكاهة. ولها بصمات وملامح واستنتاجات مختلفة ومتعددة. والأهم هو أن هذه الأبعاد المختلفة للفكاهة، لا يُشترط الترابط فيما بينها. فهؤلاء الذين يستمتعون بالضحك كثيراً على ما يلقيه الآخرون من طُرفات ونُكات، لا يتمتعون بالضرورة بحسٍّ الفكاهة القادر على إضحاك الآخرين. يمكن لبعض الأشخاص أن يكونوا فطنين في بعض

المواقف، لكنهم قد يسقطون في مواقف أخرى ويفقدون حسّ الفكاهة بصورة كلية حين تتجه الأمور بالاتجاه الخاطئ. يحدث هذا في لحظة غياب غير متوافقة، تفقد المدلولات فيها بوصلتها فتتجه إلى قرار معين لن تخرج منه الأجوبة والحلول المطلوبة لاستكمال الفكاهة.

إذن، حين نستعلم عن أصل نشوء حسّ الفكاهة، حينها سنواجه أجوبة مختلفة، تتحدث عن جوانب مختلفة من الفكاهة. ومثل كل شيء يحمل بصمة إنسانية أو يتعلق بحدود القدرة البشرية، تأتي الفكاهة لتشكل مزاوجة بين الوراثة والبيئة. لكن تناسب هذين المؤثرين يعتمد على طريقة تعريفنا لـ «حسّ الفكاهة». وللمثال، إن كان حسّ الفكاهة يُعرّف بدلالة نوع الفكاهة التي تمتِّع شخصاً ما، فقد أوضحت الأبحاث أنها ستكون معتمدة بصورة رئيسة على البيئة التي طُرحت فيها (بما في ذلك الفضاء العقلي المُستخدم لمفردات إيصال الفكاهة).

الجينات هنا لن تسلط تأثيراً فيما لو كنت تفضل نوعاً بعينه من الكوميديا. وعلى سبيل المثال، تأتي معظم هذه التفضيلات مما تعلّمه الشخص داخل عائلته والبيئة التي نشأ فيها، بالإضافة إلى البيئات اللاحقة التي أثّرت فيه وتأثر بها. وإن عرّفنا حسّ الفكاهة بدلالة الميل الدائم إلى قول الطرائف ودفع الآخرين نحو الضحك، فإن في الأمر تأثيراً جينيًّا قويًّا، إلى جانب تأثيرات البيئة.

كما أن الفوارق بين النواحي المختلفة من حسّ الفكاهة، تتعلق حتماً بالفوارق في السّمات الشخصية، والتي بدورها لها إنعكاس جيني بشكل جزئي. أو أنها مبنية على فوارق جينية إلى حد ما. مثال ذلك اعتمادها على سمة الإنبساط الشخصية، وهي سمة لها ما يقيدها جينيًّا. فالناس الأكثر

إنبساطاً سيكونون أمام احتمالية أكبر بأن يتوافروا على ما نسميه: «روح الاحتفال والفريق»، أكثر من الناس المُنقبضين.

لكن هذا لا يعني أن الأفراد المُنقبضين لا يتمتعون بحسّ الفكاهة. إن بإمكانهم أن يكونوا مالكين لزمام السخرية، وكثيراً ما يستمتعون بالأشياء والأحداث المحيطة إن كان فيها مسحة من الكوميديا أو الفكاهة، إلّا أنهم لم يروا بالضرورة وجود داعٍ لجعل الآخرين يضحكون. ومرّة أخرى نكرر، إنّ هذه هي طرق مختلفة لأجل تعريف حسّ الفكاهة، لكن من هذا الذي يحكم أن هذه الطريقة أفضل من تلك؟.

إن كنّا سننظر إلى حسّ الفكاهة باعتباره القدرة على استيلاد الفكاهة وتعليقاتها، وإلقاء الطُرف والنُكات...إلخ، فإن هذه القدرة نادراً ما ترتبط بالذكاء أو تعتمد عليه. وهي معتمدة بشكل قوي على الأداء الجيني الخلّاق.

وكثيراً ما نجد أن الأشخاص الذين يجيدون صُنع الفكاهة يميلون إلى أن يكونوا خلّاقين في مجالات أخرى في الوقت نفسه.

إنهم الأشخاص القادرون على «التفكير خارج الصندوق». وتسهم السمات الشخصية الأخرى في ذلك أيضاً، مثل سمة التوافقية/ المقبولية، فإنها قطعاً تؤثر في حسّ الفكاهة الذي يحوزه الفرد. وسيكون بمقدورهم الإندماج بسلاسة وطرح النوع الدافئ المناسب من الفكاهة الذي سيجده الآخرون جاذباً. بينما نجد أن أولئك الذين لديهم مقبولية أدنى، قد يكونون بذات المقدرة ظرفاء وفكاهيين، إلّا أن فكاهتهم وطرافتهم نادراً ما تصيب هدفها. أو أن طرافتهم قد تتورط بأن تكون لاذعة وقارصة وساخرة بعض الشيء، بما يجعل الغرض لا يتحقق إلّا جزئيًا. لكن، يبقى أهم الأسئلة التي نقف عندها في بحث الفكاهة هي، ما هو الغرض التطوّري من نشوء الفكاهة؟.

أما بيتر ماكغرو / Peter McGraw، فإنه يطرح فكرة أن الفكاهة قد تطوّرت لأجل خدمة التماسك الإجتماعي في الجماعات البشرية. والجماعة البشرية التي تتداول الفكاهة أكثر من غيرها، تكون فرص بقائها أكبر، لأنها متماسكة أكثر، وبالتالي منظمة بشكل أعلى. إن الإنسان بالأساس هو كائن إجتماعي؛ فقد تطوّرنا ضمن جماعات مصغّرة، ونحتاج إلى الآخرين من أجل البقاء على قيد الحياة. ولهذا فقد حُزْنا على عدد من المميزات التي تطوّرت لتساعد على حفظ الروابط الإجتماعية، والتقليل من الإحتكاك السلبي بين الأفراد. إن الفكاهة عادة ما تأتي مصحوبة بمشاعر إيجابية فريدة، يشار لها بـ «المَرَح». وعادة ما يكون الضحك تعبيراً عن تلك المشاعر للآخرين. وصوت الضحك هو الآخر يساعد على إطلاق فتيل الإرتياح والمشاعر المشابهة لدى المُستمع.

وهنا يكمن السبب في كون الضحك أمراً ممتعاً، وفي الوقت نفسه فإنه يعدي الآخرين. إن كنت تستمع إلى ضحكات الآخرين، فمن الصعب ألّا تضحك أو تشاركهم الضحك بنفسك. فالضحك هو ظاهرة إجتماعية بالدرجة الأساس. حتى أن من الممكن للأفراد أن يضحكوا حينما يكونون لوحدهم. وحين نشارك الآخرين ضحِكاتهم، سيعترينا شعور بالقرب. وتطفو على السطح مشاعر بالانسجام والتقارب اتجاه الأمور الأخرى التي تحدث خارج ملعب الضحك المؤقت هذا.

إذن، سنجد في موضوعة الضحك تاريخاً طويلاً من التطوّر. وحين طوّر البشر اللغة، قاموا بتمديد ظاهرة الفكاهة لتتداخل مع اللغة، ولتتخذ منها عُدّة لأجل المزيد من التأثير. وهو ما ولّد مشاعر المرح عبر الإستجابة للغة، التي بدأت صعبة ومحدودة بطبيعة الحال قبل أن تتطوّر

إلى ما هي عليه الآن. وبتطوّر اللغة، أيضاً تطوّرت الأواصر الإجتماعية للنسَق الإجتماعي.

لكن هناك جانب سلبي للحكاية أيضاً. إننا تطوّرنا ضمن مجاميع صغيرة، وهي مجاميع متنافسة في الوقت نفسه، وكثيراً ما يميل هذا التنافس إلى استخدام العنف اتجاه المجاميع أو الأنساق الأخرى. إذن، فالفكاهة والضحك، لم تقوِّ الأواصر الإجتماعية ضمن النسق الواحد فقط، إنما جرى استعمالها لاستهداف أولئك الذين يقبعون خارج النسق؛ الأعداء خصوصاً.

إننا عادة ما نشارك أصدقاءنا الضحك، ونسخر من أعدائنا. وهنا يكمن السبب في أن مواضيع الضحك، أو محاور الفكاهة قد تستهدف الآخرين (الذين يختلفون عنّا بشكل أو بآخر). وكثيراً ما تستهدف الطُّرَفُ والنكاتُ الجماعاتِ الأقل في تقدّمها، أو التي لها صفة الأقلية، أو الأشخاص من ذوي الإعاقة، أو المثليين..الخ. إذن، الفكاهة يمكن لها أن تكون سلاحاً تعبيريًّا مثلما هي ذات وظيفة اجتماعية محمودة.



(2)

الفكاهة.. عن ماذا؟.

سؤال: كيف نشخّص جنس الكروموسوم؟.

جواب: نطلب من الجين أن ينزل سرواله!.

استهدفت معظم الأبحاث المعاصرة عن الفكاهة التحرّي عن الأسباب التي تجعل الأشياء طريفة (أو كيف أن تحفيزاً بعينه يجعلنا نضحك). إن هذا السلوك في البحث، رغم أنه يتضمن منهجاً معمقاً ومثيراً للاهتمام، إلّا أنه غير مكتمل. إذ إنه يركز على استكشاف الآلية التي من المحتمل أن يستخدمها الشخص للتمييز بين الفكاهة واللافكاهة، دون أن يهتم بتحري الغرض المُطلق والنهائي منها.

إننا لو عرفنا الغرض الذي اختيرت من أجله آليّة فكاهية معيّنة، فإننا سنكتشف بسهولة أكثر كيف تعمل بالأصل. بينما تخدعنا معرفة الطريقة أو العملية التي تتفاعل عبرها وسيلة التمييز، فتجعلنا نظن بأننا نعرف المقصود النهائي منها.

وفي هذا السياق، نجد أن آرثر كويسلر/ Koestler، قد وصف هذه الحيرة بشأن أغراض الفكاهة بوضوح عبر قوله:

«ما الهدف الذي يخدم بقاء الإنسان من وجود خمس عشرة عضلة في الوجه؟، تشترك في الاستجابة للفكاهة، إنفعالية، لا إرادية العمل، تتصل بالأنف، ولا يمكن إيقاف تقلّصاتها؟. إن الضحك هو إنعكاس ورجعٌ للصدى، لكنّ ما هو فريد في الأمر أنها تبدو كأنها لا تخدم أي غرض بايولوجي في الظاهر. الأمر الذي يتيح لنا أن نصفه بأنه (إنعكاس يخدم الترف!). إنها مجرّد وظيفة نفعية، على قدر ما يمكننا أن نقيّم وجودها. إن الفكاهة يمكن أن تقدم وجبة راحة ومهرباً من الضغط النفعي. وعلى مستوى التطوّر، حين ظهر الضحك كأداة للكائن الحي، فإن موجةً من عناصر العَبث تكون قد أخذت مكانها في الكون العَبوس الذي لا فكاهة فيه. الكون المحكوم بقوانين الثيرموداينمك، وقوانين البقاء للأصلح».

لو أمعنت النظر إلى الآلة القديمة التي تسمى (آلة تقشير التفاح عبر الدوران المحوري)، ولو افترضنا أنك لا تعرف بالأصل ما الغرض من صناعتها، فإنها ستستغرق منك وقتاً لتفهم كيف يمكن لكل هذه الأجزاء أن تقشّر وتدوّر التفاحة، ثم تحوّلها إلى شرائح. لكن عندما تعرف كيفية عملها، فإنك ستفهم تناغم الأجزاء، وتأثيرها في التفاحة بصرف النظر عن مستوى الغموض السابق الذي كانت تشكله بالنسبة لك. إن حسَّ الفكاهة، يشبه إلى حد بعيد آلة تقشير التفاح دون أن تكون فيها تفاحة. إنها سمة معقدة، يبدو أن جنسنا البشري ينفرد بها. مضافاً إليها بعض اللمسات والوجوه الغريبة المُحرجة التي تجعلها وكأنها مصممة لأغراضٍ لا يمكن لنا استنتاجها بالأصل. أي إننا لا نعرف لماذا تكون هناك فكاهة!.

في بعض الأحيان، تأتي سِمة الفكاهة لتمثل حلًّا لمشكلة لم تعد موجودة بالأصل. بل إن الفكاهة قد تؤدي دور الطريق الصعب لاستنتاج

الأغراض من ظهورها، بعد أن يستنفد الغرض نفسه أسباب وجوده. أو ربما نكتشف أن التطوّر لم يُصمِم تلك الخاصّية أو السمة على الإطلاق. أو ربما أنها كانت سمة ظهرت عرضاً، أو كناتج عرضي، لسِمة أخرى (سبق أن) نجحت في تحسين قدرتنا على التكيف، واستفاد منها الأسلاف الذين كانوا حاملين لها.

(على سبيل المثال، كان الشَعر يغطّي أجسادَ أسلافنا الهوميند، ورغم أنه كان فعّالاً بالنسبة لهم، لكنّ الأوز يرتجف في البرد القارس، وفي الإنسان الذي تقريباً صار جسمه بلا شعر، فقد تركه مع طبقة بسيطة منه تحاول أن تحتجز الهواء لتكوين طبقة عازلة وهي تقنية لا تنفع كثيراً الإنسان الحالي).

ونجد على سبيل المثال، الإستحسان الذي يُبديه الإنسان اتجاه الموسيقى ـ والرغبة المتلازمة معها لتأليف الموسيقى وتكرارها بالدندنة مثلاً ـ تبدو مثالاً معقولاً (لكنه مُختلفٌ بشأنه) حين نتحدث عن مثل هذه النواتج العرضية. ربما ما ينطبق على الموسيقى والرغبة بها، ينطبقُ أيضاً على الفكاهة.

هنا تعنّ لنا إحتمالية جديدة لنسأل عنها: إن كانت بعض أوجه حسّ الفكاهة قد خضعت للتصميم والتعديل المتعمّد (عبر التطوّر)، فإنها تكون قد أعدّت وتطورّت لأجل غيرنا وليس لنا. لسنا نحن الجيل الذي جرى التكيّف من أجله. وبالتأكيد، فإن وجود لغة مُعبرة وسهلة وغنية قد مكّنت من نقل هذه المعرفة من جيل إلى آخر، وبالتالي نقلت في طريقها المعلومات القيّمة. لنفترض أنها انتقلت على (طريق سريع) مثلاً. سنجد أن هذا الطريق يمكن استخدامه من قبل حالات أخرى أيضاً. كانتقال

الإنحرافات ضعيفة التأقلم، أو قليلة التكيّف التي تنتقل عبر الأباعد (غير الأقارب)، أو الأغيار. أو مثل انتقال الفايروسات الإنتهازية التي تنتهز أي حُطام بايولوجي لتسافر عبر الأجيال على ظهره. حدث هذا بطريقةٍ مثل ما تكيّفت الفايروسات المُسببة لنزلات البَرد أن تنتهز رذاذ العُطاس لتنتشر عبره. بل إنها كانت عملية انتشار (مُسلّية) عِبر مُضيّف يجري استغلاله. وجهة النظر هذه التي توافق عين المِخيال، تكشف لنا أن التكيّفات التي طرأت على وسائل تواصلنا، قد وفّرت لنا المزيد من الخصائص. ومع هذه الخصائص الجديدة، سنجد أن نشئًا جديداً من البدائل الإجتماعية والثقافية صار مُتاحاً وتحت تصرّف الإدراك.

إن الخصائص التي تمنحُها روح الفكاهة لنا، تبدو وكأنها تحفيزٌ بعينه اتجاه تلك النزعات التي قد لا تكون بالضرورة جالبة للمتعة معها. وبدلاً من ذلك، تبدو الخصائص الحاملة لحسّ الفكاهة وكأنها تمنحنا هبةَ أن نتذوق المُتعة بدلاً من تلك الخصائص التي مرّ بها أسلافنا والتي كانت خالية منها.

(سبق أن طُرح بشكل واسع ـ دون إثبات ـ أن الأمراض الزهرية التي تنتقل عبر الاتصال الجنسي، كانت بالأصل نوعاً من التكيّف لزيادة المُتعة الجنسية، أو إشعال الرغبة. ولهذا، فهي تدفع قدماً بالاختلاط الجنسي الواسع، لتزدهر انتقالاتها عند مضيّف جديد. ومثل ذلك، نجد أن المتعة التي نعيشها مع حس الفكاهة، قد تكون إشارة ـ بدرجة أقل ـ على أنها نافعة بالنسبة لنا. إشارة لنا نحن الذين سنستمتع بإطلاق الفكاهة أو تلقيها، أكثر من كونها علامة انتفاع لبدلائنا أسلافنا الذين أطلقوها. والذين سبق أن استغلوا التغييرات التي طرأت على النوع البشري لأجل احتياجات لم نعد نحتاجها بالأصل).

بعبارة أخرى، لو كان هناك وظيفة أو غرض ظهرت الفكاهة من أجله بين أسلافنا، فهل إن هذا الغرض ما زال موجوداً؟، وهل إن الفكاهة المعاصرة تخدم ذات الغرض الذي تطوّرت لأجله حواشي الفكاهة، سواء في فسلجة الإنسان أو مدركاته الثقافية، فهل بات نفس الغرض يُخدم الآن عبر الفكاهة المعاصرة؟.

من ناحية أخرى، سواء كان حسُّ الفكاهة قد نشأ لأسبابٍ طبيعية أو طفيلية ثقافية مترممة، فإنها تبدو وكأنها قد أعدّت بشكل مناسب لتخدم الأسباب المساعدة على البقاء الأصلح للفايروسات. مثال ذلك، إن المضيّف (الإنسان الحامل للفايروسات)، والذي يمتلك حسًّا عالياً في الفكاهة وإطلاق الدعابة، فإنه سيكون أكثر شعبية ضمن نسقه الإجتماعي. وبالتالي أكثر إختلاطاً وقبولاً وتقارباً مع الآخرين. وستكون احتمالية تأثيره بالآخرين أكبر. فضلاً عن استثماره الأمثل لرأس المال الإجتماعي الذي سيخدم أغراض البقاء للأصلح. وإلى جانب هذا كلّه، فإنه بايولوجيًّا سيكون أكثر عُرضة لنقل العدوى الفايروسية أو لاستقبالها. الفكاهة هنا كانت سبباً في تسهيل الانتقال الفايروسي.

مثال آخر على مسألة التوظيف خدمةً لعملية البقاء للأصلح نجدهُ في فرضيات الإنتقائية الجنسية؛ فالإناث على سبيل المثال يستخدمنَ حسَّ الدعابة والفكاهة لدى الرجال، ويقبلنها على أنها «دعاية»، غير قابلة للتشكيك عن الذكاء والقوّة التي يمتلكها الرجل.

وذهبت بعض النظريات إلى طرح رأي مفاده؛ أن حسّ الفكاهة قد تطوّر لأجل أن تتمكن الجماعات والأفراد من تقوية أواصر الترابط، ولأجل إزاحة الشّد العصبي، أو ببساطة لأجل أن تحفظنا أصحاء. فكلّما

ضحِكنا أكثر، كان ذلك أفضل لصحتنا. لكن مثل هذه النظريات تفترض أننا يجب أن نضحك في مقابل أي نكتة تقال، مهما كانت بليدة. وهي تفترض كذلك أننا سنضحك إزاءها بصرفِ النظر عن عدد المرّات التي سمعناها فيها، مع أننا لن نضحك بالفعل مع التكرار. إن امتلاك «حسٍ للفكاهة»، يعني أن يكون لدينا حسٌّ (جيّدٌ) للفكاهة، وفهمٌ راقٍ لروح الدعابة، وأن نكون قادرين على التمييز. وأن لا تكون ضحكاتنا مثل صرخات الضّباع، تكون نفسها ولا تختلف في كل المواقف. مثل هذا التمييز سيكون ضروريًّا لكي نعرف فيما لو كان حسّ الفكاهة قد تطوّر لدينا خدمة لأغراض الإختيار الجنسي، وكذلك لتقييم قدرة الآخرين على طرح النكتة أو الطرائِف وروايتها.

وبما أن من الصعب أن يجري تزييف الفكاهة، سواء في جانب استيلادها، أو استحسانها، فإنها ستكون ذات قيمة عالية، إذ ستعمل مثل ورق عباد الشمس الكاشف في الكيمياء، والذي يميز بين الحامضية والقاعدية. مثلما أنها ستخدمُ عملية التقييم الذاتي لبصمات الآخر الشخصية، وفحص مستوى ذكائه، وولاءاته المخفية، بالإضافة إلى كشفها للمواقف الإجتماعية الحاسمة والمُعتقدات. من الممكن أن نرى شاباً صغير السّن، لا يستطيع أن يُخفي ابتسامته أو علائم الضحك حينما تردُ أمامه فكاهة فيها بعض البذاءة، عندها لا يستطيع أن يخفي عدم نضجه، أو أنها ستكون خصلة بائنة من تحت أكمامه.

أو أن نلتقي ببعض الناس الذين لا يمكنهم أن يتفادوا الضحك من بعض العبارات الساخرة، حتى تلك التي تسخرُ من معتقداتهم أو إنتماءاتهم السياسية.

لقد جرت العادة على أن تُفحص هذه الملحوظات، أو العلائم ومعها

بعض الاستخدامات العملية للفكاهة، بدون النظر الكامل إلى الأفراد الذين يتبنونها ومقاصدهم، سواء التي يشعرون بها أم التي لا يشعرون.

بهذا نكون قد وضعنا أسساً لتشخيص الميكانيزما الجوهرية التي تظهر منها الفكاهة بشكل غير مباشر. إنها جزء من مواهبنا الجينية. فهي سمة خضعت للتصميم، ومهيأة لحل المشاكل والمسائل الاحتسابية التي يواجهها دماغنا، والتي لم يكن قد عرفها من قبل. الآن فقط هو يواجه معضلة هذه الفكاهة، والفكاهة هي من ستساعد دماغنا أن يحل مُعضلتها. بعبارة مختصرة، إننا كبشر، نتوفر على أدمغة (شيفروليه)، لكنها تعمل ببرامجيات (مازيراتي)[1].

وهذه الصفة الالتفافية في قوانا الدماغية، قادت في النهاية إلى تطوير فجوة تستوقفنا دائماً. نوع من المراجعة والتساؤل الذاتي. هذه الفجوة بمثابة قابلية ذاتية على حذف الأخطاء وتصحيحها. وهي تسخّر نظام المكافأة العاطفي الموجود مسبقاً، وتضعه ضمن استخدام جديد مطوّر.

وهنا، سنضع نظريتنا باستخدام مصطلحات سيجري تفسيرها ضمن السياق اللاحق؛

«إن أدمغتنا منشغلة طوال الوقت، بمحاولة في إجراء بحث إستقصائي فوري، وحمّالٍ لمخاطر فقدان الاتجاه. وخلال هذا النشاط، فإن أدمغتنا تستولد افتراضات مسبقة بشأن ما ستخوضه من تجربة. إنها تواصل الإفتراض بشأن ما ستجرّب مواجهته في المجال القادم أمامها لحظة

(1) هذا التشبيه المجازي سيتكرر خلال فصول الكتاب، والمقصود منه أن عقولنا عملية مثل سيارة شيفروليه، لكن برامجياتها (الأفكار) معقدة وباهظة الثمن ومتداخلة التجربة ونخبوية مثل سيارة مازيراتي التي هي ليست فارهة، لكنها غالية الثمن ومعقدة التفاصيل ـ المترجم.

بلحظة. إن هذه العملية التي تتعرض إلى ضغط الوقت، والتي تستولد الإفتراضات بلا إشراف، تمتلك معايير متساهلة، وتقدم المحتوى لحظة بلحظة ـ لا يمكن التأكد من صوابه كلّه ـ لصالح فضائنا العقلي.

ولو تُركت هذه العملية تجري بلا فحص، فإن الأخطاء الحتمية التي ستحدث في دهاليز الوعي ستستمر، وستعمل على تلويث خزيننا المعرفي عن العالم المحيط. ولهذا، يتحتمُ وجود سياسةٍ تعيدُ فحصَ هذه المعتقدات والتخمينات، وكذلك الاكتشافات والقرارات التي تُبنى عليها. لكن على أن تجري هذه العملية بسرعةٍ فائقة، يحافظ على هذه السرعة نظامٌ كفؤٌ للمجازاة والمكافأة؛ وهو الشعور بالفكاهة. هو المرح الذي يتحتم أن يدعم هذه النشاطات، في حالة من المنافسة مع كل الأشياء الأخرى التي قد يشعر بها الإنسان».

الفكاهة التي تلامس الهدف، وعلامتها الضحك ستكون هي المجازاة والمكافأة لقاء (نجاح) نظامنا المعرفي في تخمين هدفها، وكشف المفارقة والخطأ الذي تُبنى عليه الفكاهة. فتكون المعادلة كالآتي؛ اختبر معلوماتك وستجازى بأن نُشعرك بالضحك الحقيقي.

ولغرض تأسيس رؤية وظائفية لعمل الفكاهة، حاول العديد من الدارسين فَهم وظائفية الفكاهة. وانطلقوا من وجهة نظر تأخذ النمو والتطوّر في الحسبان. أو من وجهة نظر ترقب التأثير نظريًا. لكن بعضهم ركّز على تضمين التأثير بالإحساس بالعار. وطرح لوتا لينغ/ Linge (2006)، وجهة النظر هذه. إن المنهجية التي قارب بها لينغ فرضياته تعتمد على مسار دراسة الحالة. وتضمنت جمعَ قواعدِ بياناتٍ مهمةٍ وتفصيليةٍ لتطبيقها على التوصيف الوظائفي للفكاهة.

ومن بين أهم ما طرحهُ هو وجود ما سمَّاه بـ «أداة فتح الباب»، التي تقود إلى التفاعل مع الفكاهة وتحصيل نواتجها. كانت النتائج تربط بعلاقة جبرية بين الوعي بجوهر الفكاهة، وبين دالة التأثير (وهي عامل المناسبة في التوقيت وملاءمة الفضاء العقلي). كما تربط كل هذا بالأهمية والشعور بها (وهوعامل وضوح الفكرة عند مستوى الإشارة التي يتلقاها المتلقي). وهذان المتغيّران يرتبطان طرديًّا مع عُمر الشخص موضوع الفحص.

إن التعبير المجازي لـ «أداة فتح الباب»، جرى تأكيده للتعبيرعن وظائفية الفكاهة المرتبطة بكل أنواع التأثير، فكأنما البحث يدور حول (الأداة) التي ستفتح باب عملية إنطلاق تأثير الفكاهة. هذه الأداة لو جرى تشخيصها، وبالتالي معرفة آلية عملها، ستكون أغراض الفكاهة قد انبسطت على منصّة الفحص. بينما يشير التعبير المجازي «الوسيط»، إلى التأثير الموازن في الفكاهة بين الآثار التي تُشعر بالخزي أو العار، وبين الآثار الإيجابية لها. وهناك أيضاً معايير لقياس مقدار سعة المشاركة بالتأثيرات الداخلية مع الآخرين. هل نستطيع أن ننقل للآخرين إحساسنا بالمرارة من موقفٍ جاء ضمن غطاء فكاهي، مثلاً؟.

في الوقت الراهن، أصبح تأثير الوصم بالعار، أو الإشارة السلبية التي تحطّ من قدر الفرد وصفاً، أصبحت أوضح في تأثيرها سواء في الأطفال أو في البالغين. ومع اللمحة النمطية (ردّ الفعل)، بإشاحة الوجه أو إنتكاسة الرأس، وجحوظ العين، صار واضحاً أن التواصل سيتعرّض إلى قطعٍ ما خلال استيعاب الفكاهة أو على إثر الوصم بالعار. والعبارات اليومية المتضمنة هذا المعنى ستتجه الى الوصم بأشياء تؤثر في الإحراج ويكون نتيجة لها.

لقد أشارت عدّة دراساتٍ معاصرة إلى الربط بين التأثير بالوصم بصفات العار، والتأثير بالفكاهة؛ نيلسون/ Nilsson(2005)، ودي سانت أوبين/ Aubin (2004). أكدا ما سبق أن ذهب إليه تومكن/ Tomkin في نظريته التأثيرية[1].

ويبدو أن الفرد يلجأ بالعادة إلى ستراتيجية متعددة الأوجه للدفاع عن تقديراته الشخصية أو عن تصوراته الشخصية، فضلاً عن صورته الذاتية في نظر الآخرين. إن الضحك والفكاهة، وفقاً لـ لينغ، يشتركان في النشاط الإنساني الذي يُجنّد المتعة التي سيكون تأثيرها على شكل (ابتسامة). لكنها في الوقت نفسه وسائل ناجعة لتقليل شدّة الأثر السلبي، وبشكل خاص الشعور بالعار أو المشاعر المخجلة للذات في محافل الآخرين. وقد أشار أكثر من باحث إلى أن الفكاهة تستخدم فعليًا من قبل البشر كستراتيجية للخلاص المؤقت من عذاب العار اللصيق ضمن موقفٍ ما.

لكننا لو كنا ننظر إلى الفكاهة على أنها صفة تكيفية، أو ظاهرة تم تبنيها عبر التطوّر والتكيّف، مصحوبة بتأثيرها في الصحة الفسلجية للفرد وجودة ما تمنحه له من سايكولوجيا مُرضية، فسيتعّين علينا أن نبحث تالياً في تأثيراتها الإيجابية في النمو والتقدّم الذي تؤمّنه أو تساعد على توفيره لحال الفرد والجماعات.

---

(1) نظرية الأثر التي وضعها سيلفان تومكن Tomkin/ ، (عالم فلسفة أميركي 1911 ـ 1991)، تشتمل على دراسة الأثر الذي تتركه الأحداث والأفعال في الذات. وطرح تومكن أن هذه الآثار يمكن تصنيفها ضمن تسعة أنواعٍ من المشاعر والأحاسيس الإنعكاسية، بناء على قراءات بايولوجية. ولقد صنّفها وفقاً لشدّتها بين مشاعر عالية الشدّة، وأخرى واطئة الشدّة. وكذلك وفقاً لطريقة التعبير عنها فسلجيًا ـ المترجم.

لقد طرح لينغ، وقبله ناثانسون/ Nathanson، أن الطفل إذا تمكن من التعامل بنجاح مع حالة الوصم بالعار والشعور بالإحراج، فإنه ستكون لديه انعكاسات سلوكية سريعة سيبديها بشكل مشاعر افتخار والقدرة على التنافس ضمن آلية تتضمن المبالغة في تقدير القدرات الشخصية لنفسه.

إن الأثر الذي تتركه الفكاهة، وهذا عُرف ضمن دراستها وظائفيًّا، يمكن أن ينظر له من زاوية القوى التي قادت وقع فعله وتأثيره. هنا ستكون منصّة البحث داخل النفس البشرية نفسها. وفي نفس الوقت فإنها تتحرى في وجهة النظر الذاتية للفرد الشاعر بالوصمة، الذي نفترض أنه سيبذلُ جهدهُ للتخلص من آثارها. التأثير هنا سيفهم الفرد على أنه شيء تطوّر وتفاقم وأدى إلى إحداث «أذى» للعلاقات مع الآخرين. شخّص تومكن الأثر على أنه «مزدوج المتجهات». فمن جهة، سيكون له سمة بايولوجية. ومن جهة أخرى، ستكون هناك ملامح شمولية أوسع يتركها كبصمةٍ واضحةٍ محسوسة من قبل المجموع الأكبر.

لكنّه عرّف مفهوم «المشاعر»، ضمن هذه العملية باعتبارها مؤثراً ثانويًّا سيتفاقم لاحقاً، وسيكون أكثر تعقيداً، ومصطبغاً بالتجربة الشخصية وذكريات الشخص نفسه. أما مفهوم «الإحساس»، فإنه مقابل للوعي والتجربة الشخصية. سيتأثر بها وستكون محدداته نابعة من هاتين الميزتين. ومثل أي بحث، ستكون هناك مستحدثات يمكن إضافتها لاحقا، نجد أن هذه البحوث قد أغفلت تأثير «المزاج»، في الفكاهة. تأثيره في تقبّلها والقدرة على إطلاقها، وبالتالي لن يكون متاحاً استخدامُ الفكاهة كأداة في كل الأوقات. لأن «المزاج»، ومعه الأساس الكيميائي الحياتي المتعلّق به لن يكون متاحاً دائماً.

إن التأثيرات هي في الحقيقة ظواهر سايكولوجية وبايولوجية لها إنعكاساتها. وتشتمل على ما يحدث ضمن الوعي به، أو ضمن اللاوعي. مثلما تشتمل على الأفكار والأفعال. وفي بعض الأحيان، وجد أن التأثير لا يتأتى من الفكاهة نفسها. أي إن الوقع التأثيري الإيجابي أو السلبي، لم يحدث تأثيراً بسبب من نص الفكاهة أو طبيعة الطُرفة التي ألقيت أو النكتة التي حدثت. إنما من طبيعة الباعث المحرّك الذي هيأ إطلاق الفكاهة ابتداءً، إن السبب الذي أشعل فتيلها هو من سيلقي التأثير. وقد يتبين لاحقاً أنه باعث ابتغى بالأصل توجيه الإنتباه باتجاه معيّن. إن الشعور بالوصمة والعار هنا لدى الفرد، سيأتي من «وعيهِ» بالسبب الذي حرّك حسّ الفكاهة وأدى إلى إطلاق طُرفة أثّرت بالنهاية في المتلقي.

إن معرفتنا تخضع لنوع من الإحصاءآت التي تحدد مدى جودتها. وحين نواجه شيئا تُملي علينا معرفتنا بأنّه غير مُحتمل الحدوث، فإننا في العادة لا نلجأ الى استرجاع المعلومات الاحصائية، إنما سنعلم ببساطة بأنه غير محتمل الحدوث. أوبدلاً من كلمة (نعلم)، يمكن أن نقول؛ سنشعر، أو سنخمّن. لقد جهّزت الإحصاءآت حساباتها وهيّأتها لنا مُسبقاً. واستخلصت من تجربتنا في الحياة ما يجعل معرفتنا قادرة على عكس مستوى احتمالية الحدث. وحين تتناقض هذه الإحتمالية فإننا سنشعر بالمفاجأة.

لكن علينا أن نكون حذرين دقيقين، فليست عملية المفاجأة هنا هي من صنعت الفكاهة. ولنتذكر إن الفكاهة يجب أن تحدث ضمن هيكل معتقداتنا النشطة العامل بديناميكية. إننا لا نلجأ الى تنشيط قدرتنا على «عدم» رؤية مهرّج قزم سمين وآخر طويل ونحيف سويةّ ويسيران معاً. ولا نفعلها سويّة مع آخرين في نفس الوقت. إننا فقط سنراهم سويّة فجأة.

واحدة من الاحتمالات هي أننا حين نرى شيئاً غير محتمل الحدوث بقدر كبير. أو شيئاً سيثير متحسساتنا تجاه التحديث. فإننا سنحدّث أنفسنا، بناء على الخيرة المتراكمة ونقول: «انتظر، إن هذا الشيء غير موجود». وبالتالي سيكون وجوده هو المفاجأة.



(3)

فينومينولوجيا الفكاهة

(إن الذي يضحك متأخراً...هذا هو الذي يفكر بشكل أبطأ).

إن الظاهراتية، تتبنى تعريفاً يتضمن أنها دليل مُسبّب للظاهرات والأنماط المتعلقة بمعالم السلوك. وفق هذا، وضع الفيزيائي الإنكليزي وليام غيلبرت/ William Gilbert (1544 - 1603)، نظرية ظاهراتية للمغناطيس. ماذا يمكن للمغناطيس أن يعمل؟، وأين يمكن إيجاده؟، وكيف يتأثر؟. كان ذلك قبل عدّة قرون من ظهور نظرية متكاملة يمكن لها أن تشرح المغناطيس ودقائقه وجوهره.

وعبر التاريخ، حاول الكثيرون وضع نظريةٍ تؤطر عمل الفكاهة. لكنهم لم يواجهوا نجاحاً في مساعيهم. ومع ذلك، فقد تركوا لنا الكثير مما ينفع أن يكون بداية لـ وضع «ظاهراتية الفكاهة». كان ذلك على شكل مجموعة من التوصيفات للظاهرة.

وسواء كانت هذه التوصيفات موضوعية أم لا؛ فإنها تخدم كثيراً أي باحث يعمل على وضع نظرية تحيط بالفكاهة، ولن يكون في غنى عن

أعمالهم في هذا المسار. ولهذا، سنعتمد بكثافة على ما سبق أن جرى بحثه في مجال الفكاهة. لكن لم يتمكن أي من هؤلاء المُنظرين أو الكتّاب من وضع نظرية شاملة تتضمن كل عناصر الفكاهة ومميزاتها ومعالمها.

إن هذه المهمة ستكون من بين أبرز متبنياتنا عبر هذا الكتاب. كما سنجلب الإنتباه لبعض المُميزات التي لم ينتبه لها المنظّرون الأوائل، أو إنهم قللوا من أهميتها. هذه الخواص أو المميزات تقع في حواشي الفكاهة كظاهرة، أو حتى خارجاً عن دائرة فعلها. لكننا نعتقد جازمين بأهميتها في تكوين لُبّ الظاهرة ومحورها الأساس.

3ـ1. الفكاهة باعتبارها خاصية من خواص المواضيع أو الأحداث.

كنت أرقب قُرص الفريسبي[1]، وهو يكبر..ويكبر...بل صار كبيراً... وفجأة!....لطمني على وجهي.

والآن، لو قيلت النكتة أو الدعابة في غابة، وبالتالي لم يضحك أحد لها، فهل نواصل اعتبارها نكتة أو دعابة؟. هذا ما يطرحه ستيفن رايت/ Wright.

بالتأكيد إننا حين نتعرض إلى ظاهرة محيّرة تتطلب الفصل وتحديد المعايير، أي الناس لديهم نظرية مقنعة أو محببة للقبول أكثر من غيرهم،

(1) (قرص الفريسبي، هو قرص من اللدائن يرمى باليد ويلتقطه اللاعب الآخر، ويرميه.. وهكذا.....الدعابة هنا، فحواها أن قرص الفريسبي لا يكبر إلا إذا كان متجهاً بالفعل نحو وجهك!، فكان الأولى بالأحمق الذي ظن أن القرص يكبر حجمه أن يفهم أنه على وشك الإصطدام بوجهه) ـ المترجم.

فإننا بطبيعة الحال علينا أن نقول شيئاً في البداية حول كيفية تعريف الدعابة أو الفكاهة. كيف ننوي تعريفها وبالتالي افتراض التعامل معها كظاهرة. وعلينا أيضاً من جانب آخر، أن نشيح بعيداً بالمفاهيم الشائعة التي تدور حول الدعابة فتحاول أن تفسرها بغير ما فيها.

إن معجم أوكسفورد الحديث يتعرّض لمفهوم الدعابة والفكاهة من خلال بعض الجوانب الشائعة، إذ يصفها بالتالي:

- «إنها مستوى نوعي من أنواع الأداء، أو الخطاب، أو الكتابة، التي تكتسب قدرة على التسلية والتطريب واللهو. وأن تتميز بالاختصاص الغرائبي، وخاصّية الهزل، وأن تكتسب الطرافة والكوميديانية والمُتعة».

وفي وصف آخر؛

- «إنها الموهبة والقدرة على إدراك ما هو مثيرٌ للسخرية واللهو والمتعة. أو تضمين هذه المواصفات في خطاب ما، أو ضمن نصّ مكتوب، أو أي شكل آخر من أشكال التعبير المشكّل».

أما معجم التراث الأميركي/ American Heritage Dictionary فيقول؛

- «هي الصفة والنوعية التي تجعل الأشياء مضحكة، وممتعة وفكاهية».

نلاحظ أن هناك تقارباً شديداً ما بين المفاهيم الدلالية لكل من: (مُمتع)، و (طريف)، و (مُسلٍ). ثم الإنتقال إلى معنى دلالي آخر وهو: أن يكون مُسبباً للضحك.

وعندما تبحث عن أصول المعنى لكلمة (الضحك)، ستجد أنها تعني ذلك الفعل التعبيري الذي يقابل الأحداث والمواضيع حينما تكون (طريفة)، و (مُمتعة)، و (فكاهية).

من كل هذا، ومن كل حياتنا اليومية التفصيلية المتعاملة مع الدّعابة ـ إبتداء من النكتة ووصولاً الى الفكاهة الحقيقية، سنصل إلى مثابتين حقيقيتين هما؛

إن الدعابة/ النكتة تسبب الضحك، وتقود إليه.

وإن الدعابة/ النكتة هي تلك الصفة النوعية في المواضيع والأحداث التي تقودنا إلى الضحك.

لكن، كلا العبارتين تحتاجان بالفعل إلى تضبيط معنوي ودلالي، بل إلى تصحيح مفاهيمي. فالعبارة الأولى عليها أن تواجه الطرح التالي: صحيح أن الضحك يفترض أن يتلو الدعابة، إلّا أن الضحك لا يُستولد من الدعابة فقط. بل ربما القليل فقط من الضحك ستكون الدعابة هي من تقف خلفه لأجل هدف فكاهي. وسنأخذ هذه المسألة بعين الإعتبار خلال ما يأتي من نقاشات.

إن الضحك تقف خلفه مجموعة متنوعة من المُسببات. وعندما نمعنُ النظرَ في كيفية (ولماذا) نمارس الضحك، سنجد أن الفكرة القائلة بأن الدعابة/ النكتة: (المُفضية إلى الفكاهة)، ناتجة عن أحداث ومواضيع ملموسة، ستبدأ هذه الفكرة بالتراجع والتلاشي. وسنجد من بين المحاولات المبكرة لعزل الدعابة والفكاهة عن كونها نوعية مختصة بالأحداث والمواضيع، قد حدثت بالفعل في كتابات تشارلز بويل/ Boyle في القرن السابع عشر. والتنظير الأكثر شهرة هو ذلك الذي وضعه جون لوك/ John Locke(1632 ـ 1704).

حيث جرى في هذه السرديات التمييز بين الصفات الأولية الواضحة

المسببة للفكاهة مثل؛ الحجم والشكل والتماسك. ثم الإنتقال إلى الصفات النوعية الثانوية مثل؛ اللون والطعم والرائحة[1]. وهي صفات قد يعدّها البعض بأنها إساءة إذا ما استخدمت في التمييز التجريبي لخواص الفكاهة. إذ لا يصح التعامل معها كمعيار ذي خواص عضوية من أنواع محددة.

إن الصفات النوعية المسؤولة عن خاصية الفكاهة والدعابة يجب أن تكون مؤصلة وجوهرية. ويجب أن لا تمتَّ بصلةٍ إلى صفات المشاهِد أو المراقب المتلقي نفسه. بينما يمكن للصفات الثانوية أن تدين بعائديتها إلى المشاهِد أو المراقب، الذي سيقع تأثير الفكاهة عليه هو.

هذه الخواص الثانوية، خواص إثارة الفكاهة (التي قلنا أنها لا تمت بصلة إلى جوهر الدعابة/ النكتة نفسها)، يجب أن تكون متوفرة ومعرّفة لدى المتلقي، أو لدى عينة معقولة من المتلقين العاديين. لنفترض أن دعابة ما تسخر من مُعتقد ديني لدى طائفة مُحددة. فالخواص الثانوية هنا، هي ما يظنّه الآخرون (عينة عشوائية عادية وطبيعية من الجمهور)، في أتباع هذا المُعتقد. أمّا لو كان هناك فرد لا يعرف شيئاً عن أتباع هذا المعتقد

---

(1) عادة ما تستخدم المادة الكيميائية المعروفة بـ (فينيل ثايو كاربوميدPTC)، وشكلها الكيميائي هو؛ (C7H8N2S) كدليل لإثبات هذه الحقيقة؛ إن 70% من البشر يجدون أن طعمها مر. بينما 30% من البشر لا يمكن لهم الإحساس بمذاقها على الإطلاق. ومن الواضح أنه لا يوجد شيء مر في الطبيعة الجوهرية لهذه المادة. إذ لا يمكن أن يفشل 30% من الناس في اكتشاف هذه المرارة المفترضة في صلب المادة. وبدلا من ذلك، إنما الحقيقة هي أن هناك 70%من البشر، يمكنهم بناؤهم الإدراكي من تكوين الإحساس بالمرارة عندما يتذوقون هذه المادة الكيميائية. فيما يتمكن آخرون من بناء إدراك مختلف عنها. وهؤلاء لا يكون لديهم مفردات تبني الإحساس بالمرارة، ولا يمكن لهذه المادة أن تثير فيهم إطلاق هذه المدركات ـ المؤلفون.

المُتعرّض للسخرية، فإنه قطعاً لن يستجيب للدعابة، ولن يفهم السخرية التي تستهدفهم. لأنه ببساطة، لا يحمل الخواص الثانوية التي تمكنه من فهمها.

التصنيف الأحمر لهذه المحفّزات، هو التصنيف الذي يثير استجابة حمراء (وهو ما قد يجري تفسيره ظاهراتيًا، أو سايكولوجيًا، أو وفقاً لعِلم الأعصاب)، لدى الإنسان الطبيعي (العادي غير المتميز بميزة تختصه). بمعنى آخر، لا يهم إن كان السطح الذي يحمل الرمز (أ)، إلى أي حد يبدو أحمرَ من الناحية التركيبية أو الكيميائية ومشابهاً للسطح (ب). فإذا لم يكن هناك مجموعة من الناس ترى في (ب) سطحاً أحمرَ مثله مثل (أ) ضمن الظروف الإعتيادية، فإنه قطعاً ليس أحمرَ. وكذلك لو كان المراقب الإعتيادي لا يرى فرقاً بين احمرار السطحين، فإنهما سيعرّفان أحمرين، بصرف النظر عن الإفتراق التركيبي أو الكيميائي بينهما.

كذلك هو أمر الدعابة في النكتة، أو في الكاريكاتور. يسري عليها ما يسري على اللون الأحمر وتمييزه. فهل تكتسب الدعابة حسّ الفكاهة في صفاتها الثانوية كما وصف جون لوك؟. هنا يجب أن نلاحظ أن الدعابة لم تكن ضمن الخواص والصفات الأولية لأي شيء حتى نبدأ بتمييزها على أنها نكتة أو دعابة. ولهذا نجد أن من بين الأفكار الشائعة هي أن الدعابة أو الفكاهة يجب أن تكون صفة في بعض الأشياء التي (تعد) فكاهية على مستوى العالم!. أي إن هذه النظرة الشائعة الخاطئة تفترض أن هناك شيئًا موجودًا في فكاهةٍ محددة يمكن أن يُثير المُتعة والضحك والإحساس بالطرافة أينما ذهبنا به في هذا العالم. لقد قيل دائماً أن النكتة والفكاهة، ستكون منقطعة عن سياقها. أي أنها تثيرالضحك وتستجلب الطرافة

بذاتها، دون أن نبحث في مدلولها لدى المتلقي فوراً. هذا ما طرحه واير وكولينز/ Wyer and Collins.

لكن الواقع يقول إن الدعابة ـ النكتة تحديدا ـ لا يمكن أن تخلو من سياق على الإطلاق. لا يمكن أن تأتي منقطعة عن سياق الفهم العام المحيط بها. مثلما أنها لا يمكن أن تحمل نفس المدلول في المحتوى الجوهري ليفهمه الجميع حول العالم. لا يمكن لكل الناس أن تفهم ذات الجوهر في أي نكتة بانقطاع عن سياق فهمها، بصرف النظر عن الظرف (اللُغوي والتراثي والمكاني) الذي توضع فيه.

إننا قد نلحظ الدعابة (وقد لا نلحظها) حيث ما كانت، بناءً على الظرف والسياق الذي أتت فيه. وكذلك بناء على المحتوى الذي نحمله في أدمغتنا لاستيعاب مفردات السياق في تلك اللحظة. هذا يجري بما لا يشبه عملية تقييم حجم أو وزن أشياء معينة نخضعها للتقييم. أو لأننا قد نكون مُشتتين في تلك اللحظة، إن الأمر لا يجري هكذا مع الدعابة/ النكتة أو الطرفة التي تنتهي بإثارة الفكاهة.

إن الدعابة/ النكتة، بدلاً من أن يجري تقييمها باعتبارها باعثة محفّزة للفكاهة يعتمد على ما في جوهره من دوافع، يجب أن يُنظر إليها على أنها حافز يمكن له أن يحفّز حسّ الفكاهة في عقل ما. خلاصة الأمر، إن الدعابة ليست دعابة في جوهرها ولن تكون نكتة لمجرّد أن مجموعة من الناس تسميها نكتة. إنما هي دعابة أو طرفة بقدر ما تتمكن من إثارة العقل لاكتشاف مواطن الفكاهة في الأشياء والأحداث والمواقف.

إن الدعابة حالها مثل حال (صفة الاحمرار) في الأشياء. إنها صفة

تطوّرت مع تطوّر بَصر الإنسان، وتطور قابلياته لتمييز اللون الأحمر عبر مراحل تاريخية من تطوّره البايولوجي. وسار هذا التطوّر وفقاً لظروف ومحفزات ظرفية خاصة ترافقت مع كل إضافة للسجل المعرفي الموروث للعقل الإنساني.

لقد وجدوا أن هناك نوعًا خاصًا من المعلومات في هذا العالم (المعلومات التي يقدمها لنا جسم باللون الأحمر)، ولأن الهندسة المعرفية قد تطوّرت لتخبرنا بهذه المعلومات، وهي تخبرنا بخاصية اللون التي تحملها الأجسام[1].

وبصورة مشابهة، فهناك نوع من المعلومات (المعلومات التي تقدمها النكتة)، والتي بسبب من تركيبها وهندستها المعرفية، فإنها قد واكبت التطوّر في وعينا وإدراكنا لتتمكن من إثارة حس الفكاهة والدعابة فينا، كما أثار اللون الأحمر، الإحساس بالحرارة (جسم مُحمر بالتسخين)، أو الإحساس بالخطر (جسم مُميت)، أو الإحساس بالنضج أو الجمال (مثل الفاكهة أو الوردة)..الخ.

لكن، في ظل غياب أي محفّز يحفزنا على استشعار اللون الأحمر، سنبقى قادرين على وصف هذا اللون. على سبيل المثال، حين ننظر إلى اللون الأبيض. لو إننا ارتدينا نظارة ذات زجاج مُصفّي للون، ويسمح بمرور طيف الأشعة الحمراء فقط، فإننا سننظر عبر زجاجها إلى الأشياء البيضاء وكأنها حمراء. لنتذكر هنا إنه لا يوجد في كُنه الشيء الأبيض أي

---

(1) بما في ذلك التمييز العميق بين الإحمرار الناتج عن ارتفاع حرارة الأشياء، أو الإحمرار المأمون الذي يمكن التلامس معه، أو الإحمرار القاتل الذي ينقل السمّية أو خطر الموت، كل هذه الصفات التمييزية تراكمت في سجلنا المعرفي عبر التطوّر ـ المترجم.

محفز على استذكار اللون الأحمر في هذه الحالة. إذن نستنتج هنا أن وجود جسم أحمر في أصله، هو أمر غير ضروري كي نستثار اتجاه صفة الإحمرار في الأشياء (الفرق بين الطماطم التي هي حمراء من الداخل والخارج وذات جسم أحمر، وسيارة لونها أحمر). وقد يمكن لنا أن نخدع بصائرنا، ونغلق أعيننا ونحفّز ذاكرتنا التخيلية في أن تستحضر صورة لشيء باللون الأحمر موجود في هذا العالم. إن الشيء الوحيد الضروري توفره لحيازة الإحساس باللون الأحمر، هو توافر هيكلية خاصة لإدراك اللون الأحمر (ضمن منظومة للإدراك اللوني تميّز الأحمر عن غيره، لا فقط في تدرّجاته). وكذلك توافر تاريخ من استعمال هذا الإدراك وتنفيذ عملياته التي تؤدي في النهاية إلى إدراك معرفي لوجود شيء باللون الأحمر.

ذات الشيء يَسري على الفكاهة، فقد تطوّرت صفة اللون الأحمر في النباتات كي تكون قادرة على اجتذاب اللواقح (أي، إجتذاب الحشرات والكائنات التي تساعد على حمل اللواقح ونقلها). أو في نواحٍ أخرى، لإظهار التحذير من محتواها السمّي، يعني شكلاً من أشكال الدفاع الذاتي.

ومثلما لن يكون بمقدارنا أن نفهم، ما الهدف الذي تطوّر من أجله مدلول اللون الأحمر ليعني لنا وللأنواع الأخرى معاني محددة، فقط عبر دراسة البناء التكويني للون الأحمر، أو الصبغات التي تسبب اللون الأحمر. كذلك سنفشل في فهم الدعابة عبر التركيز على الفحص المجهري لمكوناتها. لن نفهم جوهر الدعابة عبر تشريحنا لمكونات النكتة، أو البحث في تفاصيل الفكاهة نفسها أو الحدث الفكاهي أو مكوّنات الموضوع الطريف.

إذاً، ما المقصود حين نطلق على شيء وصف (طريف)!.

إنها تعني، أن الفقرة موضوعة البحث، إنما تمثل حزمةً من المعلومات، يمكن لها بشكل موثوق أن تستفز وتحفّز الفكاهة وتدفع إلى انطلاق مشاعر الدّعابة لدى عدد معيّن من الناس.

وعلى مثل هذا، يمكن القول أن فلاناً (هو شخصٌ طريف)، فهي تعني أن هذا الشخص عادة ما يقول أو يفعل أشياء تدفع إلى الاستجابة الفكاهية من قبل الناس.

ولنتذكر هنا، أن الأشياء ذات اللون الأحمر، لا يمكن لها أن تثير الاحساس بالاحمرار لدى الأشخاص المصابين بعمى الألوان.

إن ما نطرحه هنا هو قريب الصلة جداً بمفهوم ديفيد هيوم/ Hume، (فيلسوف إنكليزي/ 1711 ـ 1776) عن خبرة الإنسان في العلاقة السببية[1]، وتجربته في توقّع الأشياء والحذر منها.

وقد نرى أن الحدث (ب) يتبع الحدث (أ)، في مناسبات عدّة. لكننا في الحقيقة نسيء التقدير حين نتوقع حدوث (ب)، حالما رأينا (أ) يحدث، لأنه لم تتوافر الشرطية أبداً، ثم إننا لم (نفكر) بما يكفي لنفهم الأسباب

(1) لقد أوضح هيوم أن التجارب لا تخبرنا بالكثير. فبفرض أن لدينا حدثين؛ (أ)، و(ب). ونقول أن الحدث (أ)، هو «سبب» لحدوث (ب)، إذ إنهما يحدثان دائماً وبالتتابع. أي إنهما مرتبطان بشكل دائم، وحيثما وجدنا (ب)، سنجد أن (أ) قد سبقه. ولدينا ثقة كبيرة بأن هذا الإرتباط سيستمر بالحدوث. لكن، عندما ندرك أن هذه السببية ستقودنا إلى أن عبارة؛ «إن (أ) يجب أن يتسبب بحدوث (ب)»، هي مساوية للعبارة؛ «بسبب إرتباطهما الثابت، فإننا متأكدون أن (ب) سيتبع (أ)»، فإننا سنكون إزاء مفهوم ضعيف جداً، تفرض ضعفه مسألة الضرورة، والأسئلة المتعلقة بها. وإن هذا الإدراك الضعيف حول الضروراتية والفعالية السببية يجعلنا نرتكب أخطاء في اتخاذ أي إجراء إستقرائي عن العالم ـ المترجم

التي تستوجب إلحاق الحدث (ب) بالحدث (أ). لكن مشاعر الترقّب هذه، التي غدت عادة إنسانية في وضع التصورات للذات، إنما تتجه إلى إساءة التقدير كلما كان الأمر خارجاً عن ذواتنا. إن الذات الإنسانية لا تستخدم خاصية الترقّب هذه كوسيلة مباشرة للإدراك، وإذا حدث واستخدمتها فستقود في العادة الى إساءة التقدير.

إن نقطة الضعف هذه التي تتجلى في الإسناد الخاطئ، أو تقود إلى توسعة النتائج التحليلية، وهو ما سنجد له مصاديق كثيرة وشواهد عدّة. إنها تحدث مثلاً حين نفرّغ غضبنا في شخص آخر غير معني بالأساس. حتى أن هناك نكتة إنكليزية معروفة عن ذلك، إذ يقول أحد الجلساء على مائدة الشرب لزميله: يجب عليك أن تتوقف عن المزيد من الشرب، لأن وجهك صار يبدو لي ضبابيًّا مشوشاً!.

في هذه النكتة، لدينا ما نسميه؛ «الإسقاط الخاطئ». وكأن (تشويش) صورة وجه المُجالِس الآخر في عين المتحدث هو ما حدث. لقد أبرزته وكأنه تحوّل في صفات ذلك الوجه. ولنا أن نتصور كيف أن الاسقاطات الخاطئة قد تقودنا إلى نتائج خاطئة حتى في دراسة أصل الدعابة والفكاهة التي تتضمنها.

لقد أعطى روبرت بروفاينProvine/ ، (بروفيسور بايولوجيا الأعصاب في جامعة ميرلاند/ 1943 ـ 2019)، بعض الدلائل على أننا قد نضحك بسبب أشياء وأحداث كثيرة تكون خالية تماماً من مُثيرات الفكاهة، أو حتى من بواعث الدعابة. وفي استطلاع شمل عددًا من المشاركين في نوبات الضحك، خلال حدث إجتماعي، جُمع مجموعة من الأصدقاء، في مقابل مجموعة من الغرباء لا يعرفونهم. وجد بروفاين أن ما نسبته فقط (10 ـ

20 %) من المشاركين بالضحك قد وجدوا أن التعليقات (قبل) الضحك، كانت فكاهية في الحقيقة. يعني أن الغرباء، لم يجدوا أي شيء يبعث على الضحك، بينما وجد الأصدقاء سهولة في مشاركة بعضهم البعض بالضحك. وهذا يؤدي بالنهاية إلى استنتاج مهم، وهو أن إساءة التقدير قد تأخذ المجموع إلى إساءة الحكم بشكل خطير، بينما تكون الحقائق ملقاة بوضوح أمامهم. إن هذا ما يدفعنا إلى القول بأن هناك على الأقل نوعين من الضحك بالاعتماد على فهم البواعث؛ ضحكٌ لأجل الفكاهة، وضحكٌ لأسباب أخرى.

3 ـ 2. الضحك الدوشيني.

الضحك المسبب لانقباض العضلات (الضحك وفق تعريف دوشين/ Duchenne).

لماذا يضحك الألمان ثلاث مرّات عندما تحكي لهم نكتة؟. الجواب، أولاً يضحكون حين سماعها. ويضحكون ثانية حين تشرحها لهم. ثم يضحكون ثالثة لحظة يهضمون النكتة!...

افترض روبرت بروفاين، أن للضحك أسبابَه التي تكمن فيه. وأن الضحك ليس دلالة على الفكاهة دائماً. كما لا تشترط الفكاهة تسبيب الضحك. أكيد من الممكن أن نتفق مع هذا الرأي حسب معطيات البحث العلمي اليوم. لكن، من زاوية أخرى، نجد أن الفكاهة والضحك ليستا حالتين أو ظاهرتين منفصلتين.

لكننا نبحث عن رابط بين الإثنين يرتّب المعلومات والأوصاف بشكل أكثر جلاء وأكثر اتساقاً مع قواعدنا المعرفية المنسّقة. إن العلاقة

بين (التضحيك)، واشتراط وجود الفكاهة أو الدعابة، تشبه إلى حد بعيد الرابط بين «التفكير» و«الخطاب».

إن الأفكار (تحدث) في العقل. لكن التعبير عنها سيخرج عن طريق الخطاب، وهذا سيكون متأثراً بصورة غير مباشرة بالمسار الذي سارت عليه عملية حدوث الأفكار في العقل. وسيكون أيضاً ظهورها في الخطاب قد خضع لمحاولة السيطرة، أو التصفية، بل والمراقبة.

وبالتأكيد إن لدينا أفكاراً بلا خطاب يعبّر عنها. أو إننا قد نجد بعض الخطابات قد قيلت بلا تفكير، أو لا تقف وراءها عملية تفكير.

كما عبرت عن ذلك كلمات أغنية المغني (موس آليسون) التي تقول؛ «إن عقلك في إجازة، أما فمك فلا يتوقف عن الكلام».

وعليه، فإننا نرى أن الضحك والفكاهة عادة ما يأتيان كلًّا على حدة. مفترقان لا يشترطان بعضهما البعض. إن اللغة هنا، وهي الرابط بين التفكير والفكاهة. يجب أن تفهم كظاهرة إنسانية طبيعية اجتماعية، وليس فقط بعدِّها ملمحاً من الملامح السايكولوجية للفرد. وأيضاً لا يكفي أن نعدّها ملمحاً نفسانيًّا من مدلولات الوجود العاقل للانسان. ولهذا. فإن من المهم جداً إدراك مراحل التطور السيكولوجي الذي مرّت به اللغة واستخدامها.

في البداية علينا أن نميز بين الضحك لأغراض الإمتاع، والضحك لأسباب الضرورة أو الاحتياج الاجتماعي.

إن الضحك يأتي في العادة على شاكلتين من الأنواع نفرّق بينهما سايكولوجيًّا؛

الأول، هو العفوي التلقائي ـ يصاحبه تعبير دافئ ودود من الابتسامة.

والثاني هو الضحك مع تقدّم الحواجب إلى الأمام، وارتفاع زوايا الفم بحدة، حيث تتقلص عضلة (الدويرية العينية) في الوجه، سواء كان إراديًا أو لا إراديًا. وفي هذه الحالة تلعب العضلة الدويرية العينية دوراً أقل.

لقد كان غيوم بنيامين دوشين دي بولون Duchenne de Boulogne/ (طبيب أعصاب فرنسي/ 1806 ـ 1875)، هو أول من درس هذه الفوارق في مرضاه سريريًا. ولهذا يسمى هذا الفارق في الضحك وأنواعه بـ (ضحك دوشين)، أو (الضحك الدوشيني).

بعد ذلك جرى تثبيت وتسجيل إن حالة الاستمتاع الحقيقية لا تحدث إلّا مع حدوث شروط (ضحك دوشين)، وتحقق مواصفاته.

بعد ذلك بفترة طويلة، توصلت الأبحاث الحديثة إلى ذات الإستنتاج الذي أشار له دوشين في بادئ الأمر. وتم تأكيد آراء دوشين عبر دراسات فرانك وأيكمان/ Frank & Ekman(1993). وكيلتنر وبونانو/ Keltner & Bonanno (1997). ولمزيد من الايضاح العملي، نقول إن الألمان في النكتة التي نفتتح بها هذا الجزء من الكتاب، فإنهم يظهرون الضحك لمرّتين (بما لا يطابق توصيفات دوشين)، بينما يطابق ضحكهم في المرّة الثالثة توصيفاته.

وكان هناك جدل واسع في الأوساط العلمية، يدفع بأن الضحك (وفقاً لمفهوم دوشين)، يمكن الاعتماد عليه والتعويل عليه لتمييز العواطف الفكاهية وتسبيب الدعابة.

لكن بروفاين بدوره لم يشر إلى الفوارق ما بين (الضحك الدوشيني)، و (الضحك اللادوشيني). وبالتالي فإن هناك احتمالية واضحة تشير إلى

بعض الضحك (اللادوشيني)، كمسبب للنتائج التي خرج بها بروفاين. ومن الممكن أن تحتوي قواعد البيانات التي اعتمدها على أنواع من الضحك الفكاهي، الذي قد ينتمي إلى غير الضحك الذي أشار له مفهوم دوشين.

في هذه الجزئية، على سبيل المثال، يمكن أن نضع أولئك الذين سمعوا بالنكتة من قبل، لكنهم ضحكوا لأجلها مرّة ثانية. أو أولئك الذين لم يفهموا النكتة تماماً، لكنهم أرادوا مجاراة جو الفكاهة الذي أشاعته النكتة بين الحضور. وهذا الاحتمال الأخير لوحده يحتاج إلى استكشاف واختبار.

إن محاولة الإجابة على مثل هذه الأسئلة، ستتطلب منهجية مختلفة تماماً عمّا جرت عليه العادة في تعريف الفكاهة ومسبباتها.

صحيح أن المراقبة والملاحظة البسيطة لحالة الأفراد حين يمارسون الضحك ستكون مفيدة، مثلما أن البحث في محفزات الضحك ستكون بداية مقبولة، لكنها لن تنفع في رسم صورة واسعة وكبيرة عن آليات الضحك والفكاهة وفهم منطلقات الدعابة وآلية تأثيرها.

ولأجل تقصي أصل الضحك عند الضاحك، على الباحث أن يستجوب الضاحك نفسه ويفهم، إن كان هناك شيء فكاهي، أو داعٍ من مشاعر الدعابة هي التي دفعته إلى الضحك. وإن كان هناك فعلاً ما يستدعي الضحك، فعلى الباحث أن يفهم ما هو هذا الشيء؟، ولماذا كان باعثاً للإحساس بالدعابة؟.

(طبعاً، قد لا يتضح هذا الأمر بالنسبة للباحث في العموم، إلا أنه سيبان حين دراسته ضمن مجموعة خاضعة للدراسة، فيها من قام بفعل

الضحك، أو من لم يضحك بالأصل، أي من لم يجد ما يستفز روح الدعابة أو الفكاهة لديه).

وللحصول على إجابة لسؤال، (ما المضحك؟، ولماذا ضحكت؟). ستكون الإجابة تكويناً معقداً من دلالات مجموعة مؤثرات مجتمعة. مثل، مؤثرات اللغة، والخطابة، والإيماءة، والذاكرة، ثم إلى الاستنتاجات الذي تحصل من كل هذه المؤثرات. إن الإجابة لن تكون مراجعة بسيطة للنكتة التي استفزت الضحك وأثارت الشعور بالفكاهة أبداً. بل ستكون بشكل خريطة مخطط ذي اتجاهات، يرسم سير المؤثر من لحظة إنطلاقه إلى غاية تنفيذه مهامه.

إن بعض العوامل سيكون من الصعب جداً جمعها وإحصاؤها في بيئة قاعدة البيانات التي كان يعمل عليها بروفاين. ولو حصل أن تم تدوين قواعد البيانات، فسيتوجَّب لاحقاً أن يجري اختبارها عمليًّا ومختبريًّا. هذه الاختبارات هي التي ستفصل إن كانت نفس المحفزات ستنتج نفس التفاعلات لدى أفرادٍ مختلفين أم لا. هل سنجد أن هناك مواضيع ستعد (هزلية، أو فكاهية) لعينة متشابهة إحصائيًّا؟، أو إن عوامل الفهم الذاتي، والمدلول التاريخي للموضوع ستتغير؟.

وسيكون من المفيد عندها أن نعرف فيما إذا كانت نوعية الضحك، هي من نوع (ضحك دوشين)، أم من نوع آخر.

وعلى الرغم من أن هذا لن يكون مهمة سهلة، إلّا أن أي عمل بحثي علمي لن يتضمن هذه الإجراءات، سيتركنا في حيرة وفي أسئلة مهمة لن تتحصل الإجابة عنها.

لكننا نعتقد بأن بروفاين كان على صواب حين قال إن ليس (كل) الضحك منبعه الاحساس بتأثير الهزلية، أو مدفوع بالفكاهة أو بسبب ملامسته الدعابة. لكننا نؤمن أن معظم الضحك، سيظهر أن مصدره هو استفزاز مؤثر لامس حسّ الدعابة والفكاهة، وإن هذا كان سيظهر لو أن بروفاين وسّع من نطاق بحثه ليشتمل على قراءات أكثر تنوعًا كما بيَّنَّا.

إن الاطار النظري في هذا الكتاب يفترض، إن كان أحد ما سيحاول الخوض في مثل هذه الدراسات، فإنه سيكتشف عاجلاً أن كل أنواع الضحك (حتى ذلك الضحك اللادوشيني) لا بد أن ينضوي على شيء من الاستفزاز المدعوم من أصل الدعابة والفكاهة. وإن هذه الروح الهزلية والإحساس بالفكاهة قد ارتبطت فعلاً بوجود محفز مستثير لها.

والآن، لنتابع الفرضية التي تقول: بأننا فعلاً نضحك في بعض الأحيان لأجل أحداث أو أشياء لا تثير الفكاهة والضحك. من الصعوبة أن نجد أدلة دامغة تدعم هذه الفرضية، لكننا سنقيّم بعض وجهات النظر هنا.

إن الإطار أو الطريق الذي يحيط بالعادة بفعل وسلوك الضحك، من دون أن يكون هناك محفّز ملائم أو مناسب لتحفيز عملية الضحك، عادة ما يطلق عليه (الضحك غير الملائم). مثال ذلك، فكرة الضحك في مأتم أو جنازة.

لكن وصف هذا السلوك بأنه (غير ملائم)، لا يعني أبداً أن ذهن الضاحك لم يمرّ به ما يستدعي فعلاً إستثارة الضحك، أو أن هناك بالفعل ما مرّ أمام ذهنه من موقف له خواص إثارة وتحفيز الضحك لديه هو شخصيًا. وقد يكون الضاحك قد ضحك لأسباب ملائمة مرّت بذهنة، وهنا صار ضحكه

هو (ملائماً)، بينما الآخرون لم يشاركوه. بل إنه قد يكون في موقف لا يحسد عليه، ولسوء الحظ، لم يتمكن من مشاركة المرح مع الآخرين.

أما ما هو غير مناسب بصورة أكثر جلاء، فهو فرض هذا السلوك على جمهور غير مستلم لرسالة الفكاهة. ولا نتوقع منه أن يشارك الدعابة أو أن يشعر ويتفاعل بها.

وهناك باعث آخر للضحك في جنازة أو مأتم. وهو باعث قد يظهر في ظروف ومناسبات أخرى أيضاً. لقد جرّبنا جميعاً الضحك في حالات التوتر العصبي، حينما يكون (ظاهر الأمر) أن لا شيء هزلي أو يدفع إلى الشعور بحالة فكاهة أو إحساس بوجود دعابة في المحتوى. وبالرغم من ذلك، فإن هذه الأدلّة (السردية)، لا تكفي كي نفهم فوارقها عن الفكاهة والطرافة التي يحس بها شخص ما خلال مونولوج داخلي قد يحدث في ظرف يبدو غير ملائم.

ومن بين هذه الظروف، حالة السخرية من الذات حين يكون الشخص مُرتبكاً أو أن أعصابه مثارة بشكل غير مسيطر عليه.

وقد تكون هذه السخرية أو الضحك هي وسيلة لمواجهة الآخر، حيث يضحك الشخص من نفسه لأجل السخرية من فرد ما، أو حتى جماعة. وسيكون هذا الضحك منتحلاً، وبالتأكيد من النوع الـ(لا دوشيني).

وتأتي المزيد من الأدلة على إننا قادرون على الضحك في غياب الظروف التي تبعث على الاحساس بالطرافة والفكاهة، هو الضحك في حال تحطّم الأعصاب. كما أن هناك أمراضًا أو عوارض تدفع على الضحك بلا مؤثر واضح من مواقف الطرافة. مثال ذلك، (إضطراب أنجيلمان/

Angelman)، وهو اضطراب جيني يؤثر في الجهاز العصبي. أو كما في حالة الشلل المعروف بـ (سيدو بلبر/ Pseudobulbar)، ويسمى أيضاً بالشلل البصلي الكاذب. وهو حالة طبية تتميز بعدم القدرة على التحكم في حركات الوجه، مثل المضغ والتحدث. أو مرض الصرع الضاحك. وهذه كلها تبدو كأنها توفر ضحكاً بلا دوافع.

ومثل ذلك المصابون بمرض الكورو[1] (وهو مرض مبني على الاصابة بالبريونات ـ جسيمات البروتينات المسببة للعدوى ـ وهذا أيضا مشابه إلى حد بعيد لسلوك المصابين بمرض كروتزفيلد ـ جايكب (مرض يتسبب في اضطراب دماغي قاتل وانتكاسي)، وهو يُظهر المُصاب وكأنه يضحك من بين علاماته التي يغير بها سلوك المصاب (بروفاين ـ 2000. وبلاك ـ 1998).

كتب سنتياغو وآخرون عن حالات بعض المصابين بالصرع، إذ كانت تتخلل نوباتهم موجات من الضحك المتواصل، يقابلها نوبات من البكاء. كانت هذه الحالة لمريضة أثارت انتباه الباحثين، لأن الضحك لم يكن مصاحبًا بأي علامة من علامات الطرافة أو الشعور بالسعادة أو المرح عند المريضة (آرويو وآخرون ـ 1993).

ودرس (سبيرلي وآخرون ـ 2006)، حالة مريض يعاني من نوبات الضحك والابتسامة لكن بلا علائم للمرح أو الارتياح التي تسجل سريريًا، عبر مراقبة نشاط القشرة الدماغية أو تحفيزها كهربائيًا.

(1) مرض كورو، هو مرض يتعرض فيه الدماغ لتلف نسيجي، اكتشف بين قبائل غوينيا الجديدة، والتي كانت تمارس عملية أكل أدمغة الموتى كنوع من الطقوس الجنائزية ـ المترجم.

إن هذه الحالات، تقودنا إلى الاعتقاد بوجود شبكة منفصلة وظائفيًّا في نظام الإنسان، تكون مسؤولة عن الضحك المؤدي إلى المرح، والناتج عن الاحساس بالطرافة والفكاهة. وقد تكون هناك شبكة أخرى مسؤولة عن تقييم هذه الطرافة ابتداءً.

إن هذا الموضوع مثير للاهتمام. ورغم أنه يفترض وجود سلسلة عرضية[1] (ربما كانت منعزلة أو متداخلة مع دوائر عاملة أخرى)، هذه السلسلة تتمكن من التمييز والفرز، بين الفكاهة والطرافة من جهة، وبين الضحك الناتج عنها من جهة أخرى.

علاوة على ذلك، فالاستنتاجات التي وضعها أرويو/ Arroyo، تفيد بأن ليس هناك ما يدفع إلى الافتراض بوجود الإحساس بالمَرَح لدى المرضى الذين تصيبهم نوبات الضحك، وهذا ما يشير إلى وجود فشل ما أو خطأ ما. وهو ما يشير أيضاً إلى أن وعينا الدفين يربط كذلك بين الضحك والاحساس بالمرح، وكل ما يفك هذا الترابط، سيكون عاملاً مرضياً بالضرورة.

وأخيراً، فإن هناك أبحاثًا تقول إن الناس يتعرضون إلى الضحك، بحضور آخرين يضحكون، حتى لو لم يتعرضوا هم بأنفسهم للمحفّز الذي

(1) بحث جواد برويزي/ Javad Parvizi، وزملاؤه (2001 ـ جامعة ثوماس جيفرسون) في حالة مريض يتعرض إلى نوبات طويلة من الضحك، ثم البكاء. واستنتج برويزي أن هذا المريض، سيبدي علامات في المراقبة السريرية أثناء نوبات الضحك، تشابه تلك العلامات التي تنتج من حالات المرح، أو الاحساس بالفكاهة، فقط لو تعرّض للنوبة بشكل كاف. أو أن تستمر معه إلى مدة كافية. هذا الاستنتاج السريري، يقودنا إلى افتراض وجود ما يشبه (الرجع العصبي)، أو رجع الصدى بين عملية الضحك، والاحساس بالمرح أو الفكاهة. بحيث تجعل إحداهما سبباً للأخرى. رغم أن المعتاد هو أن تكون الفكاهة والاحساس بالمرح هما المسببين للضحك، وليس العكس. (المؤلفون).

جعل الآخرين يضحكون. ومثال ذلك الأوضح هو الاستخدام التلفزيوني لأصوات ناس ضاحكين، يساعدون المشاهدين على التحفّز لأجل الضحك مع كل موقف يتوقّع المنتجون أن يكون مثيراً أو أن المحتوى فيه ما يدعو للضحك.

لقد أزالت أبحاث بروفاين الإرباك الذي يشكله تأثير الضاحكين المُستفَزّين أو المُعرضين لمحفز ما، على الآخرين من غير المعرّضين له. وذلك عبر تجربته تعريض المستمعين لأصوات الضحك من صندوق صوتي، دون أن يكون هناك محفز آخر يثير أسباب الضحك. وتبين له تقريباً أن نصف المشاركين في التجربة، قد ضحكوا بالفعل عند سماعهم أصوات الضحكات، دون أن يكونوا مشاركين في الحدث المُسبِّب للضحك، ودون أن يعلموا ما هو الباعث أو المُحفز للضحك، خلال المرّة الأولى التي استمعوا بها إلى أصوات الضحكات.

وهنا يجب أن ننتبه، أن فكرة الاستماع إلى أصوات ضاحكة، في ظل غياب أسباب عقلانية معقولة تدفع إلى الضحك، هذه لوحدها قد تكون فكرة تبعث على الإحساس بالطرافة والفكاهة. كما أن علينا الأخذ بنظر الاعتبار أن تكون هذه الضحكات (ضحكات المستمعين في التجربة)، قد تكون من النوع (غير الدوشيني) للضحك.

يعني باختصار، إننا نجد في الاشتراطات الاجتماعية لإجراء التجارب والمتطلبات التي تثبت دقتها، عاملاً مربكاً آخر.

في النهاية، نجد أن عدداً كبيراً يتفق على إمكانية حدوث الضحك، بطريقة عامة دون أن يكون هناك مسبب أو حافز من الحوافز المعتادة التي

نعرّفها على أنها من مستثيرات الضحك والطرافة. رغم أن هذه الدلائل غير مسبغة ولا مسيطرة. ولا تتبع الطريقة التي اقترحها بروفاين.

لكن يبقى السؤال، هل هناك ضحك دوشيني من دون أن يكون هناك باعث للفكاهة، أو سبب ذو قاعدة طرافة تستفز الضحك؟.

إننا نميل الى الإتفاق مع رأي غرايفز وويلسون[1]، الذي يقول بعدم وجود مثل هكذا ضحك، باستثناء ربما ما يتعلق بالحالات التي تتطلب تداخلاً عصبيًّا جراحيًّا.

ومن الممكن أيضاً للضحك المفتعل غير الدوشيني، أن يرتكب أحياناً من أجل إرضاء المحيط في لحظات وظروف معينة. لكن هذه الظروف التي يستهدف الضحك المفتعل إرضاءها، هي على الأقل تحمل بعض الشبه بالظروف التي يحدث معها الضحك الدوشيني. أو ربما تكون ببساطة تتوافر على ما يجعلنا نضحك ضحكاً دوشينيًّا، إلا أن المحفزات الباعثة على الضحك والطرافة ربما تكون ضعيفة، وغير قادرة بما فيه الكفاية على تحفيزنا للضحك الدوشيني.

للوهلة الأولى، يمكنك أن تقيِّم الفكاهة ضمن إطارها اللحظي. كأن تكون نكتة، أو أداءً كوميديًّا في مشهد ما. أو خلال حالة نمطية من التي اعتدنا أن تظهر فيها أسباب الفكاهة. كل هذه قد تجدها بيئة مألوفة لاستفزاز الضحك المبني على وجود الفكاهة. لكنك قد تبدأ أيضاً بعملية تقييم أو تقدير للموقف ابتداء كي تلحق بحالة الضحك.

ولاحقاً سنناقش فيما إذا كان الضحك (اللادوشيني)، قد ظهر خلال

---

(1) لاحقاً، سنعرض دراسة غرايفز وويلسون ـ المؤلفون.

عصر تخلله تطوّر في سباق التنافس والتصارع؛ الضحك المُفتعل، فيما لو كان مُقنعاً، قد يكون وسيلة من وسائل الخاطبين لاستمالة الشريكة التي هي محطّ تنافس.

ورغم هذه الفرضية، فإن وجود الضحك الإرادي (غير العفوي)، اللادوشيني، هو أمرٌ كافٍ ليخبرنا بأن ليس كل الضحك يجب أن يكون استجابة للفكاهة والطرافة.

في عالم المحاكاة الحيوانية، وبين الحشرات؛ تكتسب الأفاعي السامة ألواناً صارخة وواضحة للمفترس المحتمل، كنوع من الدفاع التطوري. لكنَّ هناك أنواعًا أخرى من الكائنات، تقتبس من الأفاعي السامة ألوانها كي تستعملها للدفاع بالضد من نفس المفترس. رغم أنها لا تمتلك السم، في النهاية فإن رسالة وجود سم هي واحدة.

ذات الشيء يحدث في عالم الضحك. فالضحك اللادوشيني، قد يكون (مثل المثال أعلاه) يتمحور حول الفكاهة، حتى لو كانت الفكاهة ليست هي الدافع وراء انبعاثه. قد يقصد القائم على الضحك اللادوشيني أن يعلن عن وجود فكاهة مفترضة، ويريد أن يشعر الآخرين بأنه قد علم بوجود فكاهة مفترضة. مثلما تريد الأنواع غير السامة أن تشعر مفترسها بأنها تحمل سمًّا.

من ناحية أخرى، فإننا لا نبتغي أن تثبت لنا التجارب العملية أننا لا نضحك في العادة حين نجد أن الموضوع طريف أو فكاهي.

للوهلة الأولى قد تصادفك في هذا الكتاب بعض النكات التي قد تجدها طريفة إلى حد ما. لكن ليس إلى الحد الذي سيجعلك تضحك

عالياً. إن كنت ستصف نفسك في هذه الحالة، بأنها جعلتك تضحك من داخلك، فإن هذا ما نسمية (الشعور) بوجود الفكاهة والطرافة التي تؤدي إلى المتعة.

إن هناك شيئًا من الاستمرارية والتواصل؛ ففي بعض الأحيان نجد أننا ندرك كنه الفكاهة التي جعلت الآخرين يضحكون. ومع ذلك، قد لا نجد أن ما يسبب لهم الضحك، هو كذلك أمر طريف بالنسبة لنا. أي إن ما يضحكهم، هو بالتحديد شيء لا يكفي أن يجعلنا نضحك بدورنا.

وفي أحايين أخرى، نجد أنفسنا ـ في مناسبات محددة ـ ونحن نخنق ميلنا نحو الضحك، وقد يكون هذا سلوكاً مُرهقاً وأبعد ما يكون عن المتعة[1].

إذن، إننا إزاء توصيف للضحك، يقول بأنه ليس ضروريًا دائماً، ولا كافيًا دائماً للتعبير التفاعلي مع الفكاهة. إن هذا الإنفصال المضاعف، يعني أن الضحك موجود ـ في العادة هو موجود ـ لكن هذا الوجود سيكون في العادة بمعزل عن الفكاهة.

وهو موجود ليخدم أغراضاً بايولوجية، واجتماعية، وسايكولوجية متعددة. وقد جرى هدر هذه المقومات في طبيعته الحالية. لكنه يؤدي هذا الدور الإستثنائي الآن. لهذا نقول؛ إن الفكاهة لا يمكن تعريفها ببساطة

(1) إيكمان وفريزون (1971). نظّرا لوجود علاقة مشابهة بين كل الانفعالات العاطفية، ووسائل التعبير عنها. واقترحا وجود علاقة فردانية تربط كل شعور منفرد بتعبير خاص به. ورغم أن كل شعور يستولد التعبير الخاص به، إلّا أن السيطرة الإرادية تستطيع على الأقل أن تزيّف وتلبس التعبير الخاص قناعاً محدداً ليظهر وكأنه تعبير آخر، عن انفعال آخر ـ المترجم.

بأنها الأشياء التي تجعلنا نضحك لها. رغم أننا جميعنا نعلم أن الضحك يترابط وجوديًا مع الفكاهة، أو هذا ما تمليه علينا تجربتنا معه.

إن البحث المنطقي في الفكاهة يجب أن يمنحها أسباباً للوجود بمعزل عن الضحك. أي أن الطرافة يجب أن تكون على شكل طريقة منطقية بمعزل عن قدرتها على الإضحاك. وهذا فرز في أغراض الفكاهة عن الغرض الذي يكمن وراء الضحك. وأيضا أن تؤدي الدراسة إلى فهم السبب وراء إعتبار الضحك دليلاً في العادة على وجود الفكاهة.

3 ـ 3. اللاوصف المُمنهج في الفكاهة.

أنا لا أجد نفسي مضطراً أن أقول لك؛ بأن الأمور على ما يرام، دون أن أترك شيئاً لم يُقل بعد. وما أتركه هو الأفضل.

أظن أن الأمور باتت تنطق عن نفسها. وكلما تحدثنا عنها بأقلّ الحديث، كان ذلك أفضل.

جورج كارلن/ Carlin، في كتاب (ذَروق الدماغ/ 1997).

حين نتحدث عن الفكاهة، نجد أنفسنا مقيدين بدوائرَ ضيقة، ومتداخلة. وتعريفات لا تشبع الحاجة للمعلومة. إن الفكاهة تقع في منطقة التميز، منطقة القدرة على تمييز الأفعال والمدلولات وفقاً للخزين المعلوماتي الذي نحمله. ولا يمكن بالطبع استشعار الفكاهة من شيء أو مسمّيات لا نفهمها. إن منطقة التميز هي مَلَكَة لدينا في عقولنا تخبرنا بأن الموضوع الفلاني أو الحدث الفلاني هو حدث يبعث على الطرافة ويشعر بالمرح.

إن محاولة القول بوجود برهنة على ماهيّة الفكاهة، تشبه في صعوبتها محاولة التعريف بالكلمات على ما يعنيه الاحمرار في الأشياء الحمراء اللون. إننا كلنا نعلم بصورة جيدة ما هي تلك الأشياء عبر تجاربنا الخاصة. لكن هناك ما يمنعنا من الدخول في تحليلات لاحقة لتلك التجارب الشخصية. شيء ما يمنعنا من أن نقول للآخرين، إن لحظات فرحتنا الشخصية، أو مفهومنا للون الأحمر إنما يقعان في جهة متشابهة من الشرح والتفسير.

الإنسان يجد صعوبة دائماً في تفسير حالته الفرحة على سبيل المثال. إنها لحظة تجسيد للفلسفة الذاتية الصعبة تحت عنوان؛ «مشكلة الدماغ الآخر». نحن لن نتشارك بسهولة في تخمين ما سيظنه الآخر عن أفكارنا. إن الصعوبة في تعريف الفكاهة تبدو بصعوبة المعضلة الفلسفية المحبطة في تمييز ما يعرف بـ «الكواليا/ qualia المعكوسة».

إن اشتقاق المصطلح، يمنحنا مجالاً مهمًّا، لكنه لا يرضي المنطقية الإصطلاحية كثيراً.

إن مصطلح فكاهة، (جمعاً بالإنكليزيةHumors)، أي بمعنى »الأخلاط». يشير أساساً إلى سوائل الجسم الأربعة التاريخية؛ الدم، والبلغم، والعصارة الصفراء، والعصارة السوداء. ولأن مناسيب وجود هذه السوائل في البَدن، يعتمد على نوعية المزاج. فقد أصبحت الكلمة (Humor) معبّرة عن المزاج. فأن يكون المرء بمزاج حسن، معنى ذلك أن سوائله متزنة في كمياتها.

ثم صارت الكلمة تعبر عن «المزاج الحَسن الذي يرتبط بحالة

التسلية». وسار الحال ليستقر المصطلح تعبيريًّا لما نعرفه الآن عن مفهوم الفكاهة السائر في اللغة. لكن المشكلة الوحيدة في هذه الوقائع التحوّلية للمصطلح، هو في تعريف نوعية الحال الذي يمكن أن نطلق عليه أنه «مزاج حَسن ناتج عن مشاعر التسلية».

ويمكن أن تكون هناك مقاربة ظاهراتية أيضاً لفهم معنى الفكاهة. فـ«المَرَح»، وقد يسمى بتبادلية معنوية (مزاحاً)، أو (إمتاعاً)، مثل كل الظواهر يأتي ويحدث تدريجاً. ويتدرج من الدغدغة اللطيفة للعقل، إلى مستوى شديد ومُهيمن من العاطفة. وفي بعض الأحيان يُطلق فينا مستوى غير مُسيطر عليه من الضحك. وفي أحيان أخرى، يتسبب فقط باحمرار قليلٍ للوجنات جرّاء الشعور بالمتعة. وما زلنا نشعر في بعض الأحيان أننا مضطرون للتعبير عن أنفسنا بواسطة (نوايا للضَحِك) اللادوشيني بالتأكيد. وربما يقتصر الأمر على مجرد ابتسامة بسيطة.

ما هو المشترك في كل هذه الحالات هو «الشعور»، الشعور الذي يعترينا حين نمر بحالة أصيلة من حالات الإستمتاع واللهو. فعندما تحظى بنكتة، فإن هناك متعة في إسترضاء نفسك حين تعرف هيكليتها وبناءها وسياقها، وهذا ما يجعلك تضحك.

وسنحاول أن نكشف العلاقة بين الفكاهة والقدرة على حل تفاصيلها واستكشاف دقائقها في فصل لاحق. أكثر من هذا فإن الفكاهة مثل الجمال، تكمن في عين حامله ومن يخصه. فإذا قال الآخرون؛ ليس هناك ما يضحك، فإن الشخص ما زال قادراً على التمسك بأطروحته؛ نعم، لقد كان فيها ما يُضحك بالنسبة لي.

وإذا ما تعرض للضغط من أجل أن يفصح عما جعله يضحك، فإنه قد لا يجد جواباً جاهزاً. لكنه لن يرد إيمانه وادعاءه بأن في النكتة ما جعله يضحك فعلاً. وقد يقول: لست متأكداً ما هو الشيء الذي جعل النكتة مضحكة لي، لكنني مع ذلك أجدها طريفة.

سبق أن تطرقنا لمريض آرويو الذي تنتابه نوبات ضحك دون أن يعلم لماذا. كما درس آرويو كذلك حالة الضحك لدى مرضى جرى تحفيز أحد فصوص الدماغ لديهم بالتيار الكهربائي. في كلا الحالتين، كانت هناك مشاعر (ممتعة)، ترافقت مع حالة الضحك. لكن جميعهم لم يتمكنوا من ربط هذه المشاعر الممتعة بشيء فكاهي مرّ على خاطرهم أو ذاكرتهم في أثناء الضحك.

هذا يعني، عدم تحقق المساهم الأول في إثارة الضحك، وهو ما نعبّر عنه: «معنى الأشياء وهي تتغير بطريقة فكاهية». أو: «هذه الأشياء تبدو فعلاً فكاهية». لحساب سبب واقعي وهو: «المتعة بسبب توافر مشاعر لطيفة وتدعو إلى استحضار الطرافة إلى الذاكرة».

وقبل سنوات من تجارب آرويو، كتب وايلدر بينفيلد/ Penfield شيئاً مماثلاً. الذي اكتشف تجريبيًّا عام 1958، أن الإستثارة الكهربائية للقسم الصدغي الأمامي من الدماغ ستؤدي بالمريض المالك لوعيه أن يبتسم وأن يميل في كثير من الأحيان إلى الضحك.

وكرر إيتزاك فرايدر/ Itzhak Fried، التجربة على مريضة لديه، فوجد أن استجابة المريضة المصابة بنوبات دورية من الضحك المتناوب، للمحفّز الكهربائي تشابه تماماً استجابتها للمحفزات التي تثير عندها نفس حالات الضحك الدوري.

إن نوع الشعور الذي نعرّفه على أنه «ممتع»، قد يجري تمييزه عبر الظروف المرافقة، والمحفّزات، والتفاعل اتجاهها. لكننا نسعى إلى اكتشاف (لماذا) يتوفر بالأصل مثل هذا الشعور؟. وليس فقط معرفة الأسباب الكامنة خلف إنطلاقه.

ومع ذلك، كل ما لدينا عن مسألة حدوث الضحك، ما زال ينحصر في نشوئها الذاتي والظهور كتعبير عن التأثر بمحفّز ما.

لقد وضع دانيت الانتباه اتجاه غموض الترابط هذا عبر طرحه للمسألة التالية:

إن هناك نوعًا من الرئيسيات تعيش في أميركا الجنوبية. وهي بالعموم تسلك سلوكاً إجتماعياً أكثرمن باقي أنواع الماماليا (الثديّات)، وهو ما يدعو إلى الدهشة. عادة ما يجتمع أفراد هذا النوع في مجموعات. قد تكون هذه المجموعات كبيرة أو صغيرة. هذه الفصيلة، يدخل أعضاؤها عادة في ثرثرة بين بعضهم البعض، وخلال عملية الثرثرة تنتابهم نوبات من التشنج التنفسي الشهيقي. يحدث هذا تحت ظروف متنوعة وخلال أشكال مختلفة من الثرثرة. وقد تكون هذه التشنجات والشهقات قوية ومؤثرة إلى درجة قد تعوقهم وتشلّهم عن الحركة. ولا يبدو أبداً أنهم مكرهون عليها، لكن بعض الأعضاء يبدو وكأنهم مدمنون على هذه الممارسة الذاتية.

وقد يجرّنا الإغراء، إلى إننا فقط لو أمكننا معرفة ما الذي يدفعهم إلى ممارسة هذه العادة شبه المدمنين عليها. كنا سنفهم من الداخل ما يجري بينهم. سنعلم فقط أسباب هذا السلوك، لو كنّا نرى الأشياء من وجهة نظرهم الخاصة. لكن، ربما حتى لو تمكنا من حيازة مثل هذه النظرة، فإنها كانت

ستتركنا حيارى في التقرير. ونحن بالفعل نقف إزاء هذه المعضلة، كما لو كان هذا النوع هو بالحقيقة، الهوموسابيان (أجداد الإنسان الحالي)، ونحن بالفعل نتساءل لماذا تبنى الضحك.

كيف سيبدو المشهد لنا لو حاولنا رؤية الفكاهة الإنسانية»من الداخل»؟. هذا التساؤل دفعنا إلى الدوران في حلقة مفرغة لا بداية لها، وسيبقى تساؤلنا بلا إجابة. وحيث أن كل الأشياء الطريفة تشترك باحتوائها على ما نسميه «مُعضلة مركزية»، للبحث عن الفكاهة. ورغم ذلك، فهناك توافق بين المنظّرين في آليات الفكاهة وحدوثها. أمّا الجواب لهذه العقدة السردية أو العقدة الحدثية يجب أن يكمن في آلية استثارة المحفّز الباعث على الفكاهة.

إن معظم المنظّرين لم يقاربوا هذه الآلية الداخلية التي اختلطت عليهم بسبب تلازم مداخل الوعي بالنسبة للفكاهة وتأثيرها.

وبما أن هذه المشكلة واجهتهم، نعني مشكلة «عدم القدرة على الرؤية من الداخل»، أو عدم القدرة على تفكيك الفكاهة وهيكلها، فإننا نجد في كتاباتهم إنجرافاً نحو التنظير الإرتجالي والإكتفاء بالبحث التوصيفي لإطار حدوث الفكاهة ومحفزاتها.

ولهذا نجد أن التشويش التقليدي الذي يرافق هذه الأبحاث التي تعتمد هذا النوع من البيانات، نجده خاضعاً لادعاءات بأنه قد كشف كنه الأشياء الطريفة ولماذا أصبحت طريفة؟، بل يتعدّى ذلك إلى تسبيب الطرافة.

ولو أخذنا بهذه التفسيرات، لسار بنا الأمر الى أن نقبل بالكثير من النظريات الشائعة، والشروحات غير المُعضّدة بالمعلومات، كلّها تدعي معرفة ما يوجد خلف الجدار.

أما البديل لهذه المقاربات التقليدية الظاهراتية، فهو ما يعرف بـ «الهيتروفينومينولوجيا/ Heterophenomenology»، أو عِلم «ظواهريات بواقي الأغيار». الظاهراتية المتأتية من تأثير الشخص الثالث الغائب، لا من تفاعل الشخص مع آخر. وهي وجهة نظر، تقبل إدعاء الشخص بأن لديه إحساسًا ظاهراتيًا معيّنًا، لكنه يستبطن حكماً على هذا الإدعاء ناتجًا عن سبب حيازته مثل هكذا ادعاء.

إن هذه المقاربة (الهيتروفينومينية)، تسمح لنا بأن نستعمل ظواهريات أخرى ومصادر أخرى من القراءات والبيانات (تحليلات منطقية، وعلاقات أمبريقية لبناء النظريات)، وذلك لتفسير لماذا في الحقيقة نجد أن الناس لديهم ما لديهم من التجربة الظاهراتية، وهي المقاربة التي اتبعها هذا الكتاب في تفسير ماهيّة الفكاهة.

ولهذا، فإننا لن نعوّل على ما يقوله الناس عن الكيفية التي يَرون بها الفكاهة، ولماذا يعدّونها طُرفة. إن وجهة نظرهم لا تعني حقيقة هوية الطرفة ولا الطريقة التي تعمل بها، مثلما لا تعني ما فهموه منها، ولا تشرح على الإطلاق الميكانيكية التي يؤدي العامل المُستفز بها دوره.

لن تكون مثل هذه القراءات المأخوذة عن سؤال الخاضعين للتجربة. ولن تكون إجابة السؤال التالي: هل رأيت هذا الفعل أو هذا الحدث طَريفاً؟..مثل هذه الإجابة التي يوفرها هذا السؤال لن تكون إضافة معلوماتية.

سنحاول في البدء أن نستكشف الملامح الكونية العمومية التي تترافق مع مشاعر المتعة. وما أن يتكون لدينا مخطط نظري يخبرنا قصة تطورية

مقبولة عن «لماذا»، و«كيف» بزغت هذه الظاهرة، عندها يمكننا البدء بوضع تخطيط لكامل العملية، نحو اكتشاف هندسة العامل الإصطناعي الذي يمكن أن نبحث عنه. والذي يستجيب للفكاهة.

3 ـ 4. طريف بصيغة: هاها.

وطريف بصيغة: ها!

سؤال: كيف تعرف أن كبير الطبّاخين هو مُجرّد مهرّج؟.

جواب: عندما يكون مذاق الطعام «طريفاً!».

خلال محاضرة لأستاذ علم اللسانيات في أوكسفورد، الدكتور جي. إل. أوستن/ Austin، بيّن لنا فيها رغم أن «نفي النفي في اللغة هو إثبات»، إلّا أنه لا توجد لغة في العالم يكون فيها «إثباث الإثبات، هو نفي!».

سبق أن قلنا إن هناك تشابهات لا حصر لها بين المُتعة التي تزوّدنا بها الطُرفة، والمُتعة التي تزوّدنا بها «حل الألغاز والمُعضلات». إننا حين نستمع إلى طُرفة أو نكتة ونفهمها، فإننا نستمتع بشعور الإستكشاف مثلما نكون مستمتعين بشعور الإنتصار حين ننجح في حلّ مسألة معقّدة.

وحين لا نتمكن من حلِّ مسألة، فإن هناك شعورًا ينتابنا بالإرتباك. أو الشعور بنقص المعرفة، وقد يميل بنا إلى استشعار الخطر نتيجة ذلك. هذا الشعور يشبه شعورنا حين نجد أنفسنا بأننا لا نفهم طُرفة معيّنة قيلت لنا. إن الشعور المتضارب والمتعاضد للكلمة الإنكليزية (طريف)، قد يساعد على أن نَحدس أن هناك فكاهة وطُرفة في طريقها إلينا، وبهذا نبدأ باستحضار المشاعر المرافقة.

إن الشعور الأولي هنا هو ما سبق أن ناقشناه، وهو الشعور المتوافق والمناظر للفكاهة، والمحفّز لعواطف المُتعة. أما ثاني المشاعر التي تراودنا مع ورود كلمة (طريف)، فهي مشاعر أكثر خفية وأقل وضوحاً؛ إننا نستخدم هذه الكلمة ليس فقط حين لا نشعر بالرغبة بالضحك، وإنما حين نجد شيئاً في هذا العالم غير معتاد وغريبًا بطريقة قد تكون مزعجة بعض الأحيان.

إن الإكتشافات غير المتوقّعة، مثل أن تعود إلى منزلك فتجد أن الأنوار مضاءة بينما أنك متأكد من تركها مُطفأة، يمكن لهذا الحدث أن يزوّدك بشعور خاص يجعلك تقول: هذا طريف!. أتذكر أنني قد أطفأت المصابيح قبل خروجي.

إن النكتة عن الطبّاخ المهرّج تتضمن تورية كلامية تعتمد على فهمنا لكلا المؤثرين؛ الكلمة والإحساس. (هنا يكون الإحساس بعامل ثالث، قريب ومتعلق بهما، هو نوع خاص ومعيّن من المشاعر يشبه ذلك الذي نجده طريفاً في منظر شجرة، أو في عاصفة ثلجية، أو في شكل حصاة. لا يهم سواء كانت المفارقة أو الغرابة تستحق الوصف أو إنها تشعرنا بالتهديد، فهذا أمر آخر).

سألت جارتُنا المرأةُ العجوزُ، أحدَ الأطفال قائلة: «أي نوع من الشغلات الطريفة التي أنت بصدد فعلها؟». قالتها عندما رأت الأطفال يدورون في الجوار وكأنهم يخططون لفعل شيء ما. إن السؤال ينطوي على أنها تشعر بالشك، لا على أنها تنتظر حصول شيء ممتع.

وهناك مثل آخر، يقدم لنا نوعاً آخر من الإضاءات.

«يا دكتور، رأسي طائش إلى حدِّ الطرافة». هنا المريض يدعي أن رأسه يؤلمه بطريقة غير معهودة، وكأنه يقول: إن رأسي يجعلني أشعر بشعور غير معتاد، وبطريقة تجعلني أشك فيه[1].

وهنا كان استخدام الصفة (طريف)، بطريقتين شعوريتين، المقصودة من العنوان لهذا الجزء، مرّة ظهرت بشكل: (طريف، هاها)،.. ومرّة ظهرت بشكل: (طريف، ها!).

مثالٌ آخر، يمكن تطبيقه على ما يعرف بـ (العظم الطريف)[2]، لمساحة أكبر من شرح المعنى. إن عظمة الطرافة هي الجزء غير المحمي من العصب العضدي في الذراع قرب الكوع. وعندما تضرب هذه العظمة أو تتعرض لصدمة، خاصة للمرّة الأولى فإنها تمنح صاحبها شعوراً خاصاً لكنه لا يبعث على الضحك. لكننا يمكن أن نتحدث عن علاقة بين قدرة الإحساس بالفكاهة والربط بين عظْمة الطرافة. الأمر مشابه للحديث عن الأسنان اللبنية.

هل إن هذا الإستخدام الثانوي للتعبير عن كلمة (طَرافة)، هو مجرّد مُصادفة معجمية؟، يعني مثل الكلمة الإنكليزية (Bank)، التي قد تعني

---

(1) يمكن الأخذ بنظر الإعتبار دلالة الكلمة المقابلة في اللغة العربية. وهنا لمزيد من الإيضاح نلجأ إلى المثال المقارب في اللغة العربية المحكية، أو الوسيطة. فالقول: «أمر مضحك، أو شيء بيضحك (عامية)». تعني من بين معانيها أن الأمر غامض. ويدعو إلى الريبة وأنه غير مسبوق ـ المترجم

(2) عظمة الطرافة، هي الجزء المكشوف من أعلى العِكس، خلف الكوع. وفي الحقيقة هي ليست عظمة بقدر ما هي جزء قريبٍ الى الجلَد من العصب العضدي. وسمّيت بـ عظمة الطرافة، كونها تمنح شعوراً طريفاً فيما جرى ضربها عرضاً بشكل متوسط أو خفيف، لكن المقصود هنا أن يكون هناك تلامس حسّي لعمق الطرافة المؤثرة، بأنها ستصل بالمتلقي إلى هذا الشعور ـ المترجم.

ضفّة نهر، أو مؤسسة مالية؟. أو أن هناك علاقة عميقة تفسيرية بين ضفّة النهر والمؤسسة المالية؟. إننا قد نجادل بأن هناك ملمحًا متجاوبًا مختفيًا في هذه العائلة من المعاني، وإنه غير محصور بالإنكليزية لوحدها.

إن عملية إجراء مسح عامة على اللغات، واللغويين. حتى لو لم تشتمل جميع اللغات، سنكتشف بسهولة أن الكلمة التي نعبر عنها بـ (الطرافة.. ها..ها)، هي ذات معنى آخر ملاصقٍ ومصاحب لمعنى التعبير عن الفكاهة والتأثر بها. هذا المعنى الإضافي سيشتمل حتماً على ما يفي بأن هناك شيئاً غير ملائم، وأن شيئاً ما ليس في محلّه وغير معتاد، وغير متوقع، فضلاً عن كونه متخالفًا عقلياً.

المفردة الإسبانية (Chistosa)، وهي تعني؛ طريف ـ مَرح ـ مضحك. وتستخدم عمليًا في مسارين؛ الأول إنها تعني (الغرابة)، كما في جملة: يا للغرابة!، لقد أغلقت الباب، لكنه الآن مفتوح.

أو تعني المَرَح، كما في جملة؛ بالأمس شاهدت فيلماً طريفاً للغاية.

وفي اللغة الإسبانية المحكية في الأرجنتين، نجد أن كلمة (Loco)، تعني مَعنيين مزدوجين. فهي تعني من جهة: (الجنون، الخَبَل، طريف إلى حد الجنون)، وتعني أيضاً: (الشيء الغريب، الشيء غير المتوقع).

وفي البرازيل التي تتحدث البرتغالية، فإن الكلمة (engra ç ado)، تؤدي أيضاً كلا المهمتين.

ويبدو أن تنغيم لفظ الكلمة، وطريقة إدارة الصوت الناطق بها هو أمر مهم جداً في عملية تقرير أي المعنيين هو المقصود، هذا الأمر مهم لكنه ليس حاسماً.

ويبدو أن الفرنسية لديها عدد من الكلمات التي تتصف بهذه الميزة؛ فمثلاً إن الكلمة الفرنسية (drôle/ «دغول»/ مضحك)، تحمل بالضبط هذين المعنيين. والكلمة الفرنسية (marrant/ ماغو/ طريف)؛ تعني معنيين، الأول هو الطرافة. والثاني ـ رغم أنه لا يعني مدلولًا (غريبًا) ـ إلا أن السياق يمكن أن يتضمن الكثير من المعنى المقارب لكلمة (غريب). مثلاً: هذا الأمر غريب، أكاد أتذكر أنني تركت مفاتيحي على الطاولة. نفس الشيء مع الكلمة الفرنسية (rigolo/ غيگولو/ مضحك، ممتع).

شيء مقارب تماماً يحدث في الألمانية، فالكلمة (/ komisch كومِش/ غريب، مضحك)، أيضاً يمكن أن تستخدم بمعنيين، الغرابة، والمحتوى المضحك. وهكذا تتعدد المسألة لتشمل عدداً من اللغات الآسيوية أيضاً. كلها، باستثناءات قليلة تربط بين معنيي الطرافة والضحك من جهة، ومعنى الغرابة من جهة أخرى. هذه المجموعة من المعاني والدلالات نسوقها بطريقة إحصائية ليست رسمية، لكنها من ملحوظات ومسوحات مهمة لعدد كبير من لغات العالم.

وفي اللغة اليابانية، لدينا مثال عن كلمة (o ـ ka ـ shi ـ i/ أوكاشي ئي)، وهي ذاتُ الكلمة المُستعملة في الجملتين المترجمتين عن اليابانية كالتالي:

- إنه شخص فكاهي حقاً، ألا تراه كذلك؟.
- هناك شيء غير طبيعي يدقُّ رأسه.

لقد واجهنا هذا الإرتباط حتى قبل أن نبدأ الإستفهام الجذري عما إذا كان المعنيان المتقاربان قد تطوّرا في كل لغة بمعزل عن باقي اللغات المؤثرة أم لا.

وسواء كان هذا التقارب اللغوي الدلالي قد تطوّر إلى جانب حالات إعتماد لعدد من المعاني، أو إنه نتاج لعدد من الوصائل المستمرة الموروثة لمعانٍ بعينها، فإننا إزاء حقيقة تتمثل في أن التنوع هو أمر شائع ومنتشر في الاستجابة المتقاربة لذات المدلول. يستجيب الآخر بشكل (مُتنوع)، ليس لأنه يحمل مدلولاً مغايراً، إننا نتحدث هنا عن نفس المدلولات، ولكن لأنه يحمل خبرة مختلفة في التعامل. لا تتطابق بالضرورة مع ما يحمله الآخرون. ذكرى أليمة لنفس الحدث ليوم 11 سبتمبر، ربما تعني لدى الآخر، فوات موعد رحلة مهمة بالطائرة (ألغتها أحداث 11 سبتمبر في ذلك اليوم).. هذه تعززها حقيقة أن المتحدثين باللغة الآن يشعرون بالراحة إزاء وجود هذه العلاقة بين المعنيين. وهي كلها تؤدي إلى مفهوم واحد؛ إن هناك شيئًا «طريفًا» حقاً في مداليل كلمات (فكاهة/ طرافة/ مُضحك).

3 ـ 5. النسبية المعرفية للفكاهة.

ما هو المشترك بين الاسكندر الأكبر، والدّب ويني؟...

كلاهما لديه (ألـ)التعريف!

إن تقدير فكاهة حالة ما، إنما يعتمدُ على توافرمعرفةٍ محددة لدى المتلقّي. قد تكون متوفرة لديك أو قد لا تكون. ولهذا، قد يحدث أن تلقي نكتة وسط جمع من الناس فتكون ردود أفعالهم على شكل ضحكاتٍ قوية. وقد تلقي نفس النكتة وسط جمع آخر فلا تلاقي سوى إشارات الغضب.

إننا نذكر في هذا المثال (الطُرفة/ النكتة)، ليس على أنها المثال الوحيد

للفكاهة. إنما لأن النكتة في الغالب تكون منعزلة عن سياقها الوضعي. ومُنفصلة عن المناسبة التي قد تفرش لها تمهيداً للوصول الى الفهم العام الذي تحتاجه. منفصلة عن كل ما يمكن أن يبشر بقدومها ويهيئ الأذهان للتعبير عن الفكاهة التي ستليها. النكتة لا تحتاج إلى كل هذا، هي تُلقى وتتفاعل إعتماداً على عدّة مُعطيات، في الغالب ليس من بينها السياق العام للتفوّه بها.

وإليكم نوعاً من النكتة التي قد يجدها البعض طريفة، فيما يجدها البعض الآخر خالية من الطرافة وربما حتى تحتوي على نوع من العدائية:

سؤال: ما هو الشيء الذي لديه قدمان وينزف؟.

الجواب: كلبٌ مقطوع إلى نصفين!.

ربما أمكن فقط لأولئك الذين ينأون بأنفسهم عن أي عواطف مؤثرة خلال سماع تلك النكتة، فقط هؤلاء يمكن لهم أن يلتمسوا الفكاهة فيها. الأمر صعب طبعاً في التطبيق، وقد يستحيل في ساحة عَزل المشاعر.

إن معظم الفهم المستلزم لاستيعاب الفكاهة يرتبط في واقع الحال بأبعاد ثقافية. وفي حالات أشد وضوحاً، تغدو الفكاهة مُعتمدة بالكامل على ملامح معيّنة تتمتع بها كل لغة وتختص بها. ومن الصعب على مثل هذه الفكاهة أن تنجو من فخ التلاشي عبر الترجمة.

إليكم المثال التالي لنكتة يابانية:

ـ: بالأمس كان هناك متجر في كامورا يبيع عيدان الطعام من البامبو، بسعر 50 ين للحزمة.

ـ: وهل اشتريت منها؟.

ـ: لا، لقد كانت عيدان طعام»غالية»!.

النكتة هنا، لا يمكن فهمها إلّا إذا عرفنا أن كلمة «غالية» باللغة اليابانية، هي نظير متجانس صوتيًا مع كلمة»بامبو».

نكتة نصّية أخرى من اللغة الكورية تقول:

من هذا الذي عقله في رأسه، يجرؤ أن يخلط الماء المالح بالماء الصافي (الحلو) في مطبخ أمّه، ثم لا يتوقع أن تأتيه ضربة تأديبية مناسبة؟.

لقد قيل لنا أن هذه النكتة يمكن أن تعدَّ فكاهية للغاية بين طُلاب المراحل الثانوية في المدارس، وبالتالي باعثة على الضحك إلى حد كبير، بسبب ثلاثة أسس ثقافية ملحقة وواضحة للكوريين: أولاً، في المنهج الكوري للدراسة الثانوية هناك كلمة تعبيرية رياضية واضحة تمثل المسائل التي تتضمن خلط الماء المالح بالماء الصافي (الحلو)، لأجل احتساب النسب.

وثانياً، من الواضح للكوريين إنك ستقوم بهذه الخلطة من الماء المالح والماء الصافي تحديداً في المطبخ.

وثالثاً، تتضمن الثقافة الكورية منعاً شديداً للأطفال من العبث بمطابخ أمهاتهم. فالطفل الذي يجرؤ على إثارة الفوضى في مطبخ والدته، سيتوقع تقريعاً شديداً، قد يصل إلى الضرب.

وعبر استيعاب هذه المعلومات، يمكن للقارئ باللغة الإنكليزية (أو أي لغة أخرى غير الكورية)، أن يستوعب أسباب الفكاهة ودوافع الضحك

في هذه النكتة، إلّا أنه من المستبعد تماماً أن يشعر فعلاً بالفكاهة والطّرافة التي تحتويها مثلما يشعر بها الناطق بالكورية.

إن هذه الحقائق تدفعنا إلى الانتباه إلى خاصية أخرى من خواص الفكاهة؛ إذ إن الفكاهة لا تعتمد فقط على الخلفية المعرفية لما فيها من معلومات، إنما تعتمد أيضاً على الطريقة التي بُنيت فيها هذه المعرفة، والسبيل الذي تراكمت عبره هذه المعلومات، وترابطها التاريخي ببعضها. وهذا ما يفسر لماذا أن عملية (شرح) نكتة ما للآخرين، ستتسبَّب في إفراغها من محتواها الفكاهي وستجعلها غير مضحكة على أكثر احتمال؟.

إن الأمر يشبه عملية رواية نكتة ما، لكن بترتيب مغلوط لأحداثها، فتصبح فارغة المحتوى رغم توافر الفهم العام للحبكة الفكاهية وصياغتها.

زارَ رجلٌ، صديقاً له وهو من الـ(نيوفي)، فوجده وقد غطى كلتا أذنيه بالضمادات الطبية. فسأله: «ماذا حصل لك؟».

أجاب الصديق: «في الحقيقة كنتُ أكوي ملابسي بالمكواة. وفجأة رنّ الهاتف!، وأخطأت فكويت أذني بالمكواة».

لكن الرجل سأله مجدداً: «طيّب، هذا يفسر إصابة إحدى أذنيك، فما بال الثانية؟، كيف أصيبت؟».

فأجبه الصديق: «نعم، لقد كنت مضطراً أن أتصل بالطبيب!».

هذه النكتة، مثلاً، تعتمد إبتداء على قضية أثنية. وهي أن الكنديين ينظرون إلى السكّان من (نيوفي)،، وهو اختصار لمن يعود بالأصل إلى (نيوفاوند لاند). على أنهم فئة قليلة الذكاء، بليدة نوعاً ما. وهذا التصنيف أو التورية التي تخلط الفكاهة المتوقعة بِعرقٍ ما، نجدها متكررة عند شعوب العالم.

وواضح أن الرجل الذي كان يستعمل المكواة في كيِّ ملابسه، قد ارتكب حماقة بأن استعملها بدلاً من الهاتف ووضعها على أذنه. وتأتي حبكة الفكاهة الباعثة على الضحك من التصرف (الغريب ـ الأحمق)، في أن يكرر الرجل خطأه فيضع المكواة على أذنه الثانية حين أراد أن يتصل بالطبيب. لكن، تبدو لنا هنا عقبات موضوعية أمام الفهم التام لحبكة النكتة وبواعث الفكاهة فيها.

لنتصور أولاً أن جيلاً كاملاً قد لا يعرف ما هي المكواة. وقد لا تكون أداة تستخدم في الحياة اليومية. ومسألة أخرى، تبرز حديثاً أيضاً، وهي أن جيلاً كاملاً لا يعرف اليوم أداة الهاتف التي تشبه سماعتها مقبض المكواة. مجهولان ثقافيان، المكواة والهاتف القديم سيجعلان النكتة تفقد بحبوحة قادحات الفكاهة فيها. إن هذا النمط من النكتة، التي تحتاج إلى معرفة ظرفية في الحقيقة، هو في طريقه إلى الإندثار والإنقراض ولا نتوقع لها ديمومة البقاء والتناقل.

لنتصور أن هناك في المستقبل رجلًا حاول أن يشرح هذه النكتة لأحفاده. يتوجّب عليه بالبداية أن يشرح معنى استخدام آلة المكواة، وكيف إنها آلة ثقيلة متصل بها سلك كهربائي، ولديها سطح ساخن بما يكفي لحرق الجسد البشري. ثم عليه أيضاً أن يشرح وجود هاتف مرتبط بسلك مشابه، لكنه ليس كهربائيًا، وإن طريقة حمل الآلتين متشابهتان. وبالتالي ارتكب الرجل في النكتة حماقة غريبة بأن رفع المكواة ظنّاً منه أنه قد رفع الهاتف. عند هذه النقطة، ستبدو النكتة لأحفاده مثلما تبدو لنا النكتة الكورية التي سبق أن سقناها مثالاً.

إن النكتة كمثال هنا، تعتمد كثيراً على الخلفية التفاهمية للمتداولين بها.

سواء كانت لهم نفس المهنة، أو نفس العادات، أو نفس الهوايات. النكتة التالية بيان لهذه التفصيلة، وهي متداولة بين مهندسي الكومبيوتر؛

«هناك 10 أنواع من البشر؛ النوع الأول يقرأ لغة الأرقام الثنائية، والنوع الثاني لا يقرأ لغة الأرقام الثنائية».

إبتداءً في هذه النكتة، فإنك إذا كنت لا تعرف بأن العدد (10/ صفر واحد)، إنما يمثل العدد (2/ إثنين) في النظام الثنائي للأعداد، والمتكون من رمزين فقط هما (0، 1)، فإنك ستبقى تتساءل عن هوية باقي الأنواع (الثمانية)من البشر. كما إن هذه النكتة، يمكن أن تكون من بين النكات النادرة المقتصرة في فاعليتها على الكتابة فقط. إذ إنها لا يمكن تلاوتها وإتيان نفس مفعولها في حالة الكتابة.

هنا، نركن إلى نوع آخر من الفكاهة يعتمد على افتراض وجود مَعرفة محددة، أو امتياز معرفي معيّن في التاريخ الشخصي للمستمع أو متلقي النكتة. وعلى هذا الإفتراض يمكن فقط أن تعمل الفكاهة وتحدث الإستجابة لها.

ستكون هذه الفكاهة بالفعل مُسببة لمشاعر الطرافة للمتلقي حائز المعرفة الخاصة، لكنها بالنسبة للآخرين، لن تكون كذلك. وسيتحتم عليهم شرح أسباب الفكاهة (وفقاً لحصائلهم المعرفية) للآخرين من أجل جعلهم يتشاركون الإحساس بها. ولحظة الشروع في شرحها وبيان أسباب الفكاهة (كما يفهمها الذين أحسّوا بها)، عندها لا يمكن أن نحسبها فكاهة مرّة أخرى، ولن تعود طريفة لهم.

يمكن للإنسان أن يضحك عند سماعه نكتة، فقط إن كانت مصفوفة

ومرتّبة بطريقة معيّنة توافق وعي الفكاهة الذي تناسق معرفيًّا لديه بشكل مُسبق.

وهنا يمكن القول، بأن المفهوم الشائع بأن النكتة يمكن أن تكون «معولمة»، هو فقط جزء من تراث إساءة الفهم للنماذج الإحصائية والدلائل العامة. وهي قد ترسّبت بشكل خاطئ كالتالي؛ بما أن معظم الناس الذين يمكن أن نصادفهم في سياق حدوث الفكاهة، يشتركون معنا بقدر كبير من المعرفة العامة، فإن فكرة أن «الجميع» سيجدون في الأشياء التي هي «حقاً طريفة» نفس ما نراه نحن من طرافة بصورة طبيعية. هذه الفكرة يمكن أن تكون صالحة. ومن الطبيعي فإن هذا الإفتراض خاطئ تماماً.

وبناء على شيوع هذا الإفتراض الخاطئ، فإننا قد نصادف أشخاصاً (نفترض أنهم يشاركوننا نفس المعرفة المؤدية إلى الإحساس بفكاهة معينة)، لكنهم في الواقع هم لا يتشاركون معنا. وهنا، سنجد عدم مشاركتهم الفكاهة والإحساس بالطرافة أمراً مُحيّراً. وهو في الحقيقة، أمر طبيعي.

وهنا، يمكننا أن نقول؛ ليس الكوريون هم من يتشاركون فكاهة غريبة لا نفهمها، إنما هم يتشاركون في معرفة عامة لا نشترك (نحن من غير الكوريين) فيها معهم.

تيد كوهين (1999)، شرح شيئاً من هذا يتعلّق بـ (الدّبويني)، إذ كتب يقول؛

«بالتأكيد أنا أريدك أن تحب النكتة التي رويتها عن الدّب ويني، أريدك أن تحبّها لأنني أحبك، وأريدك أن تحوز شيئاً تحبّه، وأريدك أن تكون ممتناً لي، لأنني منحتك شيئاً تحبّه. لكن هناك سببًا آخر يجعلني أرغب بذلك؛

وهو إنك إذا فعلت وأحببت ما منحتك إيّاه، فإنني سأتلقى تأكيداً بصحّة ما أحببت واخترته قبلك كي أحب. وأنا أعبّر عن هذا كلّه بقولي: «إنه أمر طريف». أقولها وكأنه أمر موضوعي مفروغ منه. مثل قولي: إن هناك رمالًا لعينة على سواحل ولاية مَين الأميركية. لكن ما أعنيه في الحقيقة، هو إنني ضحكت لأجلها. وإذا شاركني الجميع في الضحك لأجلها، فإنها ستكون «حقّاً طريفة»، أو إنها ستكون «جيدة بما يكفي لأن تكون طريفة». وأنا أريدك أن تفعل وتضحك لأجلها أيضاً».

إن النقطة الأخيرة التي يشرحها كوهين فيها خطأ طفيف. إنه لم يكن يعني حقيقة إن كان (الجميع)، سيضحك لها، فإنها ستكون (حقاً) طريفة. كان عليه أن يقول إن كان (جميع من هم مثلنا) قد ضحكوا للنكتة، فإنها ستكون (حقاً طريفة) لنا. و(نحن) فقط من نتكلم عنهم كجمهور لهذه النكتة، هذه الحقيقة تشابه قولنا؛ إن الطماطم الناضجة هي تبدو (حقاً حمراء) للمراقب.

على افتراض أنه يعرف كيف يميز نضج الطماطم.

لقد لاحظنا أن أغلب الأدبيات التي تتناول الفكاهة، كانت تتحدث عنها بلغة رسمية وثقافية عالية المستوى. وإن الأمثلة من أنواع النكتة التي تتناولها، تكون في الغالب نكاتاً ضعيفة.

3 ـ 6. التزاوج والمواعدة.

تمدَّدَ إثنان من علماء السلوك في الفراش، بعد أن مارسا الحب. قالت المرأة لشريكها: لقد كان ذلك رائعاً بالنسبة لك، فكيف كان الأمر بالنسبة لي؟.

- أنتِ تعلمين تلك النظرة التي تعلو وجوه النساء حينما يرغبن بالجنس؟.
- نعم.. أعرفها.
- أنا أيضاً لم أحس بها.

لقد جلب بروفاين الإنتباه إلى جانب عادة ما يجري إهماله خلال دراسة الفكاهة، ولم يلتفت إليه المنظّرون الأوائل؛ ألا وهو الإختلاف الجندري.

وخلال هذا المثال التشريحي للمحادثة الفكاهية، فإن المستمعات من النساء، ضحكن أكثر بكثير من المستمعين الرجال. وحدث هذا بصرف النظر عن جنس المُتحدث الراوي للنكتة، سواء كان رجلاً أم إمرأة.

كما إن النساء يمِلن إلى تلقي الفكاهة أكثر من ميلهن لإعطائها أو إلقائها. بينما يميلُ الرجال أكثر إلى إبداء روح الدعابة، وحس الفكاهة، أكثر من ميلهم إلى إبدائها وإلقائها وتلقيها من الآخرين.

وأيّد كل من كراوفورد وغريسلي/ Crawford and Gressley، هذا المَنحى لدى الرجال. وقد وجدا من خلال التحري والإستجواب الأعمق، أن فكرة الرجال عن المرأة ذات الحسّ الفكاهي، هي أن تكون؛ «إمرأة تقدّر الفكاهة حين تلقى عليها، وتتفاعل مع حُبكتها». هذا يعني أن عدداً أقل من الرجال يتوقعون أن تلقي عليهم إمراة فكاهة مُعينة، وهم يتوقعون أساساً أن تتفاعل المرأة أكثر فقط كي توصف بأنها ذات حسّ فكاهي.

وعلى العكس من ذلك، فقد أفادت معظم النساء أن فكرتهن عن الرجل ذي الحسّ الفكاهي الجيد، هو الرجل الذي يُحسن إنتاجها وتقديمها. أي أن يكنّ هنّ المتلقيات لهدف الفكاهة.

كما قدّم بروفاين دراسة تناولت السلوك أثناء المواعدة بالنسبة للنساء والرجال. وقد سجّل علاقة إيجابية تربط بين ازدياد لحظات الضحك عند النساء، وبين إقبالهن على تكرار المواعدة مع نفس الشخص. وكانت إيجابية أيضاً لدى الرجال، بمعنى أن الرجل سيرغب أكثر في تكرار المواعدة مع إمرأة تلقت فكاهاته بطريقة أكثر تفاعلية، أي ضحكت بمعدّل أكثر لما يلقيه من نكات أو طرائف. لكن هذا المؤثر قد يخضع لاعتبارات ثقافية، وخاصة ما يتعلّق بالمواعدة. إذ أن مُعظم هذه الدراسات تناولت الموضوع في بيئة غربية وبمعايير غربية اجتماعية.

كما تمكنت دراسات أخرى من إيجاد فوارق جندرية بأبعاد أخرى تتعلقُ بطرح الفكاهة أو تلقيها. فقد أثبتت دراسات ماكغي/ McGhee، إن الأولاد الذكور (بين سن 6 سنوات، و11 سنة)، يميلون إلى إنشاء الفكاهة وإلقائها في محيطهم بمعدلات أعلى بشكل ملحوظ من نظيراتهم الفتيات في ذات الفئة العمرية.

وكذلك ذهبت أبحاث ويسفيلد/ Glenn E. Weisfeldإلى أن الأنماط المبكرة للميل الى إلقاء الفكاهة، أو إنتاجها من قبل الذكور تتزامن مع بدء ظهور هرمية الهيمنة بين الأطفال. ولهذا، فهي قد تكون نوعاً من الآثار أو البواقي لهذه الهيمنة ومحاولة فرضها.

وفوق هذا، فقد أفاد جيل غرينغروس/ Greengross، بأن هناك دلائل تشير إلى أن تعليقات الكاريكاتير التي يكتبها الرجال، قد أشير إلى أنها (أكثر فكاهة) من تلك التي تكتبها النساء، من قبل عيّنة عشوائية أعميت عن معرفة جنس صاحب التعليق.

لكن، كل هذا لا يشير إلى وجود فوارق طبيعية في القدرات. مع ذلك، فإن خلاصة الأمر أن للرجال إمكانية أعلى في استلال المهارات المصاحبة لحيازة الفكاهة أو إنتاجها وإلقائها.

وفيما يتعلق بالفكاهة والفوارق الجندرية في تقديرها والتفاعل معها، فإن النشاط الدماغي أيضاً ينعكس فيه الفرق ويبدو واضحاً عند التجريب؛ وهنا يبرز القياس عند معيار يعرف بـ (الإستجابة الوظيفية المغناطيسية للصور/ FMRI).

ومن بين الفوارق الأخرى، فقد أظهرت النساء إستجابة أعلى في النشاط (القشري للفص الجبهي من الدماغ/ PFC)، وكذلك في نشاط ما يعرف بـ (النواة المتكئة في الدماغ/ NAcc). وعلى طول المسار الميزوبلومي الوسطي. كما أشارت إلى ذلك أبحاث إيمان عظيم/ Azim.

واستنتج الباحثون، وحتى الكتّاب، أن النساء يستخدمن المزيد من وسائل اللغة ووسائطها، ومعدلات أعلى من الوسائل التنفيذية التعبيرية (كما تكشف ذلك نشاطات الفص الجبهي في الدماغ)، لإدراك الفكاهة، أو للتعبير عنها.

وإنهن يتوقعن من الآخر تفاعلاً إمتنانيًّا أقل، أي إنهن يمنحن عوائد ومكافآت لقاء الفكاهة، سواء سمعنها أو تفاعلن معها. وهذا ما يشير إليه مقياس نشاط النواة المتكئة في الدماغ/ NAcc. وسواء ثُبّتت قطعيًّا هذه الأبحاث، أم لم تثبت. فإن الفوارق الفيسيولوجية الجندرية تحمل فوارق تقديرية لاستيعاب الفكاهة. أي إن الفسلجة كان لها انعكاس على القدرة التعاملية مع الفكاهة، لكنها انعكست على شكل اختيار (أين تقف)، ولم تنعكس على القدرات الدماغية.

ولو اكتفينا بهذه الأبحاث ولم نتعمّق أكثر، سنستنتج بسهولة (على الأقل)، إن هدف «أن تكون فكاهيًّا»، هو رغبة ذكورية بالدرجة الأولى، وربما تكون وظائفية أكثر من كونها إحتياجًا أنثويًّا لدى الإناث.

وإن الرغبة في أن تكون»مُمتناً، ومُقدّراً» للفكاهة التي يلقيها الآخرون (ذكور وإناث)، هي رغبة أنثوية أعلى مما توجد لدى الذكور. هذه الحقائق الجاذبة، والدافعة إلى الفضول، هي من بين الدوافع التي يبحثها هذا الكتاب ويسعى إلى كشفها ودراستها.

(4)

مقدمة في تاريخ نظريات الفكاهة

«دخل رجل إلى محلٍ لبيع وتقديم المعجّنات، وطلب قطعة كيك. لكنّه سرعان ما أعاد قطعةً الكيك التي قُدّمت له، وطلب بدلاً منها كأساً من الشراب. ثم نهض ليغادر دون أن يدفع الحساب. هنا، حاول صاحب المحل أن يستوقفه، ويذكّره بأنه لم يدفع الحساب

: «سيدي، الحساب من فضلك».

: «لكنني تركتُ لك قطعة الكيك بدلاً من كأس الشراب!».

: «نعم، وأنت لم تدفع حساب قطعة الكيك أيضاً».

: «لكني لم آكلها!»[1].



لقد قُدمت عدّة نظريات بشأن الفكاهة عبر قرون من الدراسات والكتابات بشأنها. وكل نظرية تبدو أنها صحيحة من جانب ما، بينما تهمل جوانب أخرى. فيما تبدو النظريات الأخرى قد تناولت جوانب مهملة، وربما صحّت في طروحاتها بشأنها.

---

(1) ليلي توملن/ Tomlin.

ومن وجهة نظر بحثية مثالية، يمكن جمع مواطن القوّة في هذه النظريات، ودمجها وتنسيقها بحيث نخرج بتفسير للفكاهة وأساليب عملها وتأثيرها بشكل متسق وموحّد.

لكن معظم النظريات تدرج ثلاثة أنواع من الفكاهة الأساسية وهي:

- التفوّق والاستعلاء.
- الكشف والإصدار.
- التعارض وشحة اللياقة.

أما باتريك كيث شبيغيل/ 1972 (Speigel)، فقد وضع ثمانية أنواع أو تصنيفات يمكن إدراج معظم أشكال الفكاهة تحت تصنيفها. ولو مزجنا وواشجنا هذه التصنيفات، ثم أعدنا ضبطها لتتناغم مع الأعمال الأكثر حداثة في هذا الجانب، لأمكننا أن ننظر بعين الطائر إلى مجمل رقعة الظاهرة ومساحة فعلها. ورغم أن الحدود الفاصلة بين التصنيفات ما زالت مضببة ومتداخلة، إلّا أن الفئات التالية للمؤثرات مازالت تميّز المجالات أدناه كمحددات نظرية وهي:

البايولوجيا، اللهو، التفوق والإستعلاء، الكشف والإصدار، المفارقة في المحصلة، الدهشة.

4 ـ 1. النظريات البايولوجية:

بدلاً من العمل على تحري الباقين لأنهم الأصلح، لنتحرَّ الباقين لأنهم الأكثر طرافة. ـ وعندها يمكن كلّنا أن نموت من الضحك.

إن النظرية البايولوجية في تفسير الفكاهة تتحرك وفقاً لتقدير أولي

يعُد الضحك والفكاهة أمرين فطريين. وهو ما تسجله المشاهدات والملحوظات العملية. كما إنها ظاهرة تظهر مبكراً جداً حتى في مراحل الرضاعة الأولى. وكذلك عند الأطفال الرضّع الصم والبكم، وكذلك عند فاقدي البصر منهم. هذا على الأقل ما أثبتته أهم الدراسات المعتمدة على التفسيرات البايولوجية النظرية، مثل دراسات ثومبسون/ Thompson. وإن وجود الفكاهة هو أمر عالمي مرتبط بثقافة كل مجتمع في شكله ويستجيب لها. ويختلف تعبيريًّا بين ثقافة وأخرى.

وهناك حقيقة هي أن الضحك والفكاهة لديهما آثار إيجابية فسلجية، إلى درجة قد يصح التعامل معها على أنها طور من أطوار التكيّف للبقاء حدث على المستوى الجيني. لكن هذا الربط الذي يبدو مُغرياً في تفسيره، ليس له ما يكفي من الدلائل التي تدعمه.

وعلينا أن نسأل هنا، لماذا حدث أن كل الناس ـ كل المجتمعات ـ قد تعثّرت في تبني الأسباب للفكاهة، التي لها آثار فسلجية إيجابية، بينما كان هناك مصدر فطري يحرّكها؟. لماذا بقي الإعتماد على وجودها الفطري، بدلاً من الوظائفي مثلاً؟.

يعني بصياغة أخرى للسؤال؛ لماذا بقيت الدوافع الفطرية تحرّك وجود الفكاهة وشيوعها واستعملاتها، بينما هناك على الدوام أثر فسلجي إيجابي مترافق بها؟. إذ يبدو أنها تنتقل عبر الأجيال، سواء كان هناك فهمٌ لأهميتها، أو أنها جزء من الفطرة ومكمّلة لاستخدام الحواس.

لنفترض أن مقولة (تفاحة واحدة في اليوم، ستُغني عن زيارة الطبيب) هي مقولة صحيحة. ولنفترض بأننا كلّنا نتناول التفاح يوميًّا وننتعش به.

فإننا عندها لن نحتاج ـ ولن تدخل في باب الضرورات الفطرية ـ أن تكون هناك حاسة أو مورثة تحثّنا على تناول التفاح. إذ أن التناقل الثقافي سيكون كافياً لنجعل من أنفسنا مُستفيدين من هذه التجربة المُثبتة.

وإذا كانت الفكاهة، ومعها الضحك، قد تم التكيف لأجل الإستفادة من فوائدهما. عندها وجب أن تحتوي على سمة من سمات أسباب «الوجود الأسمى/ Raison d'etre»، وهو ما سيخدم كوظيفة سبق لها أن مرّت بمراحل تكيفية. ووجب أن تكون هناك بصمات لهذا التكيّف الذي حدث داخل جيناتنا.

لقد تلمّس كيث شبيغل بعضاً من هذه الآثار الفطرية وصاغ لها شكلاً نظريًّا حواسِّيًّا. وكانت لها مكونات عاطفية فاعلة. ومن بين هذه المكونات، فرضية أن الفكاهة (من وجهة نظر معيارية تتعلق بقدرتها على إثارة السخرية)، يمكن أن تكون وسيلة تصحيحية لمواجهة الإحباط العاطفي والخمول بالمشاعر. وهناك نظريات تختلف في درجة معقوليتها تقترح «إن الفكاهة والضّحك ليس سوى بعضٍ من بواقي تكيّف سلوكي قديم»، كما عبر عن ذلك غولدشتاين وماكغي. مثلها، الفرضية التي تقول إن الفكاهة والضحك كانت تستعمل كإشارة تطمينية إلى المجاميع بأن المُحيط أصبح آمناً. أي أنها كانت شكلاً من أشكال التعبير التي تسبق ظهور اللغة.

أو إنها من بين بواقي سلوكيات الصراع والتقاتل. وكل هذه التفسيرات تطرح السؤال الأهم، وهو؛ ما هو الشيء الذي تمكنت الفكاهة والضحك من منحه لأسلافنا؟. لكن المزيد من الدراسة والفحص ستعمل على فتح المزيد من الدلائل أمام التلمّس البحثي.

إن كل هذه النظريات التي حاولت الإعتماد على البايولوجيا لتفسير الفكاهة، قد اعتمدت على التعامل مع الضحك على أنه «وسيلة تواصلية لإيصال مشاعر الفكاهة». وكل واحدة من هذه النظريات تحاول بناء مركز من مراكز الإتصال المعتمد على فهم المتلقي لرسالة الضحك وما يقف خلفها من علائم فكاهية. أي إن الأساس هو ما سيفهمه المتلقي للضحك من دلائل الفكاهة التي تقف خلف محاولة الإضحاك.

لكن الأمر في الواقع غير ذلك، إذ نعود إلى ما نص عليه بروفاين، ونحن نتفق معه، من أن الضحك والفكاهة أمران غير متلازمين بالضرورة، بخلاف ما كان يعتقد في السابق.

4 ـ 2. نظريّات اللهو.

عندما كنتُ صغيراً، كنّا فقراء إلى درجة كبيرة. ولم يكن لدينا أي شيء. ولولا أنني وُلدتُ ذكراً، لما كان لديّ أي شيء ألهو به.

Dickie Scruggs, quoted by Peter Boyer in «The Bribe,» New Yorker, May 19, 2008 -

نلاحظ أن الفكاهة يمكن أن تكون مؤثرة. إلّا أن الطرفة/ النكتة قد لا تكون كذلك. لقد اعتمدنا في كتابنا هذا على أن لا نتفادى أي نوع من النكات، بما فيها تلك النكات السمجة أو الغريبة أو المقززة.

إن نظريات اللهو، أو تفسير الفكاهة باللهو، هي فرع من فروع النظريات البايولوجية التي تصدّت لتفسير حدوث الفكاهة ووجودها. وأولى هذه

النصوص التي تحدثت بهذا الشأن كانت قد كُتبت من قبل تشارلز داروين نفسه الذي قال: «إن الفكاهة هي دغدغة للدماغ».

أما دراسات إيرنيست هيكر / Hecker، فقد اقترحت وجودَ علاقةٍ تَماثل أو تَطابق في طريقة الأثر، بين ميكانيزما الدغدغة، وبين الفكاهة بالنسبة للدماغ. حتى بات يعرف هذا الطرح، بأنه نموذج (داروين ـ هيكر).

وقد وجدت هذه الأطروحة دعماً تجريبيًّا في الآونة الأخيرة ربما يكون هو الأول، إذ أكدت أبحاث فرايدلند ولوفتس/ Fridlund & Loftis،(1990)، وجود علاقة مهمة وربط مباشر بين الذين أفادوا بأنهم تعرّضوا إلى الدغدغة ممن ثبتت قابليتهم على هذا الأمر من جهة، وبين تصريحهم بميلهم نحو الضحك. كما بيّنت دراساتهم بأن الأفراد الذين يُبدون علامات الضحك أكثر من غيرهم إستجابة للدغدغة، ستكون استجابتهم بالضحك أكثر اتجاه الكوميديا المرئية أو المسموعة. لكن كل هذه الدراسات، عملت على قياس التعبير، وليس قياس الطّرب والمَرَح الناتج. إذ أن (التعبير) عن الفَرح والسرور بالفكاهة بوسيلة الضحك هي مسألة متفاوتة بين الأفراد. ولا توجد ضرورة أن يكون التفاوت في الاستجابة كذلك. ببساطة، هناك من تعوّد على الضحك بغزارة، وهناك من تعوّد على إخفاء أو إحباط تعبيراته المُستجيبة للفكاهة. ولهذا نقول بأن هذه الدراسات لم تنتهِ إلى استنتاجات بقدر ما انتهت إلى ملاحظات دقيقة. أما دراسات هاريس وكريستنفيلد، فقد وجدت أدلةً قوية تتضاد مع أطروحة هيكر ـ داروين. وسنتعرّض لها لاحقاً عندما نتعمق في تفسير آليات الدغدغة.

وكانت هناك أيضاً دراسات غريفس وويلسون/ Gervais and Wilson، التي عضّدت هذه النظرية. وجادلا بأن كلا المؤثرين؛ الدغدغة والفكاهة

سيذهبان إلى إنتاج الضحك الدوشيني. وهذا ما اعتبراه ربطاً «لا يقبل الشك»، بين الضحك الناتج عن الفكاهة، وبين الدغدغة والتسلية واللهو بمتابعة السقطات أو العثرات. وقد ربطاها حتى بضحك الأطفال الرضّع الناتج من إخفاء الوجه والمفاجأة.

وقد أشارا الى أن أنواعاً من القردة كانت تبدي أصواتاً شبيهة بالضحك عند ممارستها الدغدغة، وأنها تحاول أن تدغدغ بعضها البعض في كثير من الأوقات. وبأخذ هذه الأمور بنظر الاعتبار، فإن هناك احتمالًا قويًا على أن يكون للضحك المستجيب للدغدغة جذورٌ تمتد بصلةٍ إلى التطوّر النسيجي. وأن تكون هذه الصلة مُبكرة ومتقدمة على باقي الأغراض التي خدمها الضحك، بما في ذلك الأغراض التي تخدمها الفكاهة الحديثة. هذا ما أكده بروفاين من جانبه.

إن نظريات اللهو واللعب، هي الأخرى ركّزت على الربط بين الضحك واللهو، ولم تركز على الربط بين (الفكاهة) واللهو. على الرغم من أن الدراسات المعاصرة قد أشارت إلى وجود ربطٍ بين الضحك الناتج عن الفكاهة، والضحك الناتج عن الدغدغة. وهو ما يشكل جسراً طبيعيًا في المفاهيم بين مفهومي؛ اللهو، والفكاهة.

ولا يوجد اقتراح بين هذه النظريات أن تكون الفكاهة هي عين اللهو، فلا تطابق في المعنيين. وكل ما خلصت له هذه النظريات هو أن تكون الفكاهة نتاجاً من نتاجات اللهو، وبالتالي يكون هناك تشابه في أشكال التعبير عنهما.

وعلى سبيل المثال، فقد طرح غريفس وجهة نظر تقول إن الضحك

الدوشيني عَملَ على تعزيز اللهو الإجتماعي خلال فترة البدايات المبكّرة لحياة ذوات القدمين. مثلما كانت هناك «طبقة عامة من المُفارقات غير الجادة». وهذه تعكس استنتاجاً أن هناك أوقاتاً من الأمن مرّت على معيشة الكائن الإنساني. وهذه الأوقات خدمت كمحفز للكائن البشري أن يمارس الضحك. وقد ترسبت في ذاكرته، وارتبطت بمشاعره الهانئة عن أوقات الأمن والرفاه والوفرة في الطعام.

وإن تلك «المفارقات غير الجادة»، قد تطوّرت لتكون ما بات يعرف بالفكاهة.

إن هذه فرضية مهمة وجاذبة للإهتمام، لكن ليس من الواضح كيف أن الأمن والرفاه، جلب أو تعلّق بـ«المفارقات غير الجادة» لتكون تعبيراً إستذكاريًا عنها.

قد يخطر على البال أن الهوميند، وعبر ممارسة اللهو والضحك كانوا سيقعون عرضة بشكل أكبر للمفترسات والأخطار، وربما سيكشفون أنفسهم عبر الضحك والممارسات ذات الصوت العالي. أي إنهم سيولون انتباهً أقلَّ لأعدائهم ولخطر الإفتراس.

في الحقيقة يتوجب أن يكون هناك غرض من الضحك أو اللهو أكبر وأهم من مجرّد توصيف حالة في الذاكرة تذكر بأوقات الطمأنينة النسبية. نقول هذا، رغم أن الربط بين الدغدغة، والفكاهة، والضحك، الذي عمل عليه غريفس يبقى صعباً على النقض، ويحتاج إلى أن يؤخذ بالحسبان ضمن أي سياق نظري يتعرّض لظاهرة الفكاهة.

إن هناك احتمال أن تكون الفكاهة قد تطوّرت لأجل خدمة أغراض أخرى،

وقد جرت عليها تعديلات وتحويرات لتناسب النواحي التي تخدم أغراضاً خاصة أخرى لدى مجتمعات القرد الأعلى مثلما تخدم سلوكهم في اللهو.

وربما كما قال بذلك غريفسون إنها تطوّرت لتصف حالة اللاعدوان خلال اللهو، ولتمييزها من الأفعال العدائية خلال سلوك اللهو واللعب وحتى الدغدغة وطمأنة المتفرّجين أن لا شيء جادًّا يحصل.

إن نظريات اللهو التي تصدّت لتفسير الفكاهة تكشف لنا كم أننا بحاجة إلى فهم المسار التطوّري للفكاهة. وكيف حدث وأن أصبح الضحكُ تعبيراً عن الفكاهة؟. وما هي بالضبط العلاقة بين الدغدغة والفكاهة؟. كل هذه المواضيع يتوجب أن تؤخذ بالحسبان لأجل إنتاج نظرية متكاملة تتحدث عن الفكاهة.

4 ـ 3. نظرية التفوق والاستعلاء.

أحدهم من تكساس: «من أين أنت؟».

خريج هارفارد: «أتيت من مكان، لا ننهي فيه عباراتنا بحروف الجر».

أحدهم من تكساس: «حسناً، من أين أنت..أيها الأبله!».

إن النظريات التي تتحدث في التفوّق والاستعلاء، في تفسير الفكاهة، كانت قد أثيرت لأول مرّة من قبل توماس هوبز/ Hobbes وتعريفه الشهير للضحك على أنه «افتخارٌ مفاجئ»، أو إنتصار يأتي من إدراكنا بأننا نحوز مرتبة في المعرفة والوعي أكبر وأعلى شأناً من تلك التي يحوزها غيرنا. أن نكون قد أدركنا جوهر أو قعر النكتة أو حبكتها الحقيقية الكامنة.

يأتي دور الفكاهة في الإشارة إلى المشاكل وتمييزها، أو بتعيين الأخطاء وإدراكها بطريقة تجعلنا متفوقين على الفريق الذي سيُهان خلال أحدوثة النكتة (الفريق/ الجهة التي ستبدو بدور الأحمق في نهاية النكتة). إننا سنتبنى الموقف الأقوى، وسنكون ضاحكين (بسبب الفكاهة التي كشفناها في الآخرين)، من مواقفهم المهينة أو الغبية أو الواقعة في مصيدة المُفارقة والتناقض. والتي نكون نحن بدورنا قد عرفنا كنهها وأدركناها ونأينا بأنفسنا أن نكون معهم في نفس الخندق عبر تعبيرنا بالضحك. وهو ما سيفرّقنا عنهم. إنه بمثابة إعلان بأننا لسنا من هؤلاء.

هوبز يخبرنا أن الهدف من الفكاهة، قد يكون في بعض الأحيان نسخة مُبكّرة منّا نحن أنفسنا. وكذلك أرسطو أيضاً يدعم نظرية مماثلة. إذ يقول إن الفكاهة هي اعتراف بالفشل، أو إدراك لجُزء من القبح عبر مقارنةٍ ضمنيةٍ مُضمرةٍ بين الحالة المثالية النبيلة للأشخاص أو الأشياء، والحالة الرديئة[1].

وبالتأكيد فإن كمًّا كبيراً من النكات والمفارقات الطريفة يمكن إدراجها تحت هذا العنوان. فإن هناك (عامة)، قد ينالون سخريتنا، وقد نضحك منهم. فالعوام هُم من يمكن أن نضحك منهم. وهناك استعلاء مُضمر ينطوي على تنصُّلٍ من المسؤولية اتجاه من نسخر منهم، أو نسخر «بوجودهم» في قلب القصّة الساخرة. هنا، تبرز تبريرات من مثال؛ أنا لا

(1) يقول إفلاطون إن الإنسان الكريم لا يعرف الجد إلّا بالهزل، وإنه من الحَسن أن يشهد مناظر الهزل من العبيد والأجراء المسخرين ولا ينغمس فيها بنفسه. ويرى أن الضحك مرتبط بالجهل. أما أرسطو فقد عدَّ المُضحك شيئاً أو شخصاً فهو ضرب من الدميم أو المشوّه. وكلا الفيلسوفين قد فهما المأساة والملهاة ـ الكوميديا والتراجيديا ـ على أنها نوع من التقليد والمحاكاة ـ المترجم.

أضحك منك، أنا أضحك «معك»، وبوجودك. أو إنني أضحك مع نفسي، أو من الموقف الذي حصل.

إن متعة التفوّق على الخصم في منافسة ما، عادة ما يجري التعبير عنها بواسطة ضحكات مُنتصرة. إننا نضحك (نسخر) من سلوك السكارى والحمقى. وقد نضحك نفس الضحكة بسبب مرأى أو مشهد شخص يتصرف بغباء، أو ربما شخص عليل فاقد القدرة على أداء حركة معيّنة. وغني عن الذكر هنا أن أصحاب العاهات، أو أصحاب الإعاقات، أو قصار القامة يجري توظيفهم إلى جانب المهرّجين لذات الغرض.

الإستهزاء الساخر الذي قد نصادف نوعيته في ساحات المدارس، هو سلوك له ذات المنبع والصفات. إن الضحك، ضمن النسق الإجتماعي، ينطوي في العادة على إشارة إلى عضوية الضاحكين (بشكل ما)، في مجموعة تعدُّ نفسها أرقى من المجموعة الأخرى التي يصادف أن تكون هي موضوع النكتة والسخرية والإضحاك. وهذه المجموعة الثانية ستشخصها الظروف التي نشأت فيها الفكاهة الظرفية على أنها «أدنى» مرتبة من المجموعة الضاحكة.

صحيح أن هذه الحال والترتيب يمنح الضاحكين مشاعر تطمينية، وقد تكون مشاعر مُمتعة في التفوّق. لكننا مازلنا بعيدين عن تسبيب وجود الفكاهة وإرجاعها إلى هذا الهدف، أن يكون المستمتع بها عضواً في حالة إستعلائية، أو يمارس متعة التفوّق.

وإليكم مثلاً عن طرفة تتضمن شواهد لنظرية الإستعلاء والتفوّق:

«كان هناك أربعة جرّاحين يتناولون قهوتهم خلال الإستراحة. قال

الأول: أظن أن إجراء العمليات للمُحاسبين هي أسهل العمليات، أنت تفتح جسد المريض في العملية وستجد كل شيء مرقماً». بينما قال الجرّاح الثاني: «لا، أظن إجراء عملية لأمين مكتبة سيكون هو الأسهل، أنت تفتح العملية وستجد كل شيء مرتباً بطريقة أبجدية». فيما قال الثالث: «أنا أفضّل أن أجري عمليات للكهربائيين. أنت تفتح العملية، وستجد كل شيء منسقاً حسب ألوان الأسلاك». أما الجرّاح الرابع فقال: «أنا أفضّل أن أجري عمليات للمُحامين، فهم بلا قلوب، وهم بلا أمعاء (أي جُبناء)، وبلا شخصية (بلا جوهر في داخلهم)، ورؤوسهم ومؤخراتهم يمكن وضعها الواحدة مكان الأخرى».

إنّ التمعن المستفيض في نظرية الإستعلاء في الفكاهة، يجب أن يواجه السؤال المتعلق عن ماهيّة التكيف الأساسي الذي طرأ على حس الفكاهة لدينا، عبر تبني موقف إستعلائيٍّ في تصنيع الفكاهة. أي، ما الذي تغير تطوريًّا في مسار تطوّر حس الفكاهة، ومنطلقاتها، وأسباب نشوئها ودوافعها، وما الغرض الذي يقف وراءها، حتى وصلنا إلى أن نتبنى الموقف الإستعلائي في إلقاء النكتة والتعامل معها كمصدر للفكاهة؟.

*كانت هناك سمكتان ذهبيتان، وضعتا في إناء (Tank) من الماء سوية،

الأولى قالت للثانية: تولّي أنت توجيه المدفع الرشاش، بينما أتولى أنا القيادة.

في هذه النكتة نقطتان تحتاجان إلى إيضاح؛ الأولى أن كلمة (Tank)، التي تعني خزّاناً أو إناءً، فهي تعني أيضاً (دبابة).

النقطة الثانية، السمكة الذهبية المستخدمة في آنية الزينة، كانت دائماً

رمزاً من رموز الحماقة والغباء والبلاهة. حتى أن هذا اللفظ، (Goldfish)، يستخدم شعبيًا للإشارة إلى البلاهة.

لقد أشار ماكس إيستمان/ Max Eastman، في كتابه «مُتعة الضحك/ 1936»، إلى عدّة مواضع يمكن التأكيد فيها بأن الفكاهة تخلو من الاستهزاء تماماً. لكن هذه النظرية، أو الفرضية وجدت لها بالفعل أنصاراً كثر مع مرور السنوات، ولأسباب عديدة. إذ نجد أن تفسيراتها تغطي نسبة الأسئلة، ودفعت عدداً من منظِّري الحالات إلى حذو مسار هذه التفسيرات في ما كتبوا من مواضيع تناولت تفصيلات فكاهية بعينها. لكن ذلك جرى على حساب قوة الاقناع المتوفرة في هذه الأطاريح.

إن افتراض وجود قيمة مُحكّمة تقييمية مستبطنة في كل أنواع الفكاهة، هو افتراض يرجع إلى حقيقة وجود ميل تقييمي في كل مفصلٍ أو مبدأ من المفاهيم الحاكمة للفكاهة وطريقة عملها وتأثيرها. إن عمليةً تقييم شيء ما (مثلاً، على أنه F، أو G)، ينضوي ابتداءً على تقييم يجيب عن السؤال التالي: هل إن F، جيّد أو سيِّئ؟. وأن يتم هذا التقييم سواء كان البارامير المُقاس محسوساً أم ملموساً. ثم، أن نقرر، هل هو جيد أو سيِّئ بما يعنيه إلى الأغراض التي يرتجى أن يخدمها حصراً، فلا توجد جودة مطلقة أو سوء مطلق.

الميل التقييمي في الفكاهة يعني ببساطة أن هناك غرضًا، وأن قيمة الفكاهة سيجري تحديدها بمدى ما خدمته من أهداف هذا الغرض.

وعلاوة على وجود هذه الطبيعة التقييمية لهذه المعايير البارامترية،

فإن مفهوم الاستخفاف وتنزيل القيمة هو أمر موجود وشائع في الفكاهة، لكنه لا يكفي لوحده أن يكون غرضاً نهائيًا من الفكاهة نفسها. إننا لو بحثنا، فسنجد بسهولة حالات من التواصل الانساني تتضمن الكثير من أغراض الاستهزاء والاستعلاء، ولا تشتمل على استخدام الفكاهة وسيلة أو مساراً لها. كما إن ليس كل الأحكام التقييمية تنضوي على محاولةِ حطٍّ أو تسخيفٍ عبر استخدام الاستعلاء.

إن الضعف الأبرز الذي تعاني منه نظرية الاستعلاء في استخدام الفكاهة، هو إنها وبرغم كونها تفسر ظهورها في أنواع محددة من الصيغ الفكاهية إلّا أنها لا تفسر الميكانيكية التي تستعمل فيها الفكاهة وسيلة لإيصال هدفها. مرة أخرى، فإنها لا تعطي سبباً للأسباب وجودها ونشوئها. إنها تخبرنا (في الحقيقة)، بأننا قد نضحك حين نواجه موقفاً يجعلنا نشعر بالاستعلاء والفوقية، لكن ما الذي يجعلنا بالأصل نضحك؟، ولماذا؟. ولحساب أي غرض تطوّري؟.

إن هذه النظرية لا تمنحنا تفسيراً عن الفائدة المستحصلة من الوقوف في موقف استعلائي قوي للتعبير عن هذا الإستعلاء بالفكاهة. وهل يمكن أن يتسبب السؤال فيما لو وجد إجابة في تعريض الفرضية إلى خيانة في الأصل والمنطلق؟.

إلا يمكن أن تكون الفكاهة لا دخل لها على الإطلاق في هذا السلوك، وهي مجرّد وصفة مدفونة في نظامنا الحسّي نتيجة «حادثة مجمّدة»، قديمة، حسب تعبير البايولوجي البريطاني فرانسيس كريك/ Francis Crick[1]،

---

(1) عمل فرانسيس كريك (الحائز على جائزة نوبل في الطب/ 1962)، على تطوير

الذي يشير إلى المصادفات التاريخية التي تلازمنا كبواقٍ وتبقى موجودة بلا سبب محدد. إن إمكانية حدوث هذا الأمر هو مسألة منطقية غير متمنعة وواردة الحدوث. لكن يتحتم علينا هنا أن نسأل، لماذا يجب على مثل هذه الحوادث أن تكون لها بواقٍ في بعض الأنواع، بينما لا تتوافر لها مضادّات في أنواع أخرى؟، ولماذا لم يحدث إنتقاء مضاد لها أو انتخاب معاكس؟.

لو مشينا إلى آخر الطريق في تبني نظرية الإستعلاء لتفسير الفكاهة، فإن علينا أن نواجه سؤالاً عاجلاً أم آجلاً وهو: ما هو التكيّف الأساسي الذي طرأ على حسّنا الفكاهي، ولم توفِّره هذه النظرية كاملاً؟.

ولتبدأ مثل هذه النظريات بالاكتمال، يتعيّن عليها أن تفسّر التالي: 1ـ كيف يمكن لنا أن نقدّر شيئاً ما، أو شخصاً ما على أنه أقل منّا شأناً؟، وبأي طريقة سيجري هذا التقدير؟. 2 ـ كيف يمكن لنا أن نفرّق الحالات الفكاهية ضمن هذه القيم المعتمدة تمييزاً من القيم الأخرى التي ربما تكون موجودة وفاعلة أيضاً؟. 3 ـ أي الأهداف يجري خدمتها عبر هذا النوع من التواصل المستمتع بالتمييز؟. 4 ـ وأي هدف يُخدم عبر إيصال هذا التمييز بصيغة الضحك؟.

وإذا تمكنا من تطوير منظومة تمييزية مبنية على الضحك، أو إنها تعتمد وسائلية الضحك للتميز ضمن أدمغتنا، يتوجب علينا أن نسأل، أي غرض

طرق باستخدام الأشعة السينية، لتحييد البروتينات والببتايد في المستوى الجزيئي للخلية الحيّة، بطريقة مكّنت من كشف «رسائل» الشفرة المحملة في جزيئات DNA المرحّلة إلى السايتوبلازم. مثلما تمكن مع واتسون من عزل الجزيئات (بما فيها النيوكليوتيدات)، لربط السلاسل القصيرة في RNA، ضمن أحماض أمينية بعينها، وبالتالي فتح طريقة لفهم معنى نقل الرسائل المعلوماتية أدّت إلى تغيير جذري في مفاهيم التطوّر البايولوجي وميكانيكية عمله. ـ المترجم.

تناسقي أو يخدم الأصلح سيكون متوافراً لدينا؟. فللوهلة الأولى، يبدو أن امتلاك هذه الآلية سيكون أمراً باهظاً من ناحية العواطف وهدر الطاقة التواصلية. فضلاً عن أنه قد يغامر بالمخاطرة بتجريب «استيهام» استعلائي غير منتج، أي أنه لن يؤدي الغرض منه.

مع هذا، فما زال النظر إلى دوافع النظرية الاستعلائية يمثل دافعاً تفسيريًّا جيداً. إنها تذكرنا بأننا قد نعيش مشاعر الفكاهة والضحك، لكن بلا تلقائية. وقد تأتي هذه المشاعر بطريقة أوتوماتيكية. وهي تعيد إلى الأذهان بأن مشاعر الفكاهة قد تشتمل بالفعل على بُعد تنافسي واضح. لكن هناك اعتلال واضح فيما يمكن الحكم عليه من خلال نظرية الإستعلاء، إذ أنها تحاول أن تستهدف في الحكم على خطأ ما في قعر الفكاهة، أو أن تجعل استهداف هذا الخطأ هو الهدف المُبتغى كشفه. لكننا قد نجادل بالقول إن الخطأ إنما يكمن في دواخلنا نحن، ونحن نؤدي دور الباحث عن منفذ الإستعلاء. لهذا، يأتي ميلنا إلى تلمّس الفكاهة وتقفّيها ضمن أخطاء الآخرين، وكأنه عامل طفيلي دخيل على قدراتنا في تحرّي الفكاهة. فضلاً عن قدراتنا في نقل هذا الميل عبر الإستعانة بالآليات الخارجية تعبيراً بواسطة نظريات الإستعلاء. وهو ما سيكون له أسبابه الخاصة في الحدوث بكل تأكيد.

4 ـ 4. نظرية الإطلاق والإصدار.

* بالأمس، أقدمتُ على زلّة لسان فرويدية. كنتُ أتناول الطعام مع والدتي، وأردت أن أقول: «رجاءً، مرري لي صحن الزبدة»، إلّا أنها خرجت منّي بالشكل التالي: «أيّتها العاهرة!، لقد حطّمتِ حياتي!».

إن نظريات الإصدار والإطلاق (يمكن أن نشير لها بمصطلح «نظرية التعبير والتجسيد/ أو التعبير والتحرير» ـ المترجم)، تؤوّل الفكاهة على أنها شكل من أشكال الإراحة من شدّة الإستيقاظ والإثارة العصبية.

لقد تمكنت كيث ـ سبيجال/ Keith ـ Spiegel[1], من عزل جهود التحليل النفسي في نظرية الفكاهة عن منطوق نظريات الاصدار والإطلاق. مع ذلك، سنناقش كلا المسارين معاً.

وبشكل عام، فإن نظريات الإصدار والإطلاق (التعبيرية)، تدعي بأن الشد الناتج من الأفكار يمكن أن يتراكم. وعندما يجري تفريغ هذا الشد بشكل إيجابي في المشاعر، سيكون تعبيراً عن طريق وبواسطة مجموعة أخرى من المشاعر. وهنا ستنتقل الطاقة على شكل ضحك أو تتحول إلى ضحك.

كانت نسخة هربرت سبينسر/ Herbert Spencer من هذه النظرية، التي كتب عنها عام 1860، تتحدث عن وجود لطاقة عصبية بلا طائل، لكنها تحتاج إلى أن تخرج. أما نسخة فرويد التي شرحتها كيث ـ سبيجال عام 1972، فقد كانت تسير على مبدأ أن هناك أحداثاً بعينها توجد طاقة جنسية مقموعة، أو تستصحب معها طاقة عدوانية. وعندما يتطوّر هذا الشد فينتهي إلى مسار ما (فجائيًّا أو غير متوقّع)، وبدلاً من أن يعاني الظهور التدريجي، هنا سيحدث الاصدار أو التحرير (التعبيري) العصبي للطاقة. وتحدث حالة من الإراحة على شكل فكاهة.

---

(1) لقد وفرت كيث ـ سبيجال في أعمالها تصنيفاً آخر، وأشارت له على أنه «نظرية إزدواجية». والتي تفترض أن الفكاهة تنبع من تعارض وتنازع بين اثنين أو أكثر من أنواع المشاعر غير المتوافقة فيما بينها. وهو ما نراه على أنه حالة خاصة من نظرية التعارض والتناقض في الفكاهة. وهو ما سيتبع شرحه ضمن مسار التعارض بين أنواع المشاعر ـ المؤلفون.

إن نظرية الإصدار والإطلاق/ التحرير، خسرت الكثير من شعبيتها لأسباب عدّة. أولاً، وفي عصر المعلوماتية، فإن مجاز التعبير في الطاقة الفيزيائية، والشّد والضغط الذي يتراكم حين يتعبّأ هذا «الكازولين» الإفتراضي في المواسير والخزانات المُتخيّلة للذهن، فهو يبدو تعبيريًّا نمطيًّا غير نافع عفا عليه الزمن، ولم تعد هذه الكلمات ذات دلالة منتجة في لغة القياسات السريرية الكمّية.

ولماذا سيتراكم لدى الشخص نمط خاص من الطاقة المتخزّنة؟، وأين يمكن أن يخزنها؟. أليس الأولى تبديدها في المصاف الأول؟. ومع ازدياد معدلات التوتر العصبي المرصود، وتحوّله إلى حالة غير متوازنة، سيكون هناك تقدير واضح للحالة المضادة الساعية إلى تحقيق التوازن. ربما باستخدام عدد من الأنظمة المؤثرة المتوافرة. وهنا، فإن عدّة شُعب من هذه النظريات الجذابة يمكن أن يعاد تأهيلها، وتوضع بطريقة يمكن الإستفادة من فهمها. الإراحة مما سنبقى نسمّيه بأنه «شد» عصبي، (رغم استبعاد الفرضيّات التي أطلقت عليه هذه الصفة التشبيهية بالبداية). كل هذا سيكون بمثابة؛ «ظاهرة فيزيائية نفسية صامتة». وسينتج لدينا تباين واضح في الفعل، يتراوح ما بين الإراحة أو التعبير عن الشد. وكل تفاصيل هذا الفعل ستكون منسجمة مع معطيات ما متوفر في النظرية. لكن فقط لو تمكنّا من صياغة قصة تعبيرية تكون مستحقة لتحريك هذا الفضاء وإنتاج العواقب التي نبتغيها كوسيلة تفسيرية[1].

---

(1) لقد تمكن هورن/ Huron(2006)، من صياغة مثل هذه العلاقة، في عمله الذي خصصه لدراسة «التقابلية»، في نمذجته لتمديد التوقعات. والتي طبقها فعلاً على الفكاهة والموسيقى. وسنعرض بعضاً مما طرح لاحقاً ـ المؤلفون.

وعلى الرغم من أن الفكاهة تنضوي على مواضيع مشحونة بالعواطف، وهي واضحة الظهور والإبانة في نظرية الإصدار والإطلاق (التعبيرية)، إلّا أن أنواعاً أخرى من الفكاهة (مثل الفكاهة المنطقية)، لن يكون من السهل تفسيرها على ضوء هذه النظرية. على سبيل المثال، فإن مثل هذه النماذج من التلاعب اللفظي والقواعدي اللغوي، لن يكون ببساطة، لا ذا محركٍ عدائي ولا ذا دافع من الشد الجنسي حتى يلتحق بتفسيرات نظرية الإصدار والإطلاق:

* وفقاً لفرويد، فما الذي يقع بين الجنس والخوف؟.!... (Fünf)، رقم خمسة باللغة الألمانية القديمة.
* الإيميل، هو الوسيط السعيد بين النساء والرجال (ميل ـ فيميل)
* وجه الطفل يمكن أن يقول كل شيء، خاصة إن كان الفم جزءاً من الوجه!.

إن واحدة من الملامح التي تجعل نظرية الأصدار جاذبة، هي ميلها إلى تفسير المحتوى الفكاهي ضمن سياق جنسي أو عدواني، بعيداً عن التفسير الإستعلائي الذي لا يتلاءم دائماً مع وضعيات صيغوية للفكاهة بعينها. من الصعب جداً أن نتخيل أن كل أهداف الفكاهة تنحصر في الإستعلاء على موضوع ما أو على الشخص واقع في تأثيرها وموضوعها.

وإنها أيضاً تعطي معنى لاستجابتنا العاطفية الطبيعية التي تصاغ على شكل فكاهة، حتى قبل أن نصل إلى تفسير متكامل للآلية التي عملت بها مُخرجات هذه الفكاهة. وهي تمنح تصديقاً لمظنّة الإراحة التي يعبّر عنها بتحرير الضحك تعبيراً عن الفكاهة.

وهي على الأقل، تحاول أن تضع حساباً وثقلاً معنويًّا لمبدأ صرف الطاقة وإزاحة التوتر عن طريق إطلاق الضحك وتحويله من رغبة إلى ممارسة فيزيائية. وهي على النقيض من باقي النظريّات، تحاول أن تعوّل أهمية صرفياتنا في الطاقة بهذا المجال. حيث أن هناك حقيقة بايلوجية تفيد بأن صرف الطاقة عن هذا المنفذ إنما يحتاج إلى سبب. فالنظرية هذه تتبنى (وإن لم يكن تبنِّياً متكاملاً من ناحية التفسير)، فهي تتبنى وجود هذا السبب. وحتى لو كان هذا السبب قد بطل وجوده، أو إنه انتهى إلى غير تعريف محدد.

4 ـ 5. نظريّات التعارض، (نظرية القرارات المتعارضة).

إن الفكاهة هي عبارة عن منطق جُنَّ جُنونُه.

غروشو ماركس ـ كوميديان أميركي.

من بين النظريات السائرة حاليًّا هي نظرية التعارض، وتعارض القرارات، (نظرية IR). وكما يكشف لنا اسمها، فإن هذه النظرية تقول إن الفكاهة تحدث كلّما حدث تناقض مُتعارض، سيجدُ لنفسه حلًّا فيما بعد. وضع جيري سولس/ Jerry Suls، نموذجه المبسّط لمسار فهم الفكاهة والدعابة. وربما يكون من المفيد أن نلقي نظرة سريعة على النكتة التالية لفهم نموذجها:

*قُدّم أوريلي إلى المحاكمة بتهمة السطو المسلّح، وحين خرجت هيأة المُحلّفين لتنطق بالحكم، وقال الناطق باسمها: «غير مذنب». هنا صاح أوريلي: «رائع!،..هل أستطيع أن أحتفظ لنفسي الآن بالمال؟!».

أو أن نلاحظ المخطط المبسّط التالي:

1 ـ (جسم النكتة أو الأحدوثة التي نتوقع أن تستولد الدعابة والفكاهة).

هذه ستأخذنا إلى التالي:

2 ـ (إننا سنتوقع مُخرَجاً معيّناً ينتج منها).

وهذه ستأخذنا إلى مَعين سؤال مهم:

3 ـ (هل كانت المُخرَجات مثلما توقّعنا؟).

هنا، سنواجه احتمالين؛ الأول «نعم، مثلما توقعنا»أ والثاني»لا، ليس مثلما توقّعنا».

4 ـ في الإحتمال الأول، لن تكون هناك دعابة فاعلة ولا فكاهة صادرة.

5 ـ في الإحتمال الثاني، سنكون أمام حالة» مفاجأة!».

المفاجأة ستأخذنا إلى التالي:

6 ـ عليك أن تجد علاقة أو قاعدة تأخذك إلى شيء تستنتجه من المفاجأة. ويُبنى على ما سبق من معطيات أمامك.

ستكون هنا أمام احتمالين؛ الأول: «أن تجد هذه القاعدة الشاذة التي كانت غائبة». والثاني؛ «أن لا تجد هذه القاعدة».

7 ـ إذا وجدت القاعدة، فالنتيجة إنك»ستضحك!» وإذا لم تجد هذه القاعدة فإنك ستذهب إلى»حيرة»، لا علاقة لها بآلية عمل الفكاهة والدعابة.

لقد فسر سولس الفكاهة على أنها تناقض في القرار، أبداه المتّهم

أوريلي بغرابة وباستثنائية غير متوقعة، ردّاً على إعلان هيأة المحلّفين بأنه «غير مذنب». رغم أن وقفة سريعة وعاجلة قد تظهر للحظات أن ردَّ أوريلي كان ليبدو معقولاً. هذا المفهوم الظاهر في المخطط، أو في نموذج نكتة المتهم أوريلي، يبدو أن له تطبيقات عدّة، مثلما له أوجه تناقض تشتتُ من قدرته الإقناعية على وضع تصور شامل.

الأهم والمركزي في هذه النظرية، هي أنها تخبرنا أن «التناقض/ الإنفصام/ التخالف»، هو الذي يخلق انبعاث الفكاهة والدُّعابة. أكثر من ذلك، إنها قد تشير إلى أي البواعث أو المحفّزات يمكن أن تكون أكثر فكاهية من غيرها. لكن هذا لا يمنح النظرية قوّة تفسيرية، وهو في وجه ما، ليس أكثر من استطالة تعبيرية. أي إنه يحمّلها المزيد من الصفات الوصفية، بدلاً من رسم بداية للحلول والفهم الشامل.

ما زلنا بحاجة إلى نظرية تتحدث عن «لماذا»، و«كيف»، تعمل الأشياء والأدوار. ما الذي يجعل التناقض بالأصل يحمل إيحاء الدعابة والطرافة؟ ما الذي يجعل التناقض يتضمن المفارقة في معناه وعمله؟. يتوفر لدينا طيف واسع من التفسيرات التي يحملها التناقض والإنفصام، بما يفسر نشوء الميل إلى الفكاهة اللاحقة، إلا أنها تفسيرات لا تتقارب مع مفهوم الربط بين (الفكاهي) والمتناقض، بل إنها لا تسير قُدماً على طريق شرح علّة وجود الفكاهة وبزوغ الطرافة.

واحدة أخرى من مشاكل هذه النظرية، هي أن المنظّرين فيها والذين كتبوا ضمن سياقها لم يتفقوا على توحيد معنوي أو دلالي لمعنى التناقض والإنفصام، والذي يفترض أن يكون المحرّك لها. كلّهم انتبهوا إلى ربط ظهور الفكاهة بالإنفصام والتناقض، لكنهم لم يحددوا الفوارق الحقيقية

بين كل نوع من أنواع الإنفصام وتعريفه، وعلاقته بالتناقض الموصوف كمحيط سائل لنشوء الفكاهة التي يميزونها. كانت النصوص التي استعملت الكلمات التي تصف التناقض تنضوي على شيء غير قليل من الغموض، والتداخل في المعاني الدلالية. أو أن تسوّق زوجاً من المعاني لا يمكن التفريق عمليًا بينهما (بمعنى أنها لا تفيد في دعم الفهم والمعنى). بل إن أكثر جملة تكرر في أعمال المنظّرين الذين كتبوا في نظرية التناقض والمفارقة التي تنتجها هي جملة؛ «بعض نواحي عدم المواءمة والتناقض جرى تضمينها».

إدعى كل من أتاردو/ Attardo، وراسكن/ Raskin، وهما من الذين اشتغلوا في إطار المفهوم الدلالي للسرد الفكاهي والتناقض، أن المعنى يظهر جليًا في حقيقة الوضوح الذي يجيء عليه التناقض وتظهر به المفارقة ضمن كميّة متنوعة من السرديات. وهذه الأخيرة هي التي تمثّل نشوء الطرافة وانطلاق تأثيرها الفكاهي. أي، كلّما كان التناقض واضحاً والمفارقة بائنة، سهل التمييز، كان معنى الفكاهة أقوى طرحاً.

لقد قدّم راسكن عمله في هذا التيار ضمن كتابه «الميكانيكيات الدلالية للفكاهة/ Semantic mechanisms of humor». وفيه اختصر فكرة حسنة التكثيف، وهي إن»نصًا ما يمكن عدّه نصًا حاملاً للطرفة المفردة، إذا احتوى فعليًا على التالي:

أ ـ أن يكون النص متكاملاً، جزئيًا أو كلّيًا، ومتوافقاً مع نصّين آخرين مختلفين.

ب ـ أن يأتي النصّان (الآخران)، متناقضين ومُتعاكسين، بوعي سبق أن جرى التعارف عليه. هنا، يصح القول بأن النصّين اللذين توافق معهما

النص الأصلي، الحامل المفترض للطرفة المفردة، يصح أن نصفهما بالتداخل. وأن الشروط المذكورة التي سبق أن وصفت، يمكن أن نقول عنها أنها تحقق معنى الفكاهة المحمّلة على النص الطريف، ويصح تعريفه بها.

ربما يقترب ما كتبه راسكن من الفكرة المبسّطة التي تحدّث عنها فرويد بالقول؛ إن المزاح هو مجرّد تلاعب بالأفكار. وإن التعريف المفضل للطُرفة مضى طويلاً بالقول هو محاولة إيجاد متشابه بين الأشياء التي تتشابه. وهذا بالعموم، يأتي متفقاً مع افتراض التناقض وما يلعبه من دور يشير في النهاية إلى حدوث الفكاهة الناتجة عن وجود مفارقة.

لقد تحدّث إيمانويل كانت في هذا، ضمن أولى تسليمات نظرية التناقض التي تقارب الفكاهة. ففي كتابه «نقد مملكة الحكم/ 1790»، كتب يقول: «من بين كل الأشياء التي يمكن أن تثير الضحك التشنّجي، وجب أن يكون هناك شيء غامض (شيء يجده الفهم غير مُرضٍ). الضحك سيكون مؤثراً ينبع من الإنتقال الآني للتوقعات إلى أن تصير لا شيء».

ولإظهار هذه التوقعات وطبيعتها، يورد كانت طُرفة عن رجل هندي يرى زجاجة من البيرة الفوّاقة الطازجة، ويصف دهشته.

وعندما يسأله رجل إنكليزي عن طبيعة دهشته وأسبابها، قال الهندي إن مصدر دهشته لا يعود إلى طريقة تدفّق البيرة خارجة من الزجاجة، إنما هو يتعجّب من الطريقة التي انحشرت فيها أصلاً داخل الزجاجة.

في طرفة إيمانويل كانت، نقف أمام توقّع. وهو نفس التوقّع الذي اعترى الرجل الإنكليزي وهو يستمع الى إندهاش الرجل الهندي. وهنا

الرجل الهندي يفاجئنا من حيث لا نجد أيّة مفاجأة في خروج الفواق من الزجاجة، بينما هو انعقد مندهشاً عند السبب الذي جعل البيرة في الأصل داخل الزجاجة. كانت توقعاتنا خاطئة (أو توقّعات الرجل الإنكليزي بصورة أكثر دقّة).

وفي المقابل، فقد منحنا الرجل الهندي شعوراً بالتحوّل الآني لتوقعاتنا إلى لا شيء. ولم يعد لدينا الدافع أن نتوقع شيئاً مماثلاً قبل أن يعبر عن دهشته. ربما يمكن الحديث أكثر في متن هذه القصة، لكن كانت أوجز النقطة بوضوح إلى غاية الآن.

لم يقفز إيمانويل كانت بنموذجه إلى أكثر من الإستنتاج والتدليل على أن التوقعات يمكن أن تتلاشى وتنتج مفارقة وتناقضًا بين ما سَبق الظن بأننا سنسمعه، وما سمعناه بالفعل، ونتجت الفكاهة.

أما شوبنهاور/ Schopenhauer(1969)، فقد توسع قليلاً في شرح هذا المعنى ضمن هذه النظرية. حيث بيّن ببساطة، أن مثال إيمانويل كانت وقع تحت وطأة مفهوم عملية التفنيد بالأدلّة. وهي أدلة تذوب وتضمحل، لكنها بعد كل شيء ليست فكاهية. وقد يكون شوبنهاور مُحقاً. وقد يكون نموذج كانت بحاجة إلى المزيد من التأصيل، لكن ما زال لدينا الكثير من الأسس الموضوعية حين نتحدث عن «توقّعات».

لقد أصبح مثال شوبنهاور أساساً للكثير من الأدبيات والتنظيرات التي تناولت هذا الشق من المقاربة لنظريات الفكاهة. رغم أننا نشاهد في أحدث ما كُتب ضمن سياق كانت، أن هناك إهمالاً لبعض التفاصيل التي سبق أن تحدّث عنها شوبنهاور.

لقد بدأ شوبنهاور نقاشه بأن حدد بشكل أكثر دقّة ماهيّة المعنى المقصود من التناقض والإنفصام المعني في متن النظرية. «إن نظريتي عن مُثيرات السُّخرية، تعتمد كذلك على التناقض والتضارب الذي نجده مشدوداً ومتوافراً بين (إظهار التوقّعات)، و(خلاصة التمثُلات التي تكون متاحة)».

يوضح شوبنهاور التناقض والإنفصام هنا، أنه يجب أن يتوفر بين تمثّل شاخصٍ وحاضرٍ أصلاً في الذهن؛ (وهو ما يعبّر عنه في بعض الأحيان بمصطلح؛ «المفهوم»)، وبين الأغراض الحقيقية الواقعية، (وهو ما يعني في الحقيقة توقّع الغرض أصلاً). وهنا تحدث المفارقة والتناقض إلى مدى يكون فيه المفهوم خاطئاً ويفلت عن مقصده، بينما يظهر التوقّع وكأنه قد تاه عن سبيل هدفه.

في الحقيقة، إنه نموذج قوي الإقناع في تفاصيل الحدوث. دعونا نكرر تلاوة تفاصيله لأجل مزيد من التثبت؛ إن الفكاهة والطرافة تحدث، عندما نتوقع شيئاً عن العالم لكن هذا الشيء يصحح فجأة مفاهيمنا مُسبقة التوقّع، ويكشف أنها كانت خاطئة. ويأتي شوبنهاور هنا ليضيف، بأن المَرَح والطَرافة ستحدث بما يتناسب طرديًّا مع مدى اكتشافنا لعمق خطأ ما كنّا بنيناه من توقّعات مُسبقة عن الحدث.

وقبل أن يمكن وضع هذه الصيغة الفلسفية ضمن أي إطار قابل للفحص والتجريب، فإن علينا أن نؤسس تأصيلاً وترتيباً نوعيًّا للمفاهيم الأساسية التي تعمل ضمن هذا الإطار، وهو ما سنتعرّض له لاحقاً.

إن نظرية التناقض والمفارقة والإنفصام، هي نظرية فعّالة. على الأقل، إنها يمكن لها أن تفسّر أكثر مما تفعل نظرية الإستعلاء. بل إنها تتعرض

بالتفسير لمُحثّ الدغدغة الفكرية التي سبق أن تحدثنا عنها، وتعطي تفسيرات مقبولة في هذا المجال.

الأهم من هذا، أن لا نظرية غيرها تعطينا إنطباعاً مترابطاً يربط في الأعماق بين الإحساس بالفكاهة، والمشاعر بعدم الجدوى.وربطها سوية عبر شعور موصل بين نواتج الضحك (كمؤشر للطرافة والفكاهة)، وبين الشعور بوجود اللامنطق. اللامنطق الفجائي الذي هو بالتأكيد جزء من ميكانيزما الفكاهة والطرافة التي نتلمّسها.

إن النقاشات الأساسية التي واجهتها نظرية التناقض، جاءت على شكل أمثلة داحضة نقيضة. وقدّم ألكسندر باين/ Alexander Bain[1]، جردة من الأمثلة التي قال إنها لا تثير دوافع السخرية بالرغم من إنطباق شروط نظرية التناقض بشأنها. والتي يفترض أن تؤدي إلى مناخ يحرّك السخرية والفكاهة.

يكتب ألكساندر باين فيقول:

(رجلٌ هرم ينوء بعبء ثقيل. خمسة أرغفة خبز وقطعتين من السَّمك تتوافران بشحّة واضحة. كل ما لا يتناسب في الوفرة والوجود. آلة لا نغم لها. بعوضة تلتصق على سطح حديث الدهان. هبوط الثلج في أيار. أرخميدس وهو يدرس الهندسة تحت قيد الحصار. وكل الأشياء غير المتناغمة، غير المتوافقة. ذئب بملابس الحملان. جمهور يأخذ

(1) ألكساندر باين/ (1903 ـ 1818).Alexander Bain. فيلسوف وأكاديمي اسكوتلندي. اختص بالرياضيات والعلوم الطبيعية وربطها بالحواس الشخصية. كتب في الحواس والثقافة التفاعلية الفردية. كما كتب في الأحاسيس العقلية والأخلاقية. وكتب «المشاعر والإرادة/ 1859». ـ المترجم.

بالقانون بأيديه في هيجان. وكل شيء في فوضى الطبيعة واضطرابها. جثّة مسجاة للصلاة تنتظر القادمين. وأي شيء من الذي يمكن أن نسميه غير طبيعي. كلُّها متناقضة، منفصمة تنوء بالتصارخ. تفضح الحزن، وتكشف الإختلاف، وتعرّي حقيقة الألم. وأشياء أخرى، إلّا أن تكون سبباً للمرح. (Bain 1875, p. 257).

وكما أشار بنكر/ Pinker (1997)، فإن علّة الحركة، ومرض الحراك هذا، يتأتى من التعارض الواضح بين ما تنتجه توقّعات نظام دهليزي معقد، حين تتضارب مع توقعات واضحة المعالم. وللوهلة الأولى، فالمرء يتوقع أنه حين ينفخ في مسار سفينة تتأرجح في عاصفة، فالأغلب أن نظام التوازن لن يستجيب. بينما في الحقيقة أن النظام الكلّي قد لا يتأثر إلا قليلاً وبطريقة لا يمكن أن تكون محسوسة لصاحب التوقع. والمشكلة ليس فيما توقع، إنما في قدرته على تقدير مفاعيل ونواتج ما توقعه.

وهنا، يكون التعاضد بين قوى التنافر التي لا تحقق التوقّعات، وبين ما هو متوقع أصلاً من الذهن المتربص، سيكون في حالة تضارب وانفصام. وربما سيكون قادحة فعّالة لفعل ينتهي حقيقة في إثارة الفكاهة. مع ذلك، وبالأخذ بكل هذا في نظر الإعتبار، يبدو لنا مستمراً الإستنتاج بأن الضحك الطبيعي يأتي كنتيجة متسقة لنواتج استيلاد الفكاهة. ولا غرابة في ظهورها لاحقاً. لكن، لماذا علينا أن «نستغرب» إذن إذا ما واجهنا شيئاً طريفاً سيؤدي بنا إلى الضحك؟. أليس هذا هو السياق المنطقي حتى ضمن مفهوم التضارب والإنفصام المعبّر عنه في النظرية؟. بل ولماذا على شيء ما أن يجعلنا نُصابُ بالطرافة بالأصل في بادئ الأشياء؟.

بعض من أمثلة باين يمكن لها أن تضعنا في سؤال وسياق يجعلنا

فعلاً نتعرّض للطرافة، بينما إننا إزاء نظام دهليزي معقّد من المعاني يترابط عبرالتناقض الظاهر، ومع ذلك سيدفعنا إلى الضحك تعبيراً عن وجود الفُكاهة، (لنفكر في مكان مُخصص للمَرَح). حينما تكون إحدى الآلات العازفة تنشّز في الصوت، النشاز والتناقض هذا سيبعث علينا نوعاً من الطرافة. السقوط غير المتوقع للثلج في أيار، قد يجعل أعيننا تنفتح على آخرها، في شعور من التناقض، وقد يمنحنا هذا بعضاً من شعور المرح.

إن باين على حق حين طرح أن ليس كل ما هو متناقض سيكون موشكاً مُخلصاً على أن يبعث الفكاهة، لكن نظرية التناقض ما زال فيها الكثير من أجل أن يلاحق كباعث ومولِّد حقيقي للطرافة المؤدية إلى الفكاهة والشعور بها بلا شك.

لقد افترض سولس توسعة جادة لنظرية التعارض والإنفصام، بحيث اقترح أن عليها ليس فقط أن تقدّم التناقض كمقدّمة لتقديم الفكاهة، إنما أن تسوقه بطريقة أن يكون قابلاً للحل بمنطق وعقلانية، حتى يكون هناك بالفعل فكاهة لاحقة. ووفقاً لنظرية القرار المتناقض هذه، فإن التعارض ينشأ بين خط السرد الأساسي، وما سيحدث لاحقاً على خط الأحداث. ويحدث القرار في الذهن حين يبدأ العقل في تكوين فكرة مُتَّبعاً قاعدة منطقية مشذبة ومتوافقة. ويبدأ بأن يأخذ زمام فهم الفعل من خط سير الحدث اللاحق، إلّا أنه حين سيبدأ باكتشاف ما يحدث حقيقة، سيجد نفسه يضحك، ويصاب بالفكاهة. الفكاهة المتأتية من التعارض غير المتوقع. والتي تخالف من منظومة المنطق التي شرع منها.

على جانب آخر، كتب كل من واير وكولينز/ Wyer and Collins

(1992)، في أن نظرية التناقض والقرار المتناقض لا تؤدي بالضرورة إلى استيلاد الفكاهة. إليكم مثالاً من محادثة قصيرة:

كان هناك صديق يتحدّث إلى والده المريض. واصفاً أعراضه بأنها غير ملائمة ومتعارضة. وكان الطبيب مُحتاراً إزاء هذه الخلطة من الأعراض. والتي يبدو أنها لا تنتمي إلى بعضها، وفقاً لما يمتلكه من خبرة. ولنفترض أن حلًّا ما ظهر فجأة. وتمثل هذا الحل في أن الطبيب قد وجد في مجلة علمية توصيفاً للأعراض يتناسق مع ما لديه من أعراض مختلفة في المريض. بالتأكيد سيكون هذا الإيجاد باعثاً على الدهشة والحبور وربما البهجة، لكنه لن يكون مصدراً للمَرَح بكل تأكيد. حل المسائل سيبعث في كثير من الأحيان على فهم التناقض وعدم المواءمة، إلّا أنه لا يبعث باستمرار على الشعور بالفكاهة، فالطرافة أمر آخر تماماً هنا.

لو أن الطبيب اكتشف في سياق عمله، بأن العلّة كانت في شيء ما كان «ينبغي» عليه أن يعرفه، وإنه في الحقيقة لم يكن قد حضر على باله وغابت معرفته، فإنه مؤشر داخلي على نقص في المعرفة سيزيد من الحيرة الإبتدائية التي عانى منها الطبيب.

لقد اقترح كل من واير وكولينز توسعة للنظرية تفترض توفر ما سمَّياه توافر صفة «عدم القابلية على الاستبدال»، ضمن التناقض. أي إن التناقض والإنفصام، لا يكون له حل سهل المنال وواضح بما يُضعف من صدمة معرفته لاحقاً. كما اقترحا أن تكون هناك صفة «التضاؤل» في توصيف سياق السرد الفجائي، الذي سيحقق التناقض.

إن صفة «عدم القابلية على الاستبدال» يمكن اقتراح وجودها. وستصبح

مقترحاً جيداً بعد أن تتم عملية إعادة شرح أطراف التناقض ضمن سياق السرد المؤدي افتراضاً إلى الفكاهة. بعد ذلك سيتحوّل شرح الفكاهة الى أن يكون هو الفكاهة، ولا يمكن للتوقع القديم الذي بدأ فيه المُتوقِع أن يبقى صامداً. وعليه أن سيتراجع ويتلاشى. أي إن التوقع الأولي الذي يأتي به الذهن قبل أن ينصدم بالتناقض الذي سيقود إلى الفكاهة، يجب أن يَبطُل ولا يعود عاملاً بعد أن انكشفت سردية الفكاهة والتناقض الذي بُنيت عليه.

بهذه الطريقة، سيكتسب مصطلح «التناقض وعدم المواءمة»، معنى آخر غير الذي أشار إليه شوبنهاور في كتاباته، وغير الذي أشار إليه وأسس له إيمانويل كانت. لم يعد مجرّد تناقض بين توقّع وحدوث لاحق. وقد قدّم كل من أتوردو وراسكن نموذجاً أكثر دقّة ورُقيًّا في الشرح. وفيه يظهر المحفّز بالأصل ليس على شكل محفز للفكاهة البتة، بل يظهر لدينا مؤثر يعتمل في الذهن، بطريقة تراكبية. وهو يعمل بما يولد التناقض، ويمنح وجود الفكاهة في الوقت نفسه. ولهذا، نشاهد في الطرفة التي يرويانها نموذجاً السياقَ التالي:

* يطرق المريض باب الطبيب، ويهمس بصوت خافت خارجٍ من قصبته الهوائية العليلة: «هل الطبيب هنا؟».

فتجيبه زوجة الطبيب، بطريقة مشابهة ومليئة بالهمس، «كلا، تعال وادخل بهدوء!».

إن سياق ما يقوله المريض حين يسأل عن وجود الدكتور، يقترح صورة مريض يبحث عن علاجٍ لدى الطبيب. أما السياق الفجائي الذي تردّ به زوجة الطبيب (الغائب)، فيوحي بشيء آخر تماماً. ربما يوحي إلى أنها

كانت تنتظر موعداً غرامياً اشتبك مع وجود مريض سرحان في انتظار طلب العلاج، بينما هي سائرة في التحضير للموعد الغرامي.

هذا السياق قد يكون نموذجيًا في إثارة الفكاهة، لأن كلا المسارين من السرد ممكنا الحدوث. ويمكن لهما أن يحفزا مسار التوقع (وبالتالي التناقض ـ عدم مواءمة القرار النهائي) سوية دون تعارض. وسنصل إلى لحظة الدهشة وصفة «عدم القابلية على الاستبدال» التي شرحها كل من واير وكولينز.

هذا المثال صالح تماماً لشرح الفكاهة التفعيلية المحدودة المدى. لكنّه يفشل في منحنا معنى متكاملاً لسير حدوث الفكاهة، من بدايتها إلى نهايتها. ليس لأنه مثل مجرّد ومقتصر على التوصيف (والتوصيف هنا مقتصر على تفعيلة ـ فعل ـ فكاهية محدودة)، إنما لأننا سنجد أنفسنا إلى غاية أن ندرك أي المسارين ممكن الحدوث من السرد، سنكون بلا هداية عن وسيلة الفكاهة المتوقعة. أكثر من هذا، ولتكرار مفهومنا عن نمذجة الفكاهة، ومحاولة اصطفائها على صفحة بيضاء، سنجد أن النصوص السردية المتداخلة والمتراكبة تأتي في الغالب من نصوص لا تحمل الفكاهة في جوهرها.

المثير للملاحظة، إن أيّة نكتة تروى في سياق غير مضبوط، وغير مرتب، بحيث إنها تدفع بالسّطر الصادم (حدّ الصدمة) في البداية، فإنها قد تحافظ على سير التناقض بين سرديتين متخالفتين، لكنها ستكون عمليًا خالية من أي فكاهة.

لقد قدم مينسكي/ (1981) Minsky، نموذجاً عن نظرية الإصدار التي

تحدث بها فرويد، قال إنها لا يمكن أن تقدّم طرفة «قواعدية مبنية على مُفارقة اللغة» مثل طرفة المريض الذي يطرق باب الطبيب. أو أن تكون مبنيّة على مفارقة المنطق المتخالف. ملحوظات مينسكي هذه جاءت ضمن محاولة لتوسعة القاعدة العاملة. وجاء إبتكار مينسكي في طرحه بأن الطرفة العدائية، أو الطرفة الجنسية لا تبتعدان سوية عما سبق أن تم تشخيصه على أنه ينتمي إلى «طُرفة اللامنطق».

إن ذهن الإنسان بحاجة إلى أن يتعلم تفادي الأخطاء التي لا يمكن عكسها. وهذا ممكن عبر التوقع، والتقصي، والتفادي والتحسّب بطريقة قد تشبه متحسسات نظرية فرويد التي استخدمها كآلية ناجحة للبحث العلمي. لكن هذه المتحسسات، قد تأتي على خلاف ما أوجده فرويد من الطرائق المنطقية. بل إنها يمكن أن تاتي ضمن سياق محتوى محدد ومختلف.

الذكاء والتأثر يبدوان شيئين مختلفين ومؤثرين بأكثر مما سبق أن أعطيت مسألة «اللاوعي المتناقض» من وزن وتأثير. ولننظر إلى الأسباب الخاطئة وكأنها أسباب عارية كما كان يصفها فرويد، عندها سنصل إلى توافق مقبول ونبدأ في الربط وصولاً إلى فكاهة مقبولة التفسير، وعسيرة التوقع وفقاً لمينسكي.

لقد وضع مينسكي نظريته عبر ما سمَّاه «تهافت المنطق الخاطئ»، مستخدماً اللغة عبر «أطر»، و«أطر مُزاحة»، في فضاء المعاني. هذا بالإضافة إلى استخدام المُستشعرات التقليدية التي عادة ما تستخدم في دراسة الحالات. لقد اقترح مينسكي أن ما يسبب الأخطاء في المنطقة بحيث تتكشف لاحقاً في طرفة، هو» التقدير السيِّئ في تعيين المهام والتوقعات».

وهو ما يبدو على شكل تناقضات في الرّوابط التي تربط الأحداث. وهو ما يؤدي فعلاً إلى التحويل من إطار سردي إلى آخر وستتحول الأحدوثة خلال هذا الإنزياح إلى صورة الفكاهة والطرافة التي تبدأ تطل برأسها. وهنا يعاد تقديم الظرف الذي سيجري في تقييم المستوى الأحدث من الوقائع. وفقاً لما سارت إليه التناقضات المؤدية افتراضاً إلى الفكاهة. الوضع الجديد لفهم النكتة والطرفة سيصوغ روابط جديدة، ضمن إطار جديد جرى الزحاف إليه، وحدثت الإزاحة المعنوية باتجاهه.

صحيح أن كتابات مينسكي تمتد تحت جناح ما نَظّر له فرويد مسبقاً، إلّا أن نصوصه ما زالت تندرج تحت نظرية التناقض وتناقض القرار. وكل تفاصيلها تقع تحت هذه المفاهيم، بدلاً من استحضار المشاعر، أو مساهمات الشعور الإبتدائي الباعث على مناخ الطرفة. أو استدعاء الشد العصبي وطريقة التفريغ والحديث عن طاقة يتوجب أن تنضح. صحيح أن آليات المستشعرات المعرفية (سواء كتب فيها فرويد أو مينسكي)، لن تكون دافعاً كاملاً لنا لقبول النظرية، إلّا إننا نتلمس بواقعية شيئاً عميقاً وصفه مينسكي يتمثل في مفهوم «استدعاء المنطق الخاطئ». رغم أن علينا أن لا ننسى أن ليس كل الفكاهة مستدعاة من المنطق الخاطئ. وليس كل منطق خاطئ سيستتبع بالفكاهة. إذ إننا بالعادة لا نضحك حين نكتشف أننا قد فقدنا أو نسينا ركناً معقداً من أساليب حل المُشكلات التي تواجهنا بالحيرة في بادئ الأمر.

وبينما يبدو أن عملية إعادة التحليل الدلالي تكون موجودة في عدد كبير من الطرف والنُّكات (يشار في بداية النكتة إلى كلمة، فيفهمها إحدى شخصيات النكتة وفقاً لمفهوم خاطئ، ثم يتكشف ضمن السرد

معناها الصحيح وتحدث المفارقة المؤدية إلى الفكاهة) وهو ما أنتج «الإزاحة الأطرية» في المعنى. إلّا إننا نجد هذا النموذج يعاني من نفس المشاكل التي عانى منها نموذج التناقض وتناقض القرار. فالعلّة باقية، رغم أنها يمكن في بعض الأمثلة والأحيان أن تحمل فعلاً فكاهة وطرافة تؤدي أهدافها. لكنّها لا تفسّر في النهاية معنى الفكاهة، ولا تضع مساراً محدداً لاكتشاف هدفها، مثلما لا تجيب عن السؤال: لماذا حدثت الفكاهة ولماذا وُجدت؟.

ساند كل من كولسن وكوتاس/ Coulson and Kutas(1998)، أطروحة مينسكي في نموذجه المعبَّر عنه بـ «الإزاحة الأطرية»[1]. وهو المفهوم الذي طوّره كولسن بمدى أبعد. بل إنه اشتغل سريريًّا على النموذج عبر القياسات الكهربية للدماغ والتلقي. وقد نصّا صراحة على أن عملية الإزاحة الأطرية في تلقي الطرفة تم تسجيلها فعليًّا وتسجيل نشاطها، إلا أنهما لم يذهبا إلى حد الإدعاء بأنها تفسير متكامل لعمل الفكاهة وتأثيرها. ويبقى لدينا سؤال

---

(1) مفهوم الإزاحة الأُطرية في الفكاهة، يتضمّن مزاوجة بين الإعتبار الاجتماعي، والمدلول اللغوي. حيث تشهد النكتة دمجاً لهذين الإعتبارين في محورها. بل تتشكل «قفشة»النكتة ومحورها الأساس من إنتقالة لحظية سريعة من المفهوم الاجتماعي الى المفهوم الدلالي اللغوي للكلمة، وتحصل الفكاهة. مثال ذلك؛ زوجة تخاطب زوجها الذي تبلل في الطريق جرّاء المطر، ودخل عليها وهو يقطر. لكنّها لم تنتبه لبلله وحالته المزرية وقالت له: «لماذا تأخرت؟، كان المفروض أن نكون وقت العصر عند صديقتي. فيجيبها الزوج: بالتأكيد أنا من يحتاج الى (عصر)!». في هذه القفشة، انتقل الزوج في ردّه التهكمي، من معنى (العصر/ بمعنى وقت العصر) والإعتبار الاجتماعي بتلبية الموعدِ المفترض، الى معنى دلالي لغوي هو (عصر/ بمعنى عصر ملابسه المبللة تماماً)، فضلاً عن إن الزوجة تعامت عن حالة ملابسِ زوجها وركّزت على فوات الموعد. هذا نموذج مبسط لشرح مفهوم»الإزاحة الأطرية» في الفكاهة ـ المترجم.

أساس: ما هو الفكاهي في عملية الإزاحة الأطرية في السياق الذي تلقى به الطُرفة؟. وهل ستبقى الطرفة فكاهية إن هي عانت من الإزاحة الأطرية ضمن سياق آخر غير هذا الذي أظهرها وهي فكاهية؟.

4 ـ 6. نظرية المفاجأة.

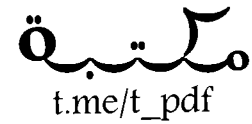
كان هناك مُلحد يستكشف أعماق غابات الأمازون، وفجأة وجد نفسه مُحاطاً بجمعٍ من الأفراد المحليين المتعطّشين للدماء. وخلال هذه اللحظة، قال لنفسه: «آه، يا إلهي، لقد أوقع بي!». وهنا جاءه ضوء من السماء، وصوت نادر السماع يقول له: «لا، لم يُوقع بك بعد. إلتقط حجراً من عند قدميك وارمه على رأس زعيم القوم الواقف أمامك». وبالفعل، التقط المُلحد الحجر ولطم به زعيمهم الواقف، وتمكّن من إدمائه. لكن وخلال وقوفه فوق جثّة الزعيم المُدماة، والمُحاطة بباقي الأتباع المحليين المتقطعة أنفاسهم، استمع المُلحد لنفس الصوت الإلهي نادر السماع وهو يقول: في الحقيقة الآن قد أُوقع بك فعلاً!».

تذهب بعض النظريات إلى القول بأن شرط «المفاجأة»، هو أقل الشروط الواجب توفرها لحدوث الفكاهة. وكان رينيه دي كارت أول من قال بأن الفكاهة هي مزيج من المُتعة والصّدمة. لقد أتت نظرية الإصدار والإطلاق لتخبرنا بأن الشّد الواجب توفره في الفكاهة يتوجب أن يتصف بـ «الفجائية والصّدمة» أيضاً وأولاً.

أما الفجائية، فقد وردت في كل من نظرية الإستعلاء، ونظرية التناقض وتناقض القرار. وكان هوبس/ Hobbes، أول من قال بأن الفكاهة تأتي من

الشعور اللحظي بـ«المجد والتهلل الفُجائي». بينما شدد شوبنهاور مراراً على شرطية حدوث التفاجؤ ضمن سير ولادة الفكاهة وصولاً إلى قرار التناقض في المحصّلة.

أمّا أرسطو فقد أشار إلى أن الحديث السارد في الألغاز ينبئ بـ«دهشة الكلمات والإنذهال المعنوي». إن المفاجأة عادة ما تعرّف بأنها خاصية العاطفة التي تأتي في سياق غير متوقّع. إلّا أن هذه الصياغة تنطوي في العادة على خطأ ما. فليس كل ما هو غير متوقّع سيشكل مفاجأة. إن العالم الذي نعيش فيه، إنما يتوافر على قدر كبير وهائل من الأحداث والوقائع والنقاط التي لا يمكن توقعها بكل حال من الأحوال. التغيير في الطقس، وكلام الناس لبعضهم عادة ما يكون غير متوقّع. وقد يرفرف طير ما أثناء حدث يحدث، فيغير وجهة الإنتباه. ومع كل شيء، ربما لا نكون في أي حالة من حالات التفاجؤ. إن ما يفاجئنا هو ليس الأشياء غير المتوقعة. فكل ما هو غير متوقّع، سيحدث عاجلاً أم آجلاً ثم سينزاح إلى مساحة من الوعي لا تصنّفه بهذه الحدّة بأنه كان غير متوقّع من البداية. بل ستظهر له مؤشرات لاحقة ربما لم ننتبه لها أصلاً. لكن الحقيقة تكمن في الأشياء التي «لانتوقع حدوثها». لا نتوقع حدوثها تحديداً لأننا نتوقع حدوث شيء آخر بدلاً عنها. ويترتّب في الذهنية أن شيئاً آخر كان من المفروض أن يحدث، لكن حدث فعلٌ ثانٍ. إنه التعارض بين الحدث المتوقع من قبلنا، وبين الحدث المحسوس الملموس الذي وقع بالفعل، وأثار اضطرابنا والمفاجأة فينا.



4 ـ 7. نظرية بيرغسون/Bergson الميكانيكية في الفكاهة.

هنري بيرغسون، فيلسوف فرنسي (1859 ـ 1941)، اهتم بالفلسفة العامة. ترك بصماته في أعمال جيل دولوز، ومارتن هايدغر. ومارسيل براوست.

يقال إن شيطاناً من الأبالسة اقترب من أحد المحامين وبدأ يوسوس له. وقد وعده أن يساعده في أن ينصّبه مُدّعياً عاماً، وقد يقوده إلى أن يتبوأ مقعداً دائماً في المحكمة العليا. وقد يسهّل له أمر الشهرة حتى في أفلام هوليوود. إلّا أنه طلب في المقابل من المحامي أن يمكّنه من أرواح زوجته وأطفاله الثلاثة. فكّر المحامي في هذا الطلب، وتعرّقت جبهته وهو يفكر، ثم في النهاية رفع وجهه وتطلّع بوجه الشيطان الذي يحدّثه وقال له: «ثم ستكون هناك وقيعة سأقع فيها، صح؟!».

يقول بيرغسون: «إن المجتمع سيكون حتماً شكاكاً اتجاه أي شخصية لا تبدي المُرونة المطلوبة».

إننا نجد أي جسم، أو فكرة، أو ذهنية، تبتعد عن التوافق، وقابلية التطابق والتساهل، ستزاح حتماً نحو دائرة الشك. وستوصم بالعجز الفكري أو البخل أو حتى مستوى من مستويات الجريمة. ولهذا فقد اقترح بيرغسون وجود ميكانيكية ترغم المسار التكيّفي على حصول عملية التوافق والتقبّل، وستكون حلًّا لمثل هذه المشاكل. وصلابةُ هذه الميكانيكية وثباتُها ستسبب الفكاهة. أو أن تكون الفكاهة هي السبيل الآني للتعبير عن هذه

الصلابة في المسار الميكانيكي لعدم التوافقية، وغياب المرونة المطلوبة التي تبعث المجتمع على الشك.

ويمكن للضحك أن يؤدي دور المُصحح الإجتماعي في أوقات التصرّف بلا مرونة. وكذلك الضحك الصادر عن الأغيار، قد يذكّرنا بهذا السلوك، وبأننا نقع في غير الموقع المناسب من الأداء الإجتماعي المطلوب منّا. وإنه ينبغي علينا على وجه السرعة أن نتصرّف بما يُكسبنا المزيد من اللياقة. ويذهب بيرغسون إلى القول بأن ليس لدى الضحك مِزية أفضل وأعلى من العواطف. ووفقاً لتوجهاته ونموذجه، فالضحك هو أداة موجّهة ظرفيًا نحو محور الذكاء العامل.

يقول الكوميديان مايك مايرز/ Mike Myers، في رسالة له يوجهها إلى محرر مجلة النيويوركر؛ «إن الشخصية الكوميدية تميل إلى أن تكون آلة». بمعنى آخر، هل كان كلاوسيس مجرّد آلة عنيدة؟، وهل كان (باب لي بيو) مجرّد آلة للحب؟، وهل كان (أوستن باورز) مجرّد آلة للجنس؟. هذه الأمثلة ربما تظهر نظرية بيرغسون بأفضل حال. إن أصحاب هذه الشخصيات، قد اختطّوا لأنفسهم ميكانيكية معيّنة لنمط الشخصية وعملها وتأثيرها. وساروا في تقديمها على هذه الشاكلة. بل نمّطوا فكاهتها وفقاً لخط سير واحد لا يختلف كثيراً مع تغيّر المقاييس والظروف حولهم. وصنعوا منها مادة صلبة مفهومة ومتوقعة للآخر المتلقي.

وعندها، تمكنّا من رؤية الفكاهة في مسار هذه الشخصيات، عند انعطافات شخصية بنائية، أسبغت وجودها بالفعل على صياغة الشخصية وطريقة تعاطيها مع محيطها. وعبر هذا التنميط القوي فهمنا محتوى الدعابة المتوفر فيها، بطريقة لا تكيّف فيها مع الآخرين.

وهي بهذه الطريقة تؤدي فعلاً قد يوصف بأنه (غير طبيعي)، أو على أقل تقدير بأنه غير متوقع وخالٍ من المفاجأة. إن نموذج بيرغسون يؤدي أغراضاً منقّطة ولا فائدة عميقة منها. فهو يقود إلى طرح سببٍ مُطلق لوجود الفكاهة واعتمالها. ويجهد نفسه في استقصاء المزيد من السباب لعمل الفكاهة وظهورها. ويدعي أيضاً تمصيل وتسبيب وجود الفكاهة على أسس اجتماعية وظائفية. وهو يشارك النظرية الإستعلائية، أو نظرية المفاجأة والانفصام من حيث تقاسم الشق غير المتوقع من الحدث، والذي سبق أن افترضت هاتان النظريتان تسبيبه لدهشة الفكاهة واستيلادها في ذهن المتلقي. ويذهب إلى أن هذه المفاهيم يمكن أن تنزلق بنعومة وتعمل وتأخذ دورها في الذهن المتفاجئ والمندهش، وبالتالي تثير الفكاهة.

ما زالت أطروحة بيرغسون يمكن تطبيقها على أشكال واضحة من الفكاهة (كأنواع الرسومات الطريفة التي تظهر التشوّهات المتعمّدة بحدّة في الشخصيات، والتي تربطها بعمق الإنحراف المتوقع في الشخصية المرسومة)،أو إنها تنطبق على سلسلة معينة من الأفعال المعتادة المُضحكة في العادة (مُضحكة مسبقاً بشكل مألوف وروتيني)، كالإنزلاق على صفحة قشر موز. وأخيراً، يحاول بيرغسون التذكير دائماً بالأصل الإنساني البشري للفكاهة. ويذهب إلى أن تعريف الاختلاف الجذري البشري، هو أننا نحن الحيوانات التي اعتادت أن تضحك وأن تمارس الطرافة، وأن تبني المفارقة على توقع حدوث الفكاهة وظهور الدّعابة وتوقعها وانتظارها وتوظيفها في الحياة الاجتماعية والخطاب السوسيولوجي البيني الواضح.

إننا نضحك فقط على ما هو بشري، أو حيواني، أو ما سبق أن شخّصنا فيه من الصفات الشبيهة بالإنسان/ Anthropomorphic. وهذا يكشف لنا

أن الفكاهة هي ميزة ذكائية في البشر. أو إنها تظهر عند فشل ذكاء البشر في التنبؤ. أو بشكل أدق توصيفاً، تظهر الدعابة عندما يخفق الأداء البشري الذهني عن مجاراة الإستحكام. ربما نجد أن البشر هو فقط من يضحك لأنه وحده من يمتلك ناصية الإطلالة العُلوية من المرتبة الأعلى على النظم الحياتية. وهو ما يدفع لتبني مواقف محددة اتجاه الرُتبيات الأقل[1].

(1) خلال السنوات الخمس والعشرين الأخيرة، كانت هناك جهود علمية محمومة وخلافية، أن الكائنات غير البشرية، من المراتب العليا، الدلافين أو القردة، بأنها ذات نوايا منتظمة متقدّمة، ولديها نُظم متطوّرة عالية التقانة. لكن النتائج لم تكن حاسمة بالرغم من التجارب المدهشة والواعية التي جرى تنفيذها. نعم، ظهر أن لبعض مراتب القردة أنه يتوافر فيها نوع من «نظرية الذهن». لكنها لم تنته إلى تأسيس خلاصات جذلة متشابهة بسايكولوجيا الإنسان ـ (انظر أعمال بريماك/ Premack (1983)، وأعمال توماسيلو وكول/ Tomasello and Call (1997) ـ المؤلفون.

(5)

عشرون سؤالاً إستدراكيًّا وتطوّريًّا عن الفكاهة.

بوب: هل تريد أن نلعب لعبة أن تحزر الأشياء؟. أمامك عشرة أسئلة متاحة.

جو: نعم ممتاز لنبدأ.

بوب: حاول أن تحزر شيئاً.

جو: هل هو يمشي على أقدام؟.

بوب: نعم.

جو: هل يمكن أن نمارس الجنس معه؟.

بوب: طبعاً.

جو: هل هو معزة؟.

بوب: صحيح، كيف حزرت!

إن ما قدّمناه من خلاصة عن أهم نظريات الفكاهة، يضع بين أيدينا «قائمة غسيل» طويلة ومعرفية واستدراكية مفعمة بالخُلاصات عن وجود نظرية إدراكية متكاملة تختص بعمل الدُّعابة والفكاهة.

إن كل سؤال يبرز هنا كان قد سبق وأثير بالفعل، وربما جرت الإجابة عنه إلى حد ما، وسبق أن طُرح في النقاشات. وسيكون هدفنا أن نولّف أفضل وجهة نظر مما متوفر من النظريات ضمن سياق موحّد ينجح في الإجابة عن الأسئلة. ومن البديهي أن يكون النموذج الجيد غير متغافل عن الأنواع المتوافرة من الفكاهة واختلافها وتعدد مشاربها ومنابعها. كما أنها يجب أن لا تتعامى عن الفكاهة التي لا تثير المَرَح. إن النموذج الجيد في الحقيقة يجب أن يأخذ بالحسبان التوقّع الجيّد والمناسب والذي يأتي في محلّه التفسيري.

يجب عليه مثلاً أن يخبرنا كيف يتحوّل السلوك الفكاهي، إلى «لا فكاهي»، حين يتخلّى عن بعضٍ من صفاته أو خواصه. وبصورة مثالية، يجب أن يخبرنا طريقة أو وصفةً جاهزة عن الفكاهة وتكوّنها واستيلادها. ومن المهم أن يكون هناك قدرة على التصدي للنماذج التي زُعم في بداية دراسة الفكاهة أنها موجودة ومتوافرة وقد جرى اعتبارها مبتدءات تمييز هذا الحقل السوسيولوجي. وشيء آخر مختلف تماماً أن تحسب حساب ما يستجد من أفكار تتناول الفكاهة، أو تتعرض للتصنيفات المستحدثة لها. وكلها تصبّ في الإجابة المركزية للأسئلة التالية، «لماذا؟»، و«كيف؟»، تنشأ الفكاهة. باختصار، فإن النموذج الجيّد هو الذي يمكننا من اختباره بصورة متنوعة. ولهذا، سنتصدى إلى قابلية الأعمال التي يجب أن تتحلى بها النماذج الجيدة من التنظير، خلال القادم من الفصول.

1 ـ هل إن الفكاهة هي وجه من أوجه التكيّف التطوّري؟.

هل هناك مصلحة ممنوحة على مستوى الجينات من توافر سمة الفكاهة؟، وإن كان هذا الأمر حقيقة، فما هي هذه السمات والفوائد؟. ما

الذي ممكن أن يزيده وجود هذه السمات على مستوى التكاثر والتناسل الجيني، وبالتالي ما المنفعة التي يحملها للحامل الأصلي؟. إن الفكاهة غريزة متأصلة، وهي متفشية عبر كل الثقافات الإنسانية. ويبرز لدينا الضحك أساسيًا في مراحل مبكرة من التكوّن الجنيني الطفولي. بل إنه يمكن تمييزه بالفطرة في الطفولة العمياء والصمّاء. لم يحدث أن تخلّت أي منظومة إنسانية أو تجمّع بشري عن السمات الفكاهية بأي شكل من الأشكال. فلماذا؟.

2 ـ من أين تأتي الفكاهة؟.

هل تمتلك الأنواع الأخرى من الكائنات أي شكل من أشكال الفكاهة؟، وكيف تبدو؟. يتوجب علينا أن ندوّن سرداً محكماً عن سلوك الأسلاف فيما يتعلّق بالفكاهة. بل أكثر من هذا، أن نرسم مساراً للطفرة التي تحوّلت بها سلوكيات الأسلاف في مجال الفكاهة وصولاً إلى سِمات العصر الحاضر من أدائها.

3 ـ لماذا نتبادل الفكاهة، ونتناقلها؟.

إن افتعال ضجّة غير ضرورية ربما سيجلب انتباه المُفترسات لنا في الحياة الطبيعية، أي أن الفكاهة والضحك ستكون مبعث خطر في الأشكال البدائية للهومينيد. والتواصل يؤرِّض لتوافر الأساس العضوي في صرف الطاقة وتبديدها. ولهذا، توجّب توافر شكل من أشكال التكيف الإبتدائي المبكّر كفرشة لنشوء الفكاهة. وكيف يختلف التواصل بعمومه كمفهوم عن تبادل الفكاهة كوسط تواصلي؟، وهل يؤثر ذلك في السلوك الجيني الحافظ للنوع؟.

4 ـ لماذا نشعر بالسرور اتجاه الفكاهة؟.

إننا لا نكتفي بأن نكون سعداء خلال الضحك، بل إن هناك مستوًى محددًا من السرور تتفرّد الفكاهة بإنتاجه ونعني به؛ المَرَح. وفي أي معيار نوعي يختلف المَرَح عن باقي مشاعر السرور؟، وهل بإمكاننا أن نفسّر سبب حدوث هذا الأمر؟. هل هناك فائدة معيّنة على المستوى الجيني هي التي تدفع تكاليف تكبّد الطاقة ضمن حدوث هكذا ظاهرة من المَرَح وشعورنا بها؟.

5 ـ لماذا نشعر بالمفاجأة خلال الفكاهة؟.

إن معظم، أو جُل محفزات الفكاهة تحتوي نوعاً واضحاً من حالة المفاجأة. إلى درجة دفعت الكثير من الدارسين والباحثين والمنظّرين إلى تشخيص وجود مُحفز المفاجأة على أنه الباعث الأساس لحدوث الفكاهة. البعض الآخر اشترط وجود ميكانيكية الصدمة والإنفصام من أجل حدوث الفكاهة ومضي تأثير الدعابة إلى هدفه. فلماذا يتفشى هذا الرأي؟.

6 ـ لماذا نجد أن الحكم النهائي، هو مكوّن شائع في محتوى المحفّز للفكاهة؟.

عادة ما ذهب منظّرو نظرية الإستعلاء إلى أن الفارق في الحكم والتقرير بين الحالة النبيلة، والحالة الرديئة هي من تسبب الفكاهة. لكن الحُكم والتصنيف والقرار هي أحكام نجدها أيضاً متوافرة خارج منظومات الفكاهة. فلماذا نجد مثل هذا التفاضل القيمي كلما تعرّضنا إلى تقييم الفكاهة؟. ما الهدف المُرتجى من الفكاهة التي تخضع لمثل هذه التقييمات والأحكام؟.

7 ـ لماذا يجري استخدام الفكاهة عادة في إطار التحقير والإستخفاف؟.

كي نسخر من شيء ما، هل سنضطر إلى الحطّ من قدره؟. عادة ما نحطّ من قدر الناس حين «نسخر» منهم، أو حين نمارس الفكاهة اتجاههم، فيكونون قرب الموضوع بأنفسهم. على الرغم من توافر ميلٍ نسميه بـ «طيبة القلب»، أو»اللاضغينة». أو التمحيص في التعامل قبل أن تجري الفكاهة هذا المجرى. فنقول إن الموضوع: «هو لمجرّد الطُرفة». وهو الأمر الذي ربما يفرض على الناس أن يتعاملوا معه ضمن سياق فكاهي مقبول. لكن لماذا يحدث هذا الأمر من الأساس؟. لماذا نضطر أن نقول إن الأمر لمجرّد الدعابة فلا تفسّروه بأبعد من ذلك؟.

يمكن إهانة شخص، لكن لا يمكن السخرية منه وتعريضه أن يكون مَحطّ الطّرفة بنفسه بلا وجود للفكاهة نفسها. يظن منظرو نظريات الإستعلاء إن هذه هي العلّة في وجود الفكاهة وسريان الطرفة محركاً لها. وما هي الفوائد من تحقيق هذا الاستخفاف أو نشر مشاعر الإستعلاء بهذا الميل؟.

8 ـ لماذا تشير الفكاهة بالعادة إلى مواطن الخلل والضعف؟.

أشار أرسطو إلى أن الفكاهة تمسك بطرف الفشل ضمن المعنى. حتى في إطار الفكاهة المبنية على اللاضغينة وطيبة القلب. سيكون هناك دائماً شق مبني على تشخيص الفشل وتعيينه موضوعاً للفكاهة. هويّة مخطئة في التسمية. إساءة في الفهم، إساءة في التشخيص أو التقدير. فلماذا يتوافر دائماً مثل هذا الربط؟.

9 ـ لماذا، نتحصل في الفكاهة دائماً على مشاعر السخافة والحماقة؟.

إن هناك الكثر من نماذج التناقض والإنفصام واللا مواءمةاً فهل هناك

تشكيل فرعي يصف مسارها بحيث يمكن وضعها تحت تصنيف واحد؟. بمعنى آخر، ما هي القاعدة التي تبنى على التوقّع والتي وصفها إيمانويل كانت؟. وهل يمكن لشوبنهاور أن يفسّر نموذجه الخاص من التوقّعات في مقابل ما يحدث حقيقة ويثير التناقض والمفارقة؟. هل يمكن لنا أن نشرح أمثلة سولس، وأتاردو وشولتز كلها تحت مصفوفة عملية ونظرية واحدة؟.

10 ـ إذا كان التناقض يتسبب بالفكاهة، فكيف يفعلها عمليًّا؟.

إننا بحاجة إلى ما هو أكثر من جداول وصفية هنا. نحتاج إلى ما يُسبب الميكانيكية بالأصل ويطلقها ويشعل فتيلها. ونحتاج الإجابة الملحّة، لماذا؟.

11 ـ لماذا نضحك كليّة على الفكاهة الإنسانية؟، أو تلك المتعلّقة بالإنسان والمتضمنة نواحيَ انثروبولوجية خاصة به؟.

في إطار الفكاهة، يبدو أننا نتعامل فقط مع تلك الأشياء التي يظهر عليها أنها تمتلك ذهناً أو عقلاً معيناً، أو تلك التي تتفاعل مع الأشياء التي تمتلك العقل والذهنية. فقط، في نظرنا، هذه الأشياء ستبدو فكاهية ممكنة ومتاحة لاستعمال الفكاهة. هذا يعني، أن نواحيَ محددة يفرضها وجود العقل والذهنية داخل منظومة عمل الفكاهة، هي التي ستكون مسؤولة عن توليدها. وهنا سنسأل، وماذا عن الكائن البشري حتى يكون موضوعاً للفكاهة وليس مجرّد متلق لها؟.

12 ـ ما نسبة الصحة في أطروحة بيرغسون وميكانيكيته السلوكية المؤدية إلى الفكاهة؟.

أشار بيرغسون إلى أنه ليس من المصلحة سلوك فعل غير متكيّف ولا موائم. ومن العلائم المنبهة التي تسترعي الرّد هو التصرف بلا تكيّف

ضمن بيئة تتطلب بالفعل مواءمة ذلك التكيّف ضبطاً معها. فهل هو محق بأن الفكاهة كانت وسيلة تجعلنا موائمين وملازمين ومتوافقين لمثل هذا الإنضباط المنشود؟. وهل ميكانيزما بيرغسون هي علامة فرعية واضحة من علائم الفكاهة؟.

13 ـ لماذا يمكن استخدام الفكاهة كوسيلة من وسائل التصحيح الإجتماعي؟.

لماذا نضحك إزاء شخص ما يرتكب شيئاً غير ملائم أو غلطة؟. ما الذي يجعلنا نحكم أن أداءً بعينه كان غير ملائم، وبالتالي فهو يستحق الضحك أو الإدراج تحت بند الدُعابة، بينما باقي الأحداث لا تندرج تحتها؟. ولماذا نشعر بالذلة حين نتعرّض إلى السخرية؟. وهل هذه العملية ستؤدي بنا إلى تبني تغيير مقابلٍ في سلوكياتنا؟. وهل تتوافر لدينا مقومات ودوافع آنية تميل إلى إعادتناً إلى ما نسميه وضعية «الطبيعي»؟.

14 ـ ما هي أوجه التشابه التي تجمع مُحفّزات الفكاهة على تنوّعها؟.

لم يتردد سقراط عن ترديد هذه العبارة حين كان يقف إزاء مجموعة من الأمثلة؛ إذ كان يقول: هذا الأمر جيد، لكن ما الذي يربطها كلّها ويجمعها على مبدأ واحد؟.

15 ـ كيف يرتبط العَبَث واللهو بالفكاهة؟.

ما هي الأشقاق والمزايا المتوافرة في نشاطات العَبث واللهو والتي تشبه الفكاهة من وجه ما؟. هناك أوجه شبه تنطلق من اللاجدية وتقود إلى المتعة في كثير من الأحيان. العبث غالباً ما يقود إلى الضحك. فما القضايا المشتركة التي تربط الإثنين؟. وما علاقتهما بالدغدغة؟.

16 ـ ما العلاقة بين حل المشكلات، والإكتشاف، وإيجاد الأجوبة والفكاهة؟.

إننا نميل الى التعبير بالتنهّد «آه!»، كلما اكتشفنا شيئاً جديداً أو توصلنا إلى حل لشيء غامض كان يعترينا عقليًا. وقد نمارس الضحك بين لحظة وأخرى ضمن هذا السياق. ونفس المشاعر تبرز لنا حين «ندرك» معنى نكتة ما، أو نتوصل إلى فهم طرفة ضمن سياقها المؤدي إلى الفكاهة. فما العلاقة بين هذه الظواهر؟.

17 ـ لماذا نرغب في الفكاهة بشدّة وبقوة؟.

إن هناك ما يدفعنا أن نطلب الفكاهة. إننا نشتري البطاقات، ونقف بالدور كي نتفرّج على قفشات كوميديا الـ«ستاند آب» وندفع من أجلها المال في بعض النوادي. والكوميديا الظرفية، ورسومات الكاريكاتير، والتصويرات الضاحكة تهيمن حتى على الإعلانات التلفزيونية. والمجلات تحفظ قراءها فرحين مسرورين عبر حشر صورة فوضوية كارتونية بين كل بضع صفحات. وكل متجر كتبٍ لديه جناح للكتب الفكاهية. وهناك المليارات من الدولارات تنفق سنويًا على الكوميديا وإنتاجها. فلماذا أصبحت الكوميديا مسألة مطلوبة إلى هذا الحد؟.

18 ـ ما هي الملامح المتميزة التي عادة ما نجدها في الفكاهة؟.

إن المحفّز الفكاهي، في العادة لا يتشكل بطريقة كونية أو شائعة بعمومها. في المقابل، فإن معيشة النكتة والولوج إلى عقلها هو أمر يتعلق بفهم الفرد لها. فما الذي يتوافر في الطرفة المؤدية إلى الفكاهة، وبالتالي تؤهل الشخص أن يكون متعرّضاً لتنوّع أشكال الفكاهة؟.

19 ـ ما هو الشيء العمومي في الفكاهة؟.

ولو تعاملنا مع معظم أنواع الفكاهة على أنها مضمّنة ضمن مفاهيم كونية عامة، فسنجد أن هناك أنواعًا من الفكاهة بإمكانها زرع المرح في كل شخص من أشخاص هذا العالم. ولماذا نتوافر على سلوك نمط من الأنماط يساعدنا أو يمنحنا الميل إلى نشر الفكاهة والطرافة أين ما استطعنا؟. ولماذا نادراً ما تكون الفكاهة متعة فردية خالصة؟.

20 ـ لماذا نجد أن هناك فروقاتٍ جندريةً في الفكاهة وعمل الطرافة؟.

لماذا يميل الرجال الى إفتعال الضحك وتوليده، بينما تميل النساء إلى تلقي الضحك والتفاعل معه؟. لماذا تميل النساء إلى تحري المزيد من الإحساس في الفكاهة كلما كتبن نصوصاً تصلح للإعلان الشخصي؟. ولماذا يتوافر قدر كبير من الكوميديان الذكور بشكل مهيمن أكثر من توافر النساء ضمن هذه المهنة؟.

إن كل جزء من هذه الأسئلة إنما يشير إلى مسألة مهمة ضمن حوارية الفكاهة وأسئلتها. وإن أي نظرية ستتخطى الإجابة عن بعض أو كل هذه الأسئلة، ستكون منقوصة بشكل واضح. ومن بين النماذج النظرية التي سقناها لأجل التفسير والإجابة، فإننا لا نجد سوى نظرية القرار المتناقض وعدم المواءمة أن تكون هي المنافس الحقيقي في مجال الإجابة على هذه التساؤلات. وحتى هذه النظرية، قد فشلت في شكل ما في منحنا كامل الإجابة على القائمة التامة. أما ما نقدمه من نظرية خلال الفصل القادم، فهي ببساطة عملية ليٍّ لعنق نظرية التناقض، وتناقض القرار. لكنها في وجه آخر، ستقدم شيئاً مهماً وجديداً لنفهم من خلاله الفكاهة وعملها.

إننا ندعي الإجابة عن هذه الأسئلة العشرين، خلال القادم من هذا الكتاب.

(6)

المشاعر والإحتساب لها.
أو، ملامسة «عظمة» الطرافة، بـروحها الحقيقيـة.

خلال الفصول الماضية، ركزت مسوحاتنا وتحليلاتنا على الجانب الظاهراتي من الفكاهة. وحتى عبر المسح السطحي لمحاولات المنظّرين أن يشرحوها ضمن سياق نظري واحد يفسر كل شيء، كل هذا يجب أن يقودنا إلى مسار محدد خلاصته:

1 ـ إن من الصعب جداً ـ بل ومما يقابل المستحيل ـ أن نظفر بما في التورية اللفظية، وما في التهريج الهزلي، وما في الكوميديا الكلاسيكية، ومافي البذاءة المستخدمة وسيلة في الطرافة، أن نعزل كل هذا عمّا يتبدى ما فيها من ميل نحو الهزل ومحتواها الدعابي. وكما فعل العديدون من جحافل المنظِّرين في هذا المجال، فإذا كان هناك بالفعل ما يجمع هذا الشتات من الأنواع والبواعث، فالأمر ما زال بعيداً على الربط المباشر، وبعيداً عن الاكتشاف.

2 ـ إن الفكاهة تعتمد (بل وحساسة جداً) اتجاه طريقة الطرح، ومُحددات المُحتوى. وإن أعظم نكتة، فيما لو قيلت بترتيب غير صحيح، فإنها لن تؤتي مفعولها. وإن مؤدياً كوميديًّا بارعاً يمكن له

إن يختار سطراً مناسباً في سياق مُحكم من أي كتاب، فسيتمكن من افتعال الفكاهة والنجاح في تسويقها عبر قراءة هذا السطر فقط. فالأمر معلّق على الوسيلة والتوقيت والسياق والصياغة.

3 ـ وبما أنه يبدو أن لا موضوع مُحددًا سيكون كوميديًّا وفكاهيًّا في جوهره، فإن متطلبات المحتوى يجب أن تكون تنضبط (مهما كان المحتوى)، بطريقة يساء فهمها، أو تندفع باتجاه محدد، أو أن تنعكس تشوهاً بطريقة محددة. كلها يجب أن تكون دالة لعملية الإدراك الباعثة للفكاهة.

4 ـ وبما أن الديناميكية التي تجري بها الأمور هي على قدر كبير من الأهمية، فقد توجب أن تتوفر ظروف فكاهية معتمدة على المتغيرات الحقيقية الفيزيائية، وكذلك على المتغيرات «الميكانيكية» لهذه العملية الإدراكية. وكلّما تسارعت عملية التعاطي، تسارعت عوامل الإثارة، وكلما اشتدت أطوار التنشيط، وهكذا. ومهما كانت مراحل هذه العملية العصبية الفسلجية، فإنها ستكون غامضة منغلقة كلّيةً على الموضوع. ووجب أن تكون غامضة أمام المتلقي لتحقق فيما بعد عنصر المفاجأة. ولن تكون بمستوى حدس من يحزر حدوث عملية الهضم، أو التجلط الدموي في مكان ما من أوردة الجسم. (لهذا يمكننا أن نتخيل وجود عقار سيرفع من معيار حسّ الفكاهة، ببساطة عبر منع ارتفاع الشد العصبي، أو أن يغير من مستوى دوران العمليتين سوية). العملية الأولى هي الاضطراب الميكانيكي الذي يستولد «الإحساس بالسخافة، واللامنطق» الموجود في جوهر الفكاهة. والعملية الثانية، هي تشكّل نموذج محدد يروي قصّة الفكاهة المشروحة. ويمكن تقفي الطرافة فيه. عمليتان شبه مستقلتين تدوران سوية.

5 ـ إن هذه السّمة العصبية للمنظومة الإدراكية الفكاهية التي سنسميها؛ «عظْمة الطرافة الحقيقية»، يجب أن تكون قد وُجدت من أجل شيء ما. وهنا يتوجب أن نعود إلى الإعتبارات التطوّرية الأساسية. إذ إنه يجب أن يكون قد وجد لإنجاز مهمة إدراكية على جانب كبير من الأهمية. طالما كان هذا النشاط واسع الوفرة بين البشر، وإن لممارسته وتنشيطه عوائد واضحة. المهمة يجب أن تكون على الأقل قد تطوّرت ضمن النشاط الإنساني بوضوح. وهذا يصح طالما لم نلاحظ إلى حدٍّ الآن ما يشبه النشاط الفكاهي البشري ضمن باقي الأنواع الحيّة غير الإنسان. وماذا عسى أن نظن غير أن ما صار إليه الأمر هو نوع من التكيّف باتجاه ممارسة الضحك. وضمن ما يحقق الثمن الذي يدفع من أجله (Dennett 1991, 63).

6 ـ ومهما كان الجدل ضاغطاً أن نربط الأمور بهذا المسار، فإن الأمر يتوجب أن يحوز التجانس المطلوب لفهم استخدامات الفكاهة الحالية ضمن حياتنا اليومية، وليس بمعزل عنها. فاللوهلة الأولى، تأتي الفكاهة من أجل تلبية نقص أو تعويضٍ بَرَزَ بالفعل في الذهن الإنساني. لكن، ربما لا يعني كثيراً عملية التكيّف الإبتدائي الذي أتت فيه أول مرّة. لنفترض التالي موازياً لحدوث الفكاهة؛ إننا نعرف أن هدف تأكيد التكاثر وحفظ النوع هو موضوع يدفع من أجله الثمن ضمن مسار السلوك الإنساني التناسلي. وهو ما يتحول عمليًا إلى تواشج الأمشاج الجنسية بطريقة حتمية لتنفيذ هذا الغرض. والأهم من هذا، يبدو أن هذا الغرض يتعالى في أهميته بموازاة البقاء على قيد الحياة، وبطريقة منظمة دقائقية. هذا هو النموذج والمصفوف الذي

يتوفر أكثر من غيره على دلائل تربط بالتطوّر الذي عبر مرحلة الإثبات إلى أن صار هو القاعدة العلمية التي تحرّك البحث العلمي بلا منازع. وأصبح جزءاً من الأساس بدلاً من بناء الجدل البايولوجي وإعادة طرح نقاطه بلا علمية مستدعاة.

إننا لا نجد اليوم مساراً علميًّا إلّا وكان للتطوّر فيه ضلع واضح في بناء التكامل الإدراكي. علينا أن نخلي الطاولة حين ندرس الفكاهة، وكيفية عملها، وتأثيرها وطريقة ربطها بالحقائق التطوّرية، ونمو التجربة العصبية، والمعرفة الإدراكية، وحتى فهمنا لأنفسنا وسلوكياتنا السوسيولوجية. إن هناك القدر الكافي من سوء الفهم في الربط بين طريقة عمل الدماغ مثلاً، والحاسبات الإلكترونية. مثلما هناك شيء مشابه يربط خطأ بين المشاعر والمنطق. وهو ما يتطلب الجَرح والتعديل وصولاً إلى النموذج العلمي الذي يحقق الإجابات.

6 ـ 1. هل تعمل المشاعر والمنطق معاً على ترتيب أدمغتنا؟.

من غير الممكن أن تتوفر المعرفة بلا مشاعر. يجب علينا أن ندرك هذه الحقيقية. وإلى غاية أن نحوز قوتها في مداركنا، فهي لن تكون لنا. إن إدراك الدماغ يجب أن يكون مكمِّلاً لتجربة الروح.

آرنولد بانيت/ Arnold Bennett.

في سياق فكري قديم العهد يعود إلى عصور أرسطو ومجايليه وقياسه المنطقي، ذهب المناطقة إلى تأسيس مفاهيمهم عن السياقات

الصحيحة المتوافقة منطقيًّا وعقليًّا وفقاً لعدد من البديهيات. في زمن ما، كانت البديهيات اليومية هي المصدر الوحيد للمنطق. وهي مصدر الحُكم الوحيد للقول بما هو عقلاني أو لا عقلاني. وأدرج أرسطو سلاسله المنطقية من البديهيات في كتاب سمَّاه «المنطق/ Organon». وهي كلمة إغريقية الأصل تعني في دلالتها؛ «الوسيلة». لقد ابتكر أرسطو آلة عقلية كلامية اصطناعية أسسها بنفسه. يمكن عبرها أن تشحذ وتنظم البديهيات التي يواجهها العقل حين لا يكون لديه سوى «يديه العاريتين»، كوسيلة للتفكير.

هذه الوسائل الأرسطية جرى فيما بعد وضعها ضمن قواعد. وعانت في القرن التاسع عشر تنظيراً وتنظيماً جعلها تتوارث وتتطوّر لتتحول إلى ما يسمى «التكنولوجيا»[1]، وهي الرمز المنطقي الحضاري التام. هذه الرمزية الرياضية، تخدم اليوم ما بات يعرف بالفلسفة الحديثة، والعلوم الكومبيوترية، والهندسة. بل وتخدم في جانب من جوانبها حتى القدرة على كتابة العقود القانونية. وتأمين نصوص السياسات. إنها تدخل في منطق كل شيء وكل حدث في اليوم. إن قوة منطق الإقناع في هذه المنظومات العقلية، جاء مقنعاً للغاية بطريقة أنه يتفادى حتى الأسئلة وصار مصدًّا ناجحاً لها. رغم أن بعض المناطقة دأبوا على القيام ببعض الغزوات على المنطق الأرسطي بين حين وآخر، ويدعون إلى تبني منظومات إدراكية

---

(1) واحدة من أكثر الكلمات يونانية الأصل شيوعاً ودخولاً إلى عدد كبير من اللغات. ولها تعاريف عدّة ومتشعبة، لكنها في النهاية تقترب من معنى الفن والمهارة في استخدام الأدوات وربطها بصورة عقلانية منطقية محوسبة مسبقاً لأجل أداء مهمات محددة وقد تكون مبرمجة. فهي الغاية والوسيلة في آن واحد ـ المترجم.

بديهية أخرى. إلا إننا هنا لا نتساءل عن صحة ما ذهبوا إليه، بقدر ما نتساءل عن منطقيته وأصل نشوئه.

نسأل كيف يمكن لأي شخص على وجه الكون، أن يأخذ بنظر الإعتبار صحة الأطروحة (ب)، مثلاً، والأطروحة (غير ب) في نفس الوقت، وأن يكونا كلاهما على صواب؟. أو أن يكون الجواب (ب)، والجواب (غير ب) صحيحين في آن واحد؟.

في العادة ما يقال إن هناك عدداً قليلاً من القواعد المُسبقة، أو ما يعرف بـ «المبادئ الدالة على صحتها بذاتها»[1]، لكن حتى لو جرى القبول بهذا الحكم، فإن الأمر مستمر كي نكتشف لاحقاً كيف أن التكوين العصبي والسايكولوجي لأدمغتنا ما زال يعمل ويتساءل ويحاول أن يضمن لمثل هذه الأسئلة استدلالاً ذاتيًا.

وعلى الرغم من أن الحاجة إلى وجود الطبيعة ذاتية الإثبات للبراهين التي تؤسس للبديهيات، والتي يعتمد عليها لتكون ضلعاً مهمًّا في البناء المنطقي (مثلاً نحتاج بالفعل الى مُسلّمات ننطلق منها قبل بناء أي هيكل نظري)، إلّا أن هذا الأمر كان مصدراً لسيل لا ينتهي من المشاكل التي برزت لمعظم الباحثين. وعلى الأخص، مهندسو الأنظمة العقلانية والمشتغلون

---

(1) تبنّى عدد من الفلاسفة والمناطقة اعتماد آليات المنطق المتباين/ Para ـ consistent logics، لأجل الحصول على موقف متخالف من تضارب الأدلة. وتحت تلك الظروف، بعض التباينات ستبدو منطقية. لكننا سنتجاهل هذا كله، ونحاول أن نثبت أن الموضوعية المثارة في العقل وما يعرض أمامه في معين القرار، هو الهدف. هذا النوع من الدماغ والعقل وآلية التفكير التي تتوافر لدى البشر العادي. في النهاية، لا وسيلة لدينا سوى اختبار الوسائل المنطقية ومتابعة عملها ومواءمتها في السياق العقلي ـ المؤلفون.

في إطارها. نجد مثلاً أن العديد من المشتغلين في حقل الذكاء الصناعي (المبني على الأجوبة ومعينات القرار العقلانية)، قد اقتبسوا الأشكال العقلانية والقوالب المنطقية المسبقة لاستعمالها في حقولهم مباشرة وتبعوها مثل ما يفعل دماغ طفل[1]، خاصة حين يقتبس مسألة جاهزة ويحاكي حلّها وفقاً لما هو مُعطى أمامه مباشرة.

هذا الأمر، أدّى إلى سقوط الكثير من أشكال الأطر النظرية، ووقوعها في فخ محدودية النجاح. إن المنطق، وليس غيره، هو من يقوِّم اليوم عماد عمليات الحوسبة الحديثة. وإن الميل إلى تمدد هذه الهمينة العلمية العقلانية المنطقية، ضمن هذا التطبيق الحديث، ليس إلّا ميلًا طبيعيًّا نتيجة التقدّم وما ثبت أنه صحيح.

بالرغم من ذلك، قد يكون من المناسب أن نتعامل مع هذا التمدد، ضمن وعي نحوزه نحن فقط، وأن يكون كذلك محاطاً بالبديهيات التي سبق أن بدأ التفكير العقلاني منها. ثم بعد ذلك، قد نسمح لهذه المُتبنيات المضافة أن تمارس بعضاً من المنطق اللارسمي، أو العقلانية المُقننة (وهو ما يشبهنا نحن ويشبه سلوكنا حين نخضع لعوامل المشاعر والتأثيرات الموجودة أصلاً). ربما هذا هو ما يمارسه الدارسون حين يواجهون ما هو ممتدٌ إلى العالم الأيكولوجي، فيأخذهم إلى المنطق العقلاني كأداة جاهزة.

---

(1) تأتي التجارب التي تأخذ بنظر الإعتبار وجهة نظر الأطفال الرضع في استدامة الأغراض التي يتحرّكون ضمنها أو يسعون لها، أنهم يسهمون في خلق مستوى من المفاجأة الطفولية. هذه المستويات تقدم رتبة ونظرة تفضيلية من سلوك الأطفال. ومن التعبير بالمشاعر، وكشف معدّلات الفرح والسرور. ويعود الفضل في تأسيس مفهوم «إستدامة الغرض»، الى التمدد النظري لهذه المستويات التفضيلية التي يبديها الأطفال الرضع في سلوكهم. ومع ذلك، فإن في أي مستوى يظهر الحال وكأننا سنأخذ بهذه المفاجأة المشاعرية على محمل الجد منهم ـ المؤلفون.

لقد ترسّخ اعتبار واسع الآن، بأن من غير الصحيح عدُّ الانسان كائناً مفكراً عقلانيًا تماماً[1]. إذ أن وسائل الإستدلال الإنساني، وآلياته في التفكير عادة ما تكون طرحاً لمنظومات إدراكية معيّنة. ما زالت بحاجة إلى استكشاف لتحديد هويّتها، وفي هذه الأثناء، يتعلّق التفكير الإنساني على سقّالة محيطة بالعقلانية، بدلاً من الإعتماد عليها كلية. مع ذلك، تسير الحياة العلمية ضمن إطار التكنولوجيا التي تحث دائماً على اعتماد المزيد من آليات العقلانية الإسترشادية.

لقد ظهر قطاع الذكاء الصناعي على مبدأ افترض أنه بوجود إمكانات الحوسبة، وتوفر آليات صُنع القرار المنطقي العقلاني، فإن المنطق الرسمي العام المعروف يمكن»مكننته»، وتوظيفه وتأليله. وبالتالي صنع «آلة إستنتاجية» يمكنها أن تنتج الزبدة من المادة وفقاً لطيف واسع من البديهيات. ولتستنتج كل الإفتراضات والإقتراحات التي نحتاجها لتقود عامل الذكاء. سواء كان هذا العامل هو «روبوت» يعمل ضمن نطاق إنتاجي، أو عقلًا يسيّر لعبة شطرنج، أو مجيبًا آليًا يبحث عن الأجوبة المنطقية فيمنحنا إياها وفق تصميم مُسبق. في الحقيقة تلا ذلك تقدم كبير، مسلح بالبيانات الحقيقية من العالم الواقعي. وقدم لنا الآلة الإستنتاجية

---

(1) بحث آرنيست سوسا/ Sosa، كتاباً مهمًا في هذا الشأن يحمل عنوان؛ «مؤسسة الإدراك والعقلانية، طرح فيه أن هناك العديد من البراهين التي تشير إلى أن الإنسان أبعد ما يكون عن التوصيف بأنه «حيوان عقلاني»، والأخطاء التي يرتكبها الناس في حقيقتها ليست ظرفية ولا سطحية، هي أكثر من ذلك بكثير. إن هذه الأخطاء في العادة تكون أخطاء منظمة ومنهجية. كما أنها عميقة بعمق ما ينتج عن إساءة تطبيق قانون اللزوميات بالوجود. وتحدث في العادة بسبب المنطق المقترح، ودور التقاطع في حسم مخرجات النظرية الإحتمالية ـ المترجم.

التي تصطف مثل رفوف المكتبة. وهي تعمل على تنظيم الجواب بطريقة آلية تعطي مساحة مهمة للمنطق العاملة عليه.

لكن فكرة اعتبار العقل البشري والتعامل معه بصفته آلة حسابية كبيرة، مزوّدة بمدى واسع من قواعد البيانات، بما يمكنه أن يكون آلة استنتاجية للتحديث والإستغلال، قد سقطت ضمن أوقات عصيبة من حيث إثباتها. وهي ما سبق أن عبّر عنه دانيت بـ «نموذج الإنسايكلوبيديا السائرة على قدمين»، كتشبيه للعقل. لقد صار معلوماً ومنذ أمد بعيد، بأن مثل هذه المستويات من عقلنة وصف الدماغ البشري ستسير متثائبة في العالم الواقعي. ولن تكون قادرة على إدارة مصادرها الإدراكية لإدامة هذه الفرضية، لا في التوقيت المناسب ولا بالهيأة المناسبة.

لقد أقدم بعض العلماء الإدراكيين على الأخذ بالرواية الأخلاقية للاستدلال بأن (المنطق) ليس كافياً لوحده. ولكي تعتمد الكياسة في التصرف والسلوك، يتحتم عليك أن تزوّد منظومتك الإدراكية والمعرفية، بالمزوّدات الحسية الساندة والمعتمدة والمنظومات الذاكراتية، وكذلك المنظومات التي تعمل وفقاً للبديهة المقبولة. وكذلك حتى المنظومات العاطفية العاملة ستكون مطلوبة أن تتوفر. لكننا سعينا إلى أن نختط (كما سعى غيرنا من الباحثين) طريقة الى إيجاد استنتاجات أكثر صيغوية وجذرية.

إن المشاعر والعواطف ليست منظومات يمكن إجلاسها صفاً إلى صف إلى جانب المنظومات الإدراكية. ففي الدماغ، نجد أن العواطف والمشاعر تحكُم فعلاً وهذا نعنيه حرفيًا. كل شيء ممكن أن يصل إلى موقع السيطرة في الدماغ. وكل شيء ممكن له أن يحوز الأولوية على

غيره فيتقدم بلا توقعات. كل العوامل يمكن لها أن تتقدم وأن تتأخر وأن تشهر سيادتها، أو أن تفعل فعلها. ستتوقف وتعمل، وفقاً للمنظومة الإدراكية والمعرفية المتوافرة، والمتباينة أصلاً. يجري هذا ضمن ما يمكن أن نسميه بـ«العواطف الإدراكية». أو بصورة أدق بالوصف، «العواطف الأبستمولوجية (المعرفية)»[1].

هذه الحزمة من المشاعر، يمكن لها مجتمعة أن تحوز التأثير المشجّع على السلوك العقلي والذي يجرّ معه نوعاً خاصاً من التأكيدات العقلانية والمعرفية. لم تكن هذه هي المرّة الأولى التي تطرح بها هذه الفكرة بهذه الطريقة.

في مقالتها المعنونة؛ «في الشروحات في ضوء الأوركازم»، تطرح أليسون غوبينك/Alison Gopnik، وصفاً مشهديًا ينضوي على وعي بالإكتشاف، وعبر مصطلحات مشابهة. إذ تقول: «إننا لا نكتفي أن نعلم فقط أن لدينا تفسيراً حين يتوفر بالفعل مثل هذا التفسير، إنما نكون راغبين فعلاً في أن نحوز على التفسير الملائم. وسنكون راضين عن أنفسنا حين يتوفر لدينا مثل هذا التفسير».

---

(1) من المفيد أن نعتمد التقسيم أو التصنيف الأكثر فائدة بالنسبة للمستويات التي نعمل عليها. وهي ما تجعل المصطلح؛ «العواطف الإدراكية»، أن يختلط في استخدامه خطأ ليمتزج بالمصطلح؛ «الإدراك». وهذا الأخير عادة ما يستعمل للإشارة إلى العمليات الذهنية، سواء كانت معرفية أبستمولوجية، أو مجرد عملية منطوية على معرفة براغماتية. وكذلك نجد استخداماً لمصطلح؛ «العواطف الإدراكية العليا»، ضمن سياق الإشارة إلى العواطف التي تتطلب تقديراً إدراكيًا لأجل الإحاطة بمغزاها. وضمن ميكانيزما لإطلاق مفعولها. مثل هذه التصنيفات، لا تكون فريدة، إنما موجودة ومستخدمة. وهي تحوّر معنى المشاعر وفقاً لسياق السلوك الذي تصدر ضمنه، وعلى وفق أي ميكانيزما تؤتي أغراضها بالعادة ـ المؤلفون.

أي، وفقاً لغوبينك، سيكون دائماً هناك الدافع الذي يدفع باتجاه تفسير الأشياء. إننا (نريد) من العالم أن يتبنى المعقولية، وأن يكون معقولاً منطقيًّا. وداخل هذه الرغبة ليس فقط حزمة مشاعر دافعة. وقبل أن نبحث عن «المَرَح»، فإن دوافع العقل من أجل أن يبحث عن وجهة نظر ماكرة ودقيقة، ستكتسب العقلانية بما يكفي أن تصيب بعدواها كبرياء محتوانا المعرفي. وقد نسعى أن نحيط علماً الآخرين بما توفّر لدينا من أغراض متنوعة، لكن الأهم لدينا سيكون أن نحوز على منظومة فعالة متوافقة مع ما نفهمه كبشر عن العقلانية.

6 ـ 2. المشاعر.

لقد سبق أن قرأت في مكان ما، أن العقل هو أعظم الأشياء وأكثرها أعجوبة في هذا الكون. لكن أنظر إلى ماذا أخذنا هذا العقل!.

أيمو فيليب.

إننا نعلم لماذا ولدنا وقد كُتبت علينا خُصلة الفضول والتحرّي. إننا كما قال جورج ميلر/ Miller، ذات مرّة: «إننا كائنات معلوماتية». ويقودونا جوعنا إلى التحديث أن نملأ أدمغتنا بالمعلومات التي قد نحتاجها في يوم ما. وهذه خُصلة نتشارك فيها مع الفقاريات بشكل عام. وكذلك مع عدد من ذوات الرأس المتحرّك بشكل مدهش.

ويميل البعض من سمات هذا الجوع للتجربة أن يحيط بمواضيع محددة. على سبيل المثال، فإننا نعلم أن الغرائزية قد نشأت وفقاً للتاريخ التطوّري، حتى لو لم نكن ندرك كأفراد هذه الحقيقة. لقد تطوّرت من أجل أن تكون

فرصة المزاملة أكثر إتاحة. وذلك عبر صياغة القدرة على الحث وتكوينه، وعبر خلق دافع غير قابل للمقاومة. (ليس الأمر كمقاومة الرغبة بالتنفس مثلاً، لكن أن تتمكن من حفظ الذات بالضّدِّ من الافتراس، وأن تبقى في مأمن وتحيا بشكل صحيح، وأن تتمكن من النوم، وأن تتمكن من الصيد..الخ).

إننا نعلم أيضاً أن مَيلنا إلى تذوّق حلاوة الطعام، إنما ينبع من الحاجة الدفينة إلى اختزان الطاقة وتفضيل الطعام الأعلى بمحتواه السكّري الحامل للطاقة. لقد تطوّرنا على هذه الشاكلة.

إننا نعلم كذلك لماذا نحن سنشمئز من اللطافة المُفرطة، وقد نتصرّف بحماقة اتجاهها. لأن منظومة الإدراك الحسّي لدينا تدرّبت رؤية انحراف في وجوه الأطفال الرضّع، بما يخدمهم حين لا يجدون بدًّا من طلب الإرادة التي تخدمهم أو الرعاية والحماية. هذه الملامح تمنحهم أولولية على غير ما يحظون بها في العادة.

في كل حالة من هذه الحالات، نجد أن عمق التفسير التطوّري إنما يخدم ويعكس بُنية الحِكمة التي نستعملها في يومنا الإعتيادي. إننا لا نحب السكّريات فقط لأنها حلوة على سبيل المثال (أيّاً كان ما يعني هذا). لقد أصبح السكّر يوصف بأنه «حلو»، لأننا بالفعل ارتبطنا بهذه الصفة كما هي، وكما خدمت التطوّر. والشبّان لا يتوجهون إلى الفتيات الفاتنات المُثيرات فقط لأنهن مثيرات. إنما يتوجهون للفتيات اللواتي يظهرن بالفعل كمثيرات وفاتنات في أعين الإدراك الحسّي للشبان[1].

---

(1) الحالة المعاكسة قد تصح أيضاً. فالانجذاب الطبيعي ضمن آلية الإدراك المحسوس للأشكال المتنوعة من السمات الجندرية، هي التي تجعل الناس تتعامل وتصنفها على أنها سمات فاتنة جاذبة ـ المؤلفون.

إن ما نلمسه من لطافة الأطفال الرضّع كسمة، هي في الحقيقة شكل من التأثير المدفوع بما متوافر لدينا من غريزة التربية والتنشئة. إذ أن الموضوع بالتأكيد لا يتعلّق بكوننا نتبنى قضية اسمها التنشئة والتربية[1].

إن هذه المزاجات الثلاثة المغروزة فينا، كنموذج للجوع التجريبي، يجري حاليًا استغلالها واستعمالها من قبل أنظمتنا الحياتية التي تطوّرت ثقافيًا وحضاريًا. آثار هذه الأنظمة تنسّقت وجرى تصميمها لكي تلاقي اهتماماتنا في كثير من الجوانب. لدينا منجذبون لمشاهد التعرّي، ولدينا منجذبون إلى السكّريات. ولدينا رسامو كاريكاتير يعرفون كيف يرسمون أشكالاً من الفئران المحببة أو الدببة أو التماسيح الطريفة. ولدينا مُعلنون يعرفون كيف يستغلون ويستفيدون من هذا الميل لدينا. ويستخدمونه فعليًا في بيع أي شيء يُستهلك أو يؤكل من قبلنا.

إننا في الحقيقية نظهر مدى التشابه الكوميدي في تعرّضنا للإستغلال عبر خضوع غرائزنا المرحة وتعريضها للاستجابة.

إن كل مشاعرنا ترتكز وتعمل ضمن أنظمتنا الفسلجية العصبية، لكنها تمتلك أيضاً تأثيرات فسيولوجية خارجة عن أدمغتنا وتتعرض لها فعليًا.

وهناك العديد من المشاعر أو العواطف التي تجعلنا نتعرّق مثلاً، أو أن يسيل لعابنا، أو أن نبكي أو تتسبب في تسارع لهاث أنفاسنا. وهناك منها ما

(1) يبرز لدينا هنا شيء يستدعي التعامل بحذر زائد؛ إن الصفات التي نشخصها على أنها ملامح اللطافة، لن يجري تشخيصها هذا بصورة مستقلة عن إساءة فهمنا لطبيعة الأطفال الرضّع، أو ما يبدو عليهم من لطافة في الملامح. ما يبدو أنه لطيف. فما نكتشفه من «لطافة»، هو في الحقيقة نوع من التأثير الذي حل في وعينا التطوّري، وصرنا نقدّره على أنه نوع من اللطافة ـ المؤلفون.

يتسبب في رفع ضغط دمنا. أو قد تنقبض بعض العضلات أو تنبسط. هذه التأثيرات ببساطة هي نتيجة إعمال عملية الإنتشار الداخلي للهرمونات والمُعدِّلات العصبية وتفعيلها. عملية انتشار الهرمونات هذه تكتسب هويّتها المتميزة في حالة المدّ والجزر. وهي مسألة يمكن أن نستنتجها بشكل مباشر (عبر ملاحظة بعض من تأثيراتها الداخلية، مثل إندفاعة الأدرينالين، أو أن تكون هناك إنغمارة من الأوكسيتوسين تطوف بالجسم). أو بشكل غير مباشر عبر ملاحظة التأثير الخارجي، علينا أو على الآخرين[1].

ظهرت نظرية وليام جيمس/ William James المعروفة في مجال المشاعر، لتلاقي التأثير الفسيولوجي للمشاعر التي تتولد نتيجة أحداث ومؤثرات وإدراكات معيّنة. وليترتب بعد ذلك نموذج من الكاشف المُتحسس، بما يمنح المشاعر وزنها الظاهراتي، وقدرها في مجال التأثير النوعي.

نوعية هذه المشاعر ومستواها على صعيد كونها ظاهرة، بما يسمح أن نقيّم تساوقها بين نوبة وأخرى. فلو كنّا سنتفادى ظهور الاحمرار في أوجهنا مثلاً، فكيف سيكون شكل الإحراج على سبيل المثال؟.

جيمس ولانج، يقولان بأن نوع المشاعر هنا لن يكون نفسه أبداً، ولن

---

(1) لنلاحظ أن إحساسنا الظاهراتي يتوفر لدينا عبر أجسادنا، يختلف تماماً عن وصف تلك المدارك التي تستهلك الكثير من الكلمات واللغة. فهناك وفرة هائلة من المستشعرات العضوية الداخلية التي يمكنها أن تنقل «مشاعر» مختلفة، عبر أحداث سايكولوجية مختلفة. (على سبيل المثال، حدوث عملية إعتراض لثاني أوكسيد الكاربون في مجرى الدم، أو ما سبق وصفه من سلوك لمستويات الأوكستوسين، أو الإيبينوفرين في الجسم) ـ المؤلفون.

يشبه شيئاً آخر تماماً. إن هذا الموقف، هو انعكاس آخر لما نسميه الحكمة المستعملة في أداء أفعالنا اليومية من قبل وعينا وإدراكنا. إننا لا نبكي لأننا حزانى، ربما يكون هذا التعبير مفرطاً في التبسيط. لكن الفكرة التي تمر بنا هي من تجعلنا نبكي.

وجادل البعض بالضد من هذا الموقف التفسيري، وقالوا بأن من الممكن جداً أن نعاني مشاعر واسعة دون أن يكون هناك استجابة سيكولوجية (الغيرة، الحسد، الشعور بالذنب مثلاً). يعني، أن لا تظهر نتيجة توافر هذه المشاعر أي قراءات فسيولوجية أو حتى سريرية.

وكان هناك من الباحثين من تحدّى وجهة نظر جيمس ـ لانج، بأنها تؤكد أنه مهما اشتد تأثير الضغط من الأوتار الداخلية العاملة في المشاعر، فإنها لا تعطي إشارة إلى أن تكون بديلاً عن السلوك. وإن هذه التغيرات الفسلجية المتوازية الحدوث يمكن أن تقود إلى مشاعر مختلفة.

ومن وجهة نظرنا، فقد نجح جيسي برنز/ Prinz في تأطير وجهة نظر جيمس ـ لانج. وطرح أيضاً أن الغيرة التي يشعر بها الفرد على سبيل المثال يمكن أن تكون عبارة عن مشاعر في غير محلها تُشعر الفردَ بأنه على منصّة الغيرة، وليس هو بالفعل في حالة غيرة. مثل هذه الإساءة في التقدير (أن تشعر بأنك في حالة ما لكنك لست فيها، وليس هناك دواع لأن تكون ضمنها)، تدفعنا على سبيل المثال إلى اعتناق الأمل في أحبتنا رغم عدم وجود إشارة حقيقية على ذلك. وأن نتمنى أن يعودوا إلى منازلنا مساءً بمشاعر حُب متجددة، إلّا أن هذا لا يحدث. ولا سبيل لتفادي تلقي نتائج فسلجية كعاقبة في النهاية.

ونجد أن توسعة نموذج نظرية جيمس ـ لانج، على سبيل المثال من قبل برنز الذي وصف المشاعر بأنها؛ «التقييمات المكرّسة مُسبقاً»، جادل بأن المشاعر هي دورة إعادة تغذية بالمعلومات لا تحدث في الدماغ فقط، إنما عبر باقي أجزاء الجسم كله. وبعضها ينجح في تحفيز قضايا تتعلق بأحداث إدراكية سبق أن مررنا بها، وهو ما يؤدي الى إطلاق الهرمونات داخل الجسم. هذه الهرمونات بدورها ستخلق تغييرات فسلجية تترافق مع استقبال حسّي عميق. وتصبح جزءاً لا يتجزَّأ من إدراكنا لمحسوسات ذلك الحدث.

ويكون لهذه الدورات والمسارات الدائرية، صفات نقية لا تستطيع الأنظمة المُخيَّة حصرها ضمن هيمنتها. وأولى هذه الصفات المهمة هي صفة «الوقتية». فالمشاعر تمتد عبر الوقت، وتتعلق به. وتنطلق المؤثرات الحسّية كدالة للوقت. بل إنها تتوسع عن نطاق الوقت الذي حدث فيه الحدث، وتتجاوزه. المشاعر في العادة تستغرق وقتاً أطول بشكل ملحوظ من الحدث الذي تسبَّبَ في إثارتها وإطلاقها فسلجيًا (يؤلمنا حدث ما أو كلمة سمعناها من شخص ما، فنحزن لسماعها لمدّة أطول بكثير من الثواني التي قيلت فيها).

ثاني الأشياء المهمة، إن المشاعر دائماً ما تكون ذات «تقديرية نسبية». وقد تكون إيجابية، أو سلبية[1]. النسبية هنا، تعني أن الأحداث التي نعيها

(1) إن التأثيرات الفسلجية للمشاعر، ومدى توقع هذه التأثيرات، هي قضية قسرية مفروضة، لا اختيار فيها. فإذا حدث التأثير العاطفي وتحرّكت المشاعر، فستشعر رغماً عنك. لكن السلوك المرافق لهذا الشعور، سيكون على الأقل شبه قسري، وليس مفروضاً تماماً. مثال ذلك، حين نكون إزاء مقادير مختلفة من الألم (أو حتى السرور)،

وندركها خلال دورة رجع الصدى هذه، لن تكون مجرّد أشياء تنفعنا أو تضرّنا. ولن نفهمها هكذا أبداً. لكنها بدلاً من ذلك ستبدو لنا وكأنها أحداث «جيّدة»، أو «سيئة»، تبعاً لتلك الأسباب.

ـ ولأغراض وإعتبارات جدلية، قد جرى التعامل مع الألم كصنف من صنوف المشاعر. Gustafson 2006, and Vogt 2005. ـ المؤلفون.

ومع وجود رجع صدى نسبي من هذا النوع، ستكون الأحداث «الإدراكية المجرّدة» (مثل حضور مشهد موت، أو متابعة طفل ينجح على خشبة المسرح)، يمكن أن تكون حدثاً مؤلماً أو سعيداً، تبعاً لنفس الطريقة التي تجري عبرها الأحداث الجسام وتكون مؤلمة أو باعثة للسرور (مثالها، الأوركازم، أو التورّط في مشهد غريب، أو المرور بحالة من الرضى). بعبارة أخرى، فإننا سنعرف «قيمة» الحدث، لأن هناك تداعيات فسلجية في الجسم تتلو حدوثه[1].

وفي ظروف غريزية كثيرة، نجد أن الألم والسرور يؤثران بشكل مباشر (مباشر مادياً) في الجسم. مثال ذلك، النشاط الجنسي، أو الإجهاد، أو أكل الطعام. وضمن دورة رجع الصدى المشاعرية، يتطلب في العادة عملية تقديرية سريعة، لتقييم الوقائع والوضع الراهن. وإشعار النظام المشاعري، وبالتالي تقدير ردّة فعل الجسم النهائية.

تختلف في شدّتها، فبالتأكيد سيكون لها زخم يدفعنا إلى التصرّف. لكن طالما هي في داخل دائرة التأثير، فسيكون لدينا ردود أفعال براغماتية. يعني، ليس بالضرورة أن تتوحد ردّة الفعل إزاء كل شدّة معينة من الأحداث والمؤثرات ـ المؤلفون.

(1) ولأغراض وإعتبارات جدلية، قد جرى التعامل مع الألم كصنف من صنوف المشاعر. Gustafson 2006, and Vogt 2005. ـ المؤلفون

وبهذه الطريقة يتحوّل غير المحسوس إلى شيء محسوس فعلاً. وهو شيء كان من الممكن فقط أن يخضع لتقدير إدراكي قبل الآن. والآن أصبح يمتلك قيمة مضافة مؤثرة وواضحة. وبلا مجاز، يمكننا القول بأن متابعة المشاهد الإفتتاحية لفيلم «إنقاذ الجندي رايان» على سبيل المثال، بإمكانها مثلاً أن تضرب لنا تجربة «غرائزية» مكتملة.

صار من المعلوم جيداً أن الدوائر التي تستجيب للخطر وتتلمسه قبل حدوثه، يمكن لها أن تنزلق إلى أن تطلق ردّة فعل مبنية على إدراك بطيء. وهو ما يمكن أن يشعل إنذاراً غيرصحيح. وربما يلغي عملية إندفاعة الأدرنالين من جذرها بعد أن كانت متوقّعة الحدوث. قد يحدث هذا إن لم يكن ثمة خطر ما.

قد يحدث هذا عبر وخزات عاطفية غير محسوسة، رغم ذلك فهي تبقى حاملة للدافع المحرّك. المشاعر، بشكل عام، يجب أن يجري الإحساس بها. لكن هذا لن يكون حقيقة عبر مجرّد تعريفها لذواتنا أو ضمن إطار محيطنا العامل. يحدث هذا لأن هناك عمليات أساسية متشابهة، تقبع تحت حد العتبة لما يمكن أن نلحظه.

هذا التعريف للمشاعر قد يأتي معاصراً لتعاريف أخرى جرى نشرها وتصنيفها. لم يقدم فرنز على سبيل المثال تصنيفاً للمشاعر، بل إن نموذجه لا يتفق مع ما نطرحه هنا من تصنيف وفقاً لمبادئ العمل والتأثير. فهو ينظر إلى الألم، والرغبة، والجوع على أنها حالات دافعة ذاتية. لكن ليست بوصفها «مشاعر».

6 ـ 3. العقلانية في المشاعر.

إننا في الحقيقة بحاجة إلى تغيير هذا الإنفصام في الإدراك من جهة، ووضع المشاعر من جهة أخرى. وأن ندرك أن مشاعرنا هي الوقود الذي يغذي سلوكنا الاجتماعي. لكن علينا أن ندرك أن هذا يحدث ضمن مستويات مختلفة من الذكاء.

ستانلي غرينسبان.

إن كلا الكلمتين الإنكليزيتين، المشاعر/ emotion، والدوافع/ motivation، قد اشتقّتا من ذات الجذر اللاتيني/ movere. وهو ما يعني؛ «أن يتحرّك ـ أن يدفع ب». وهو ما يعني توفر إدراك مبكّر يشير إلى أن المشاعر هي عبارة عن دوافع في ساحة الفعل.

ولقد اختصت عدد من النظريات الحديثة بشأن المشاعر في أن تفسر الغرض منها في أن يكون هناك دافع بالأصل.

يرى زايونس/ Zajonc، أن عدداً من أنواع المشاعر تبدي ميلاً إلى أن تسلك سلوك المحفّز، كلّما تقاربنا إلى الأشياء بطريقة أن نحبها أو أن لا نحبها. ثم تظهر فينا ميلَ أن نقترب أو نبتعد من تلك الظواهر.

بينما استعمل فريدا/ Frijda، مصطلح؛ «الميل نحو إتيان الفعل»، ليصف المشاعر الخاصة بشيء يزداد في إحتمالات حدوثه، أو يصف سلوكاً معيّناً نقترب من إتيانه.

وجادل برنز من منطلق مشابه، حيث قال بأن المشاعر المعنية المستهدفة

(التي تقع عليها المهام)، لا يجري تقييمها من منطلق نوعيتها، بل من ناحية نسبيتها. ومن الواضح أن علينا هنا أن نوضح أن فكرتنا عن المشاعر إنما تستند إلى هذه الطروحات. المشاعر التي نعني بها الألم، والسرور، والتي لا تختلف في المحصلة عن الجوع، والرغبة، وغيرها.

وبما أننا قد أطّرنا هنا المشاعر العليا، ضمن نسق من رجع الصدى الذي تؤثر عبره، والذي يأتي كتقييم متكافئ مع المحتوى الذي نميّز به أصلاً هذه المشاعر، يمكن لنا أن نرى ونلحظ أن تأثيرها على السلوك والذي سيكون شبيهاً إلى حد كبير بكونه نوعًا من العوائد الخارجية المُنتفع بها. أو حتى العقوبات المتأتية منها. تبقى المشاعر حائزة على القوة بسبب قدرتها على منح العوائد والفوائد، وأن تجازي منظومة التعلّم التي نمارسها. وبطريقة المجازاة بالألم أو بالسرور، كلتا الحالتين متوفرتان سوية.

طرح إدوارد ثورندك/ Thorndike، ما سماه؛ «قانون التأثير»، وهي فكرة أن المجازاة أو العقوبة، ستزيد أو تنقص من إحتمالية تكرار حدوث السلوك المتعلّق بالمشاعر. وهو ما يطبّق مباشرة وبشكل متساوٍ على الأحاسيس المتداخلة، أكثر مما يفعل اتجاه الأحاسيس المباشرة.

هذه الفكرة ستأخذ الميل بالسلوك إلى أن يتعرّض إلى التعديل في رجع صداه إلينا على شكل عوائد، مثل الطعام، والميل إلى السكّريات، أو الرغبة بالكوكايين. ربما لا يحتاج هنا أن نضبط أي نوع من أنواع الدوافع والمحفزات، حين نرى أن المشاعر تئن على أوجهها وتطلب ما تريد.

لقد جادل ثورندك بأنه لو كانت مُنحنيات مؤشرات التعلّم

مسطّحة[1] (وهو ما وجد فعلاً)، فلن يكون هناك حاجة إلى وضع صياغات تفصيلية عن الحياة العقلية لأجل فهم سلوك الحيوان مثلاً.

أما التعلّم المُعزز لوحده، فقد يضطلع بتفسير ما يجري، طالما أن العوائد تزيد من احتمالية حدوث ذات السلوك، ضمن نفس السياقات. وهو عمل تَمكَّنَ هيرنشتاين/ Herrnstein لاحقاً من وضع قواعد وصياغات رياضية كاملة له.

إن الحالات الإستثنائية والطارئة في البيئة، وانتظام العواقب والعوائد، ستهيكل الميل السلوكي للحيوانات. وستعدّل كل تحسس موروث إلى جعله ردّ فعلٍ سلوكي محدد. كما ستمنحها منظومة تربط بين العوائد والعواقب لكل نوع من أنواع الأحداث.

وتحت هذا النوع من أنواع القواعد، فإن المشاعر باعتبارها شكلًا من أشكال الدوافع، ستكون نوعاً من العقلانية.

إنها ستوجّه سلوكنا. وستوجهه في اتجاه سيكون هو الأفضل في عوائده ونحو اتجاه أكثر معقولية ومنطقية في محتواه. أو أن التطوّر سيتولى عقابهم بالفناء والإنقراض.

تعرّض فرانك/ Frank ضمن بحثه لإيضاح هذه الحالات وغيرها، وذلك عبر حساباته التطوّرية التي أخذت بنظر الإعتبار تسليط وجهة نظر إقتصادية اتجاه العواطف. وقد طرح أن المشاعر كلّها قد خضعت

(1) المقصود بالتسطيح، هي أن مستوى تعلّمنا واكتسابنا الخبرة (المنعكسة على السلوك حصراً)، لا يتعرّض إلى ذبذبة قوية في العادة، بل هو يسير بنفس النسق تقريباً طوال حياتنا ـ المترجم.

للإنتخاب الطبيعي كوسيلة لخلق فوائد سلوكية أعلى وأكثر فائدة للفرد. وإن هذا الفرد ما كان سيختار هذه السلوكيات لولا أن اضطرته العواطف إلى تبنّي هذه النظرة النفعية المُحددة.

ويقول فرانك، إن الحب والشعور بالذنب كنوعين من المشاعر على سبيل المثال، ما هي إلّا حلول لـ«مشكلة الإلتزامات»[1]. ولنتذكر إن «مشكلة الإلتزامات»، تبرُز حينما، «تكون ضمن دائرة إهتمام الشخص أن يتملّك التزامات ترابطية تجعله يتصرّف بطريقة ستظهر لاحقاً إنها بالضّد من مصالحه الشخصية».

إن المظنّة بأن الشريك المرتقب للشخص، قد يكون يفتش عن خيار أفضل غيره، أفضل من الشخص نفسه، قد يتسبب في إنتاج حالة يكون لدينا فيها شخصان في سوق البحث عن شريك، يتمتعان بالقدرة المنطقية التامة، ويعملان بمنطق تام، لكنهما غير قادرين على إيجاد بعضهما البعض.

---

(1) من أجل إلقاء المزيد من الضوء على معنى مصطلح «مشكلة الإلتزامات»، إنها حالة يكون فيها الفرد غير قادر على إنجاز أهدافه، بسبب من عدم القدرة الذاتية على تسليط تهديدات معينة أو تنفيذ وعود بعينها. يضرب لهذه القضية مثال ما يسمى «معضلة السجناء». التي تفترض وجود سجينين شريكين في جريمة ما، ويخضعان للتحقيق. ولو تمكن الإثنان من غلق فوهيهما تماماً لضمنا أن ينالا أقل العقوبات أو البراءة، لكن هذا لا يحدث. وخلال سير التحقيق، ما أن يكونا في غرفتين منفصلتين للاستجواب، ودون معرفة أحدهما بما يقوله الآخر، ستسيطر عليها ستراتيجية واضحة وهي الإعتراف للخلاص والحصول على أوطأ العقوبات. عرفت عصابات المافيا هذه الحقيقة، وقد حاولت تغيير قواعدها عبر ما سمي بـ «عهد الصمت» داخل شبكاتها. وقد ضمنت المافيا سُمعة قوية لهذا العهد، عبر إقناع الجميع بأن من يخرق عهد الصمت، سيناله عقاب الموت بأبشع طريقة، وأينما كان فإنّهم سيصلون إليه. وقد يمتد هذا العقاب إلى أفراد العائلة والأقرباء من الشخص المفشي أو الواشي ـ المترجم.

يأتي هنا تغيير السلوك ليعطي نوعاً من الحل. فإظهار المبالغة في المشاعر المتيمة، و«الوقوع في الحب» ستكون ضمانة لصمود الفرد، لكنها تعمل كضمانة فقط؛ لأنها تبدو في عين الآخر وكأنها سلوك لا عقلاني وخارجُ سيطرة الفرد. وبالتأكيد، فبلا هذه المشاعر ستغدو المغازلة والمقاربة أمراً متفشياً بين الجموع وتفقد خصوصيتها.

مشاعر الحب ستكون نافعة وتؤتي نتائجها وعوائدها بالنسبة للفرد، فقط إذا نجح في تصويرها للآخر (الشريك المعبّر له بها) على أنها خارجة عن العقلانية.

أما الناس الذين سيعانون من مشاعر الطيش، بدلاً من إظهار مشاعر الإمتنان والتزاماته وإظهارها، فإنهم لن يقدموا على ذلك بسبب من التأثيرات الفسلجية لمشاعر الغبطة، التي لا تشبه مُعطيات الحب الشائعة بين الناس، أو التي اصطلح الناس على أنها تعبيرات عن الحب.

هنا ستكون الفائدة لجيناتنا، أنها ستدفعنا إلى أن نجرّب هذه المشاعر الدافعة إلى المزيد من الإلتزام اتجاه وحدة العائلة ـ وهو نوع من الإتفاق الاقتصادي المُضمر الذي يضمن ديمومة أنسالنا. إذن في النهاية سنصل إلى وجود «مصلحة»، متمثلة بوحدة العائلة خلف هذه الميكانيزما من عمل المشاعر، والتبادل الدوري بين السلوك والتأثير، وسيجري تغيير هذا السلوك بفعل التجربة.

مثال آخر يظهر في سرديات تريفرز/ (1971) Trivers. عن «الإيثار المتبادل». إنه تلك المشاعر المتعلقة بالشعور بالذنب، التي أكدتها فرضيات فرانك. والتي تعني تثبيط الخيانة الإجتماعية وعدم تشجيعها. وكذلك تشجيع عدد من السلوكيات التي تخلق قيمة إجتماعية مستقبلية

مضافة (ترفع من رأس المال الإجتماعي للفرد عبر ظهور مصطلح السمعة). هذه القيمة المضافة تتخطى المزايا الزائفة قصيرة الأمد التي توفر الخيانة والشعور بها وتغري بها. إنك لا تسرق عشاء جيرانك في غفلةٍ منه، لأن التعاون مع جيرانك سيكون له مزايا أفضل على المدى الطويل. والتعاون معه سيمنحك الكثير بما هو أكثر من مجرد عشاء تسرقه ليوم واحد. لكن وفقاً لنظرية فرانك، فإنك لست بحاجة إلى مثل هذا الإحتساب في الفوائد والمزايا، إنك فقط ستشعر بالذنب اتجاه «الفكرة» التي تقول إنك ستسرق عشاء جيرانك.

إنه التطوّر الذي زوّدك بأغلب ما تمتلك من حسابات إجتماعية وراكمها لديك. وهو ببساطة من سيتولّى إشعارك بالذنب، وأنت بلا انتظار أو تأخير ستتولى تنفيذ الباقي من عمل هذه الميكانيزما.

إن كل نوع من أنواع المشاعر سيستولد مجموعة متعلقة به من السلوكيات، التي ستستولد بدورها مزية أدعى للبقاء أطول. وهي مِزية في بعض الأحيان غير قابلة للقياس عبر مُتحسسات الفرد العضو الواحد. لكن يمكن حسابها أمام تقييم البديل أو النظير، وهو ما قد يظنّه الفرد على أنه «مِزية» في الأمد القصير من الفوائد.

6 ـ 4. اللاعقلانية في المشاعر.

إن الحب مثل قيمة باي/ π (النسبة الثابتة) في الرياضيات. فهي قيمة طبيعية، وغير عقلانية، ومُهمة للغاية!.

ليزا هوفمان.

لا شيء يفسر السلوك البشري مثل محاولة الإنسان ملاحقة عوائد (مكافآت) كي يحصدها. مرتبطة بظاهرة، ولن تكون مثمرة بالنسبة له على أكثر الإحتمالات. هذا هو المبدأ الذي يقف خلف استمرار عمل اليانصيب أو محاولات المواعدة أو الدين.

سكوت آدم.

سبق أن ناقشنا في ما سبق أن المشاعر تفسّر على نطاق واسع على أنها دوافع عقلانية تشجعنا على القيام بالفعل الصحيح والمناسب في التوقيت الصحيح والمناسب. والهدف منها أن نوازن بين كل متطلّبات البقاء والتكاثر التي نواجهها التي قد تتعارض فيما بينها. مفترضين إننا نعيش تقريباً في نفس البيئة التي عاش فيها أسلافنا وخضعوا فيها لعملية الإنتخاب الطبيعي.

وبفضل المشاعر المرافقة للإرهاق الجسماني، أو القلق العقلي، فإننا نعرف أين نصرف طاقتنا، وأين نُحجم عن صرفها ونذخرها لأفعال أخرى. أكثر من ذلك، فالجوع يخبرنا متى نلتمس المزيد من الطاقة. وكذلك العطش يخبرنا متى يتحتم علينا أن نرتوي من الماء والشراب. والخوف يخبرنا متى علينا أن نهرب وننجو بأنفسنا.

ومن الطبيعي أن نجد أي فردٍ وقد تمكن من حل هذه المسائل، سيكون قد تغلّب على عدد كبير من تحديات الوجود المهمة التي تواجهه كإنسان في بيئته.

ولو جمعنا وجهة النظر هذه مع ما طرحه فرانك من تفسيرات، فإننا

سندرك أن المشاعر السطحية غير العقلانية، مثل الحب الرومانسي، أو حل المزيد من المآزق الأكثر تعقيداً مثل مشكلة الإلتزام، فإن الفرضية الناتجة ستسمح لنا بالمزيد من الاندماج الناجح في البيئات الإجتماعية التي حولنا حتى لو كانت أكثر تعقيداً وتفصيلاً.

وهنا نطرح أن أكثر المسائل تعقيداً ـ حتى تلك التي تحتاج إلى عقل منفتح إلى ما لا نهاية وتفكير لا ينتهي ـ سيكون من الممكن إيجاد حلٍّ لها باستخدام مجموعة معيّنة من المشاعر؛ الفضول مثلاً، أو الملل، أو الشك، أو الإرتباك، أو المَرَح..الخ.

وبالرغم من كل هذه الوسائل الجيدة لضبط السلوك التي منحنا إياها التطوّر، فإننا ما زلنا أناساً غير عقلانيين إلى حدٍّ ما.

فبعض المشاعر تجعلنا نتصرف بطريقة تبدو وكأنها مبالغ فيها. وبعضها سيجعلنا نتكبد خسائر لا تساوي الأرباح المتأتية منها.

فاندلاع العنف المتطرّف الذي تقف الغيرة أو الغضب خلفه. أو الانتحار على خلفية الشعور بالضعف والنفسية كسيرة القلب، هي أمثلة حاضرة لنتائج هذه المشاعر. أن تنتهي إلى السجن بسبب قتل شخص وجّه إليك شتيمة، يبدو أمراً لا مبرر فيه. لكن لو استحضرنا الأمثلة عبر التاريخ، وصولاً إلى أيامنا الحاضرة فسيبدو لنا أنه ليس هناك من قانون يحكم هذه التبعات والمآلات. لكن واحدة من التفسيرات لهذه اللاعقلانية الظاهرة قد تذهب إلى الإشارة نحو البيئة التي تطوّرت فيها المشاعر على أنها لم تكن تشبه البيئة التي نعيشها الآن. والإجابة الأفضل، حسب ما نرى، أن تلك المشاعر قد تحمّلت بين حين وآخر كُلفة المبالغة في ردّ الفعل، لكن

بعض الفائدة تراكمت مع مرور الزمن، تبيّن أنها في الظروف المعتادة يمكن أن تفوق تلك الكُلف التي تكبدتها بين حين وآخر.

إن المبالغة في ردّ الفعل هي نوع من أنواع اللاعقلانية السلوكية، لكن هناك ما هو أكثر إنتشاراً ـ وبالتالي أعلى في أهميته ـ من الطرق التي نتصرّف فيها بطريقة لا عقلانية.

إننا قد نماطل بيأس حين يكون لدينا عمل مهم. أو إننا ندخن السجائر من علب مرسوم عليها رئة مصابة بالسرطان ومكتوب عليها السبب. أو قد ندمن المخدِّرات والمشروبات ونجلس لنتفرج عليها وهي تدمّر مستقبلنا المهني وعوائلنا وحياتنا الاجتماعية. أو إننا نغش في برنامج حميتنا في الطعام. أو أن نفشل في توفير المال للمستقبل. أو أن نخون أزواجنا وزوجاتنا. وقد نقامر بأموالنا التي عملنا بكد من أجل تحصيلها، رغم أننا نعرف أن الأرجحية تميل لخصومنا، فلماذا لم تزوّدنا الطبيعة والتطوّر بالتكوين المبني على المشاعر المناسبة التي يمكن أن تمسكنا عن الإندماج في مثل هذه السلوكيات المدمّرة؟. ونلاحظ هنا أن بعضاً من هذه الأشياء، مثل الكوكايين أو الحِمية التي نحتاجها، هي تحديات بيئية جديدة نسبيًّا. لكن هذا ليس هو السبب الأساس.

إن الخيانة أو المماطلة هي مشاكل قديمة ومتكررة منذ عصور. لكننا قد نسبناها حديثاً إلى المشهد التطوّري، وهي آلية كفيلة بحل المشاكل. لكن طالما هذه المشاكل لا تمثل تهديداً حقيقيًّا وملحوظاً للقدرة على التكاثر والإستمرار، فإنها ستبقى بشكل أو بآخر. ومع ذلك نقول إن هناك جواباً أكثر إقناعاً وهو؛ إن هذه المشاكل ببساطة لا يمكن حلّها.

إن كلًّا من الأمثلة التي ذكرناها قد نتجت عن عملية هرب أو فِرار أو مطاردة. لكنها بالضرورة نتجت عن وجود «رغبة» تقف خلف استمرارها. هذه الرغبة تشارك عمليًا في نظام الاستكشاف الذي يوازن في إدارة الموارد والسيطرة عليها وتقسيمها وفقاً للاستهلاك والوقت لأجل تنفيذ أهداف ضرورية مختلفة.

إن لدينا كل أنواع الإدمان؛ المقامرة والمخدِّرات والكحول، كلها معروفة بوضوح أنها نشاطات إدمانية. أمّا المماطلة فهي إدمان على الكسل؛ وهو ستراتيجية فعالة للحفاظ على الطاقة. أما الغش في الحِمية، فهو إدمان على المُتعة التي يحملها مذاق الطعام، وبخاصة الغني بالسكريّات والدّهون. أما الخيانة الزوجية فهي إدمان على أنواع مختلفة من المشاعر الإجتماعية والجنسية.

أما الإسراف في صرف الأموال قد يكون إدماناً على أشياء مختلفة. إن النقطة الجوهرية هنا أن كلًّا من هذه السلوكيات يجب أن يكون مدفوعاً ويدفعنا إلى إتيانه، لكن ضمن نطاق مُعتدل، لا يحمل الضرر الجسيم لنا ولا يهدد بقاءنا، إذ إن هذا هو المحرّك الأساس للتطوّر، البقاء على قيد الحياة والاستمرار في التكاثر عبر توفير الأسباب والمزايا. لكن حين يضيع الميزان لهذه السلوكيات، عبر تقييم غير مناسب فإننا سنتصرّف بسلوك يوصف بـ «اللا عقلانية».

إن الإنسان يختار التصرّف المناسب في ظروف اللا يقين. لكن هذا الأمر يتطلب عملية اختيار مبنيّة على الإستكشاف والتساؤل (عملية إسترشادية). والعملية التي تعدُّ جيّدة من هذا النوع ستعطي مقاربات وتقديرات جيّدة في معظم الأحيان. لكن في حال وجود مُحددات (مُحددات في أصل تصميم

القُدرة الدماغية) وهي المساحة التي سيحدث فيها الفشل، فهذه العملية ستعطينا نتائج فقيرة من ناحية التنبؤات أو التقديرات، ستكون فقيرة حتى من ناحية التشخيص المرضي.

إن المشاعر تكون دائماً خاضعة للعقلانية، لكن المنظومة تمارس دور الدافع الإسترشادي الذي يوجّه السلوك. وهي تشتغل في العادة في ظل توافر معلومات غير مكتملة؛ وعليه فإننا يجب أن نقبل بحقيقة أن المشاعر ستُفشلنا بطريقة ما. ومثلما يحدث في حالات المبالغة بردّ الفعل أو الإدمان، وهي عمليات لا يمكن عكس اتجاه سيرها وتفاقمها، فهي تحدث حين تحدث.

تأتي دراسات جورج إينسلي/ Ainslie [1] في مجال (المبالغة في إساءة التقدير)، لتشكل مقاربة بحثية رائعة في المجالات التي يفشل فيها نظامنا العقلي، لكنه يظهر لنا كيف أن دماغنا تمكّن عبر الزمن من مُراكمة الحِيل التصحيحية. هذه الحيل ـ حين تعمل بشكل صحيح ـ فإنها يمكن أن تخفف بعضاً من المطبّات غير الملائمة في منظومتنا المسيطرة على المشاعر. إن هذه الحيل أضحت هدفاً مفضّلاً هي الأخرى للفكاهة. ولهذا، فإننا حين نضع الرهانات أمام أنفسنا وبالضد من الإغراءات التي تعارض المصلحة المميزة عبر آليات العقلانية، فإننا في الحقيقة نغيّر من مهام عملية السيطرة على الذات.

---

(1) كتابه؛ (Ainslie، G. 2001. Breakdown of Will. New York: Cambridge University Press).

فَقَدَ مُزارعٌ قطعة نقديّة من فئة ربع دولار، سقطت منه في حفرةٍ عميقةٍ مليئة بالقاذورات. فسأله رفيقه؛ «ماذا ستفعل؟». فأجاب المُزارع؛ «سأنزل لجلبها طبعاً». وقبل أن ينزل بالفعل، أخرج من جيبه ورقة من فئة دولار واحد ورماها في الحفرة خلف القطعة المعدنية. فسأله رفيقه؛ «ماذا فعلت بحق السماء!». فأجاب المزارع: «هل تظن أنني سأنزل إلى هذه الحفرة المليئة بالقاذورات فقط لجلب ربع دولار!».

إن كانت سُبل العقلانية والمنطق التي نستعملها لخلق استنتاج ما، هي في واقعها حصيلة عملية سيطرت عليها المشاعر، إذن فإن معتقداتنا نفسها هي الأخرى تعتمد على هذه المشاعر.

حتى المعتقدات الأبعد عن يد التعديل ـ فكرتنا عن شكل العالم الخارجي المحيط بنا مثلاً وهي الأكثر ثباتاً في مساحة إدراكنا ـ فإنها تعتمد على دور المشاعر إلى درجة أنها يمكن أن تشوَّش أو تنحرف لو أثّرت فيها بقوّة مشاعر غير متوازنة.

وكذلك يأتي تأثير التفكير المتفائل ليكون تأثيراً مباشراً في الأعصاب البصرية أو السمعية. هذا يعني، إننا لو قلنا إننا نعتقد بصحّة شيء ما بشكل قطعي، فيتوجب علينا القول إن المعلومات التي مُررت بنجاح عبر أدمغتنا دون أن تطلق تأثير مشاعر الإرباك، أو مشاعر الفكاهة، لكنّها قد تكون أطلقت الإحساس البصري لدينا، كل تلك العملية جعلتنا نستنتج ونقطع بصحّة هذا الشيء. وكخلاصة يمكن القول بأن القدرات الأبستمولوجية الإنسانية هي قدرات خاضعة للمشاعر، أو بصورةٍ أدق هي قدرات مشاعر الإنسان بالدرجة الأولى.

6 ـ 5. خوارزميات المشاعر.

إن العقل دائماً ما يُنظر إليه على أنه عضو ثلاثي الأبعاد والمتجهات. عضو يحتوي على ميزات يختص بها، لكنها ميزات متفاعلة فيما بينها. ومن هذه الميزات المتفاعلة هي؛ عمليات الإدراك، والمشاعر والعواطف، والإحتواء والإرادة.

إن العلوم الإدراكية ركّزت بشكل كامل على أولى هذه الإمتيازات وهي؛ معالجة المعلومات التي تسمح بحدوث الإدراك وتلقي المعلومة المحسوسة. وكذلك على تصنيف الأشياء والأفعال إضافة إلى القدرة على اتخاذ القرار على أسس عقلانية.

لكن هذه العلوم أغفلت بصورة كبيرة دراسة المشاعر والدوافع، وتركتها لعلماء السايكولوجيا، بل حتى للباحثين الإقتصاديين كي يفسّروها كما يحدث مؤخراً.

وكان جوزيف لودو/ LeDoux، على سبيل المثال أحد الذين شخّصوا قِصر النظر هذا إذ يقول؛

«إن العقل الذي تنمذجه العلوم الإدراكية على سبيل المثال، يلعب الشطرنج ببراعة، ويمكن أيضاً أن يُبرمَج مسبقاً لممارسة الغش علاوة عن اللعب بشكل بارع. لكنّه عقل لا يشعر بالذنب حين يغش، أو إنه قد ينجرف بسبب مشاعر الحب، أو أن يخضع لسيطرة مشاعر الغضب أو الخوف. فهو عقل لا هو بالخاضع والمدفوع من ذاته بدافع التنافس، ولا هو مما تؤثر فيه محرّكات الغيرة أو الشفقة أو الحسد. إذا كنّا سنفهم كيف أن العقل قد جعلنا على ما نحن عليه الآن عبر أداته الفيزيائية الموجودة (الدماغ)،

فيتوجّب علينا أن نأخذ بنظر الإعتبار (كل العقل)، يعني كل متعلّقاته، وليس مجرّد أجزاء ومساحات مستقطعة من التفكير الداعم».

لقد كان الاعتقاد السائد هو أن الذكريات عبارة عن صور كاملة وتامة نحتفظ بها في عقولنا لجميع الأشياء والأحداث التي مرت علينا. ولكن إذا كان الأمر كذلك، فقد تَنفَد سعة الذاكرة في الخلايا العصبية المسؤولة عن تشكيل أدمغتنا والتي تعد بالمليارات (بحدود 10 مليارات خليّة عصبية)، وذلك قبل وصولنا إلى مرحلة البلوغ بوقت طويل. وتفتقر الذكرى للكمال، وهي لا ترتبط فحسب بالشيء الذي نقوم بتخزينه ولكن تعتمد أيضًا على الطريقة التي نسترجع بها هذا الشيء، مثلما سترتبط بمشاعرنا المصاحبة للظرف الذي تخزّنت فيه تلك المعلومات. يقول لودو أيضاً: «على الرغم من أن الذكريات قد تكون قويّة وحاضرة، فإنها لا تكون دقيقة بالضرورة؛ فالذكريات الصريحة، بغضِّ النظر عن تضميناتها العاطفية، لا تُعدُّ نُسَخًا كربونية من التجارب التي شكَّلتْها».

إن صياغة الإدراك والمشاعر والدوافع كلها معاً ضمن نموذج موحّد هي مشقّة عالية الصعوبة؛ وعليه فقد آثر علماء الإدراك أن ينمذجوا عملهم ويركّزوا أولاً على ما يبدو أنه الجزء الأكثر أهمية وهو» التفكير».

حدث هذا بينما تركوا المشاعر والدوافع لتكون من اختصاص دراساتٍ أخرى. إن مشكلة هذه المنهجية في البحث تكمن في الميل نحو (قولبة) الفكرة عن العقل، ضمن قوالب لا تعكس تقسيماته الطبيعية. وهنا اقترحنا أن ما كان يُنظر إليه على أنه عقلانية خالصة، في الحقيقة فإنه مترابط وبشكل معقد بالمشاعر والدوافع. حتى الفكرة التي كان ينظر إليها على أنها مواصفة عقلانية، ففي الحقيقة أن عقلانيتها قد أتت عبر تأثير المشاعر

والدوافع في القرار. مرّة أخرى، نتحدّث عن القرار الذي بدا للباحثين على أنه عقلانيٌّ خالص.

تمكَّن لودو من طرح نقطةٍ بحث وجيهةٍ للغاية؛ إن علم دراسة العقل بحاجة إلى اعتماد (كل) نواحي العقل وليس فقط العقلانية الإدراكية المثالية، أو الاقتصار على المنطقية والإدراك المحسوس. ويتحتم الأخذ بهذه النواحي ليس فقط بمجموعها، إنما أن تُدرس معاً وسويّة للعقل نفسه موضوع البحث. وفي الحقيقة، فإن الدراسات الحديثة أصبحت، وبشكل متزايد، تأخذ بدراسة المشاعر جنباً إلى جنب مع الدوافع لتشكّل قضية موحّدة تقود السلوك عبر نظام العوائد والمكافأة والمجازاة التي تعد بها أو توفرها. وهذا النظام قد يكون مُعقداً جداً من جانب وجهة نظر عِلم الأعصاب، لكنّه خاضع للظاهراتية التي تؤطره بالمشاعر.

إن المتعة والألم، مثلها مثل الشعور بالحكّة والجوع والإدمان والرغبة وغيرها، كلها نتاج وظيفة تفعل فعلها وتخضع للمشاعر، وتسلّط نشاطها على مدى معيار وقتي مختلف. وعادة ما تكون هذه المشاعر الواقفة في الخلف حادثة عن تجربة مباشرة أو عن توقّعات بعينها.

إن هذا الأمر سيتركنا وسط حالة من الإزدواجية والإنقسام، بين اثنين؛ الشعور والإدراك. لكننا نعتقد أن ما اقترحناه من مخطط لأهمية المشاعر الأبستمولوجية سيمثل طفرة أخرى إلى الأمام على سُلّم التفسير ثلاثي الأوجه. وفي الحقيقة فإن «الفكرة» هي سلوك عقلي داخلي بشكل كبير، وتكون مدفوعة بالكامل من قبل مجموعة من المشاعر. بنفس الطريقة التي تُدفع بها السلوكيات الصريحة الأخرى. لو أخذنا هذا الأمر بنظر الإعتبار أن الفكرة هي شكل من أشكال تكامل وتوافق السلوكيات فيما

بينها، يصبح بإمكاننا أن نصنّف الإدراك الأعلى في مرتبته، وكذلك المنطق وعملية اتخاذ القرار ببساطة على أنها مكوّنات في حصيلتها تشكّل العقل العاطفي؛ العقل المتضمّن لتأثير المشاعر.

إن الإدراك الإنساني عالي المستوى يعتمد على مدى واسع من هذه المشاعر. ومن دون هذه المشاعر لن يكون هناك فضول، ولا اكتشافات، ولا مسائل كي نحلّها، ولا أنشطة خلّاقة، ولا فكاهة. وقد يفترض شخص ما أن هذه المُتع والمهارات ليست إلّا ترفاً لا يمكن حيازته إلّا بعد توفّر الأفكار العقلانية. لكننا نقول هنا إن المشاعر الأبستمولوجية ببساطة لا تشجّعنا على استخدام منطِقنا، بل هي تسيطر فعليًّا على هذا المنطق.

وعلى سبيل المثال، فلو غابت عنّا مشاعر الإرتباك، فإنك لن تعرف ما هو التناقض أو معنى التضارب. إن الفضل يعود إلى الإشتمال الذي امتاز به بناؤك البايولوجي (وبالضرورة امتازت به الظاهراتية الحاكمة لوجودك)، وإلى الألم الإستثنائي الذي سمح لك أن تلحظ التناقض. إنه أمرٌ لا معايير كمّية تحكمه؛ فليس الإرتباك هو من ساعدك على استعمال العقلانية. وهذه العقلانية تعرف بالأصل كيف تنظر إلى التناقض وتعثر عليه. إن الإرتباك في الحقيقة لم يساعدك على البحث على المزيد من التناقض. لكن الحقيقة هي أننا بلا مشاعر الإرتباك فلن يكون هناك مشاعر التنبيه التي يثيرها مشهد التناقض.

وأحد التفسيرات التي تضعها العقلانية، هي افتراضها أن مهارة استكشاف التناقض لن يكون لها تفسير. والحقيقة هي أن آلية عمل استكشاف التناقض هي من تحتاج إلى تفسير.

إن الإرتباك (ومعه المحفّزات العصبية التي تطلقه) هو من يلعب وظيفة المتحسس. وهو من يشكل القاعدة الأساسية لتقديراتنا الداخلية لقانون اللاتناقض. وللمزيد من الوضوح، فمثلما يُخبرنا جلدنا أنه يعاني من خدش أو جُرح، فإن الأمر يتطلب نوعاً خاصًّا من الأعصاب كي يؤدي هذه المهام. وبنفس السياق، فإن الإرتباك يتطلّب نوعاً من الأعصاب ذات المخارج العبثية كي يطلقها. لكن، على المستوى الحاضر، لا تتوفر أي فكرة عن شكل التنظيم العصبي أو ما يقابله من أجل إنجاح هذه المهام وتسهيل انتقال الأوامر الخاصة بها ضمن الجهاز العصبي.

ونفس الشيء يمكن قوله عن المشاعر الأبستمولوجية. وهي بمجموعها تعمل على تزويدنا بمصادر إرتكاز عقلانية معقّدة ودقيقة للغاية. نستخدمها في حياتنا اليومية لتمييز أي شيء وُضِع في غير محلّه. إنها تزوّدنا بمصادر من ذلك النوع الذي يتحسس التناقض. بل يعمل على إظهارها لنا وكأنها أشياء تشبه مبرد الأظافر. مسألة تحتاج الكثير من الوقت لأجل الحل، حتى لو لم يكن هناك مسألة لحلّها. إنها ستظهر لنا بشكل مثير مع الدهشة حين نكتشف فجأة إنها قد ارتكبت خطأ أحمقَ يقف وراء التناقض الذي اكتشفناه. وهنا سيحدث نوع من الإبتهاج المُفرح.

وفي شكل من أشكال الإدراك بمستوى أعلى ـ بما معناه أن نفكّر مثل البشر ـ فإن الأمر يقتصر على ملاحقة السرور وتفادي الألم الذي تحفّزه هذه المجموعة من المُدركات. لكنها بالتأكيد ستكون ضمن إطار المشاعر التي تعمل وفقاً لأساس بايو ـ عصبي.

إن النقطة الأساسية التي نرغب بطرحها هنا، هي أن ذكاءنا كبشر يعتمد بشكل كبير على احتوائه على هذه المَلَكات التي تخدم مشاعرنا

الأبستمولوجية. إننا نستخدم نفس الكناية مثلما يفعل البشر بالعادة حين ينسبون كل نجاح شركة ما إلى مُديرها. وهنا نحن ننسب إلى المشاعر الأبستمولوجية العمل الذي تديره، رغم أنّه من منجزات العقل بأكمله وبكل مشتملاته.

(7)

العقل الذي بـأمكانه أن يحتمل الفكاهة.

وقف اللص يحمل مُسدساً أمام البائع: أعطني المال، أو سآخذ حياتك.

البائع:....صمت.

اللص (بطريقة أكثر تخويفاً): أعطني المال أو سآخذ حياتك! يا غبي.

البائع: نعم....فقط أنا أفكر. أفكر!.

7 ـ 1. التفكير السريع؛ عوائد وتكاليف سرعة البديهة.

لماذا يجب أن تكون السرعة مهمة في الفكاهة؟. في الحقيقة إنها مهمة لنفس السبب الذي من أجله يجب أن يكون برنامج «حرب النجوم» سريعاً في الرّد على الصواريخ الموجّهة. الأمر لا يتعلق بمقدار ما يمكن الوثوق به بالمتحسِّسات، فطالما لم يكن ممكناً إجراء ردّ الفعل في التوقيت المناسب وإعطاء إستجابة في محلّها وقبل أن يأزف الوقت، فإن المنظومة لا تعمل بالشكل الصحيح.

إن كل الأدمغة، بدءاً من النظام البسيط المتحكّم بالكائنات اللافقرية، وصولاً إلى دماغ الإنسان الرائع المُعقد، هي عبارة عن مولّدات للتوقّعات، أي أنها تمارس التوقّع والاستشراف والتحسّب.

إن الوظيفة الأساسية للأدمغة، هي استخلاص المعلومات من العالم المحيط، واستيلاد التوقّعات واستنتاجها بما يخدم الكائن العضوي خلال رحلته غير المؤكدة في الحياة، والتي تسير في محيط عدائي في أكثر مراحلها ومحطّاتها.

لا يوجد أي شيء غامض، أو معقد كيميائيًا عن وظيفة الدماغ هذه. وهناك في العادة تكنيكات مُحددة جرى البرهنة على نفعيتها في التعلّم الآلي المستخدم لاستخلاص التوقّعات. وهذا يجري عبر طريقين؛ الأول ممارسة الخطأ تحت السيطرة والتجريب، والثاني هو التعلّم من الأخطاء التي لا يمكن تفادي حدوثها أو أنها حدثت بالأصل.

سيواجه الدماغ، خطراً لا هوادة فيه يتمثل بـالانفجار الإندماجي للأحداث والتهديدات. حدوث أكثر من حدث خطر في نفس الوقت، وينبغي التعامل سوية معهما. سيصطدم الدماغ بأن الأحداث ممكن أن تحدث سويّة (تأتي المصائب جماعات بينما تأتي الجوائز فرادى). وفيها كل تفصيل يمكن أن يكتشف على حدة. وكل تفصيل سيضيف تهديداً يتكرر إلى ما لا نهاية، ويعيد فرص حدوثه. الأمر سيبدو وكأنه ممارسة لعبة شطرنج سريعة، فيها آلاف البيادق، وتتضمن آلاف الحركات وبكل الإتجاهات. وكل الحركات قانونية ونظامية ووفقاً لقواعد اللعبة، فكيف سيتصرّف الدماغ إزاء هذه الأحجية؟.

لكن على العكس من حالة الشطرنج، فاللعبة التي نلعبها تكون بالعادة بالضّدِّ من الزمن، وبالتحديد بالضد من العوامل التي تنافس الزمن وتعمل ضمنه، في الحقيقة هي مسألة حياة أو موتٍ مُطلقة.

ولو كان هذا العالم الذي نسكنه مفعماً بالأهداف، كما نميل إلى الإفتراض، فإن أدمغتنا تميل الى إفتراض وجود هذه الأغراض أين ما أمكنها ذلك. إن وجود الغرض يشبه وجود الهواء الذي نتنفسه. فلا نشعر بغياب الهواء، أو بنقصه أو بالحاجة إليه إلّا عندما يشحّ على أنفاسنا.

وواحد من أهم الأغراض التي نسقي وجودها في وعينا، هو أن علينا أن لا نسقط، وأن نستمر في وجودنا وأن نتفادى إيذاء أنفسنا. وأن لا يؤدي قشر موز إلى هلاكنا صُدفة.

بعبارة أخرى، يتوجب علينا البقاء على قيد الحياة. وضمن هذه البيئة الضاغطة من ناحية الوقت، يأتي منجز الدماغ لملاحقة واجباته في احتساب التوقعات وتقديمها في الوقت الصحيح، ضمن عملية أنجزها التطوّر. هذه العملية تشتمل الأخذ بنظر الحسبان عدداً كبيراً جداً من الأخطار التي تنتشر على طول خط الوقت، وفي كل مكان.

إن الدماغ سيعمل على ضبط نفسه بنفسه ضمن آلية تطوّرت واصطُفيت بالإنتخاب الطبيعي. وضمن عملية الضبط هذه تأتي الأبحاث الإسترشادية (عمليات البحث والتساؤل التي تؤدي إلى اختيار قرار هو الأفضل)، وعملية تطويرها لتقدّم للدماغ آليّات وحيل تهدف إلى الأخذ بهذه الحسابات ضمن الإعتبار. وهي عملية حتمية الحدوث خلال مسيرة تطوّر الدماغ وهندسته.

إن هيكلية أي بناء معماري وجب أن تتضمن ستراتيجية معينة (أو مجموعة ستراتيجيات)، يكون هدفها الأول أن تأخذ الأخطار بنظر الإعتبار. ثم تحسب النكوصات المتوقعة وسبل النهوض والتعافي منها. فالهدف الأول من تصميم هيكل طائرة، يجب أن يكون هو جعلها تطير بأمان، ثم سيأتي الأخذ بنظر الإعتبار ملاءمته لراحة المسافرين وعددهم.

هذه الستراتيجيات لا يجري إعدادها لحظيًا وفي وقت الحاجة فقط. إنما يجري حسابها مُسبقاً (خطأ أو صواباً)، والتسبّق لها. يجري هذا من قبل المصمم، الذي ينشر شبكة محسوبة من الملاءمة وصفات الأصلح (الصفات التي يتصوّر أنها الأصلح). وهي التي ستقرر لاحقاً إن كانت هذه الستراتيجيات قد حققت مبتغاها.

الأخطار التي تنتج عن التجربة الاسترشادية، هي أخطار مضمنة محمولة ضمناً. وكل عامل من العوامل سيكون في محك، لاختبار قدرته على التغلب على الأخطار، رغم أن هذا المحك لا يشبه عمل الدماغ الكلّي.

لقد واجهت عملية التطوّر هذه المشكلة حين شرعت بتصميمنا. وعلى المهندسين البشريين أن يواجهوا نفس المشكلة حين يشرعون بوضع مخططات وخرائط للذكاء الصناعي. ربما سيكون هناك عدد من الحلول (بدلاً من الحل الواحد)،لأي مشكلة. وسيكون هناك عدد من الطرق الأفضل لصنع وسيلة للتغلب، مبنية على الاسترشاد والتعلّم من التجربة والقياس. لكننا سنكون مهتمين بتلك الوسيلة التي تعثّرت بها أمُّنا الطبيعة إبتداءً، لأنها كانت وسيلة أثبتت نجاحها في حل باقي المُعضلات التي تواجه إدراكنا. (مثال ذلك، التوقّع، تصنيف الأشياء، شدّ الإنتباه).

إن ما يقودنا كنوع بشري سيكون حصيلة سلسلة من نتائج التطوّر التي تراكمت فوق بعضها البعض. وواحدة منها هي خُصلة الفكاهة. وهنا سنناقش الأفكار التي جعلت للفكاهة مكانتها الخاصة.

ربما نحتاج هنا إلى مختصر من إبراء المسؤولية؛ إن النظرية الجيّدة في تقديمها الأفكار، هي النظرية التي لن تقتصر على تفسير طريقتنا في التفكير، أو تقتصر على كيفية جمع الحقائق عمليًّا لتستولد القناعات والتوقّعات. بل يجب أن تصف بصورة مقبولة وراسخة كيف نفكر في الأشياء الصحيحة والمسارات الصحيحة. وهذا طبعاً على طريق إنجاز المهام التي تعنُّ لنا.

وعند هذه النقطة من العِلم، سيكون من الجرأة أن يصدر عن أي باحث وضع هذه المجموعة الكاملة من نماذج الأفكار. ضمن هذه السياقات سيطفو لنا ما نحاول أن نصوغه؛ وهو وضع نموذج كامل للسمة الإدراكية التي نسميها؛ «الفكاهة».

وكما قلنا في البداية، إن الفكاهة ما زالت مسألة منعقدة ومغلقة، وتحتاج إلى وسائل إدراكية ما زالت فقيرة إلى التفسير. ولأجل أن نقدم نموذجنا ضمن هذا السياق، سنبدأ برسم مخطط إنطباعي عن نموذج معيّن من الأفكار في هذا الجانب.

لن يحاول هذا المخطط أن يقدم جردة سردية لكل النواحي الإدراكية، بل سيهدف فقط الى إبراز الفرضيات التي حكمت عملنا. وسيحوي شروحات وتوسعات لما سبق أن قدّمه الباحثون النظريون في هذا المجال. ومع سير المخطط بالاتضاح، سنعرض الأطر والمحددات التي تطوّق واقع الفكاهة وطبيعتها.

وسنبقي في الأذهان مع التقدم والالتزام بهذه النماذج البحثية الإدراكية أن نكون منفتحين تماماً على كل الطروحات. الفضاء مفتوح من أجل مزيد المعرفة والإدراك للوصول إلى نموذج مصفى ومعبّر مع الوقت. والمهم، هي الطريقة التي ترتبط بها الفكاهة بالأفكار. والكيفية التي تتفاعل بها مع الإدراك والمشاعر.

7 ـ 1. تأسيس الفضاء العقلي.

إن المشكلة الأساس التي تواجهنا، هي مدى وجاهة ومقبولية أفكارنا. إن دماغنا قد جرى تصميمه من أجل أن يفكر، وأن يفكر بصورة جيدة، بشكل أساس فيما يخص المواضيع المهمة التي تهمه.

صحيح، إنه يبدو من المعقول أن نفكر في الحَمام بينما نحن نَقلي البيض[1]، لكن هذا لا يحدث (ربما سيحدث في المرّة القادمة التي تقلي فيها البيض لأنك ستتذكر هذا السطر). نقول إن الأمر لا يحدث هكذا لأنه لا يبدو أن هناك رابطاً يربط منطقيًا مثل هكذا حدثين، وليس له أساس في تجربتك المستنبطة من الماضي. ببساطة، إن الأفكار لا تعمل بهكذا طريقة.

لقد جرى تصميمنا بأن نفكر عبر استخدام الدماغ، بطريقة متعقلة ومقبولة في معظم الوقت. لكن هذا الأمر يضع الدماغ أمام مهمة صعبة طيلة الوقت. وكان كل من مكارثي وهايس/ McCarthy and Hayes (1969)، هما أول من أورد هذه التوصيفات. وهي ما أطلقا عليها تسمية: «مشكلة

(1) على الرغم من أن الحَمام يضع البِيض، فإن الموِضوعِ برمّته غير مترابطٍ وغير متعلّق، لسبب مُضاف وهو أن بيض الحَمام ليس طعاماً شائعاً. وهو ليس جزءاً من الثقافة أو الإعتياد ـ المؤلفون.

الإطار». كيف يمكن للدماغ أن يؤدي ثلاثين مهمة دون أن يحصل إلتباس أو أن يحصل تضارب متفجر من جهة، بينما يفشل في تحديد المفاتيح الأساسية من جهة أخرى؟. وسيكون من المهم أن لا نبدد قدراتنا ووقتنا في تحرّي إحتمالات ممكنة ضائعة. (وهي ما يمكن أن يطلق عليه مشكلة هاملت)[1]. مثلما من المهم أن لا نترك أنفسنا نتعامى ونخضع للتضليل طيلة اليوم.

وواحدة من طرق إعادة تقعيد مفهوم مشكلة الإطار، هو أن نلاحظ أن الحل الأمثل للمشكلة هو أن يكون حلاً لا مفاجأة فيه. صحيح أن هناك العديد من الأشياء التي لا يمكن للفرد أن يتنبأ بها، لكنه لن يكون لا إيجابيًا ولا سلبيًا اتجاهها (مثال ذلك، توقع وجه قطعة النقود عند رميها ـ فلا الصورة ولا الكتابة ستكون مفاجأة حين تظهر). في الحقيقة ستكون هناك إحاطة بأي نوع من أنواع التوقع.

ربما يكون الأكثر احتمالاً لحل مشكلة الإطار، هي الأداء الذي تقدمه الماكنة دائمة الحركة (إفتراضية)، فهي مستحيلة بشكل صاعق. إن شكل العالم يفتقر بكل تأكيد إلى توافر الربط بين المتوقع وفقاً لاختبارات محددة، وبين واقعه العسير على الحوسبة. إذن، أي حل سيكون بالضرورة، شكلاً من أشكال المقاربة. أو حقيبة عمل يومية من الخدع والمهارات، وستكون مهمة جيدة أن تحفظنا سائرين غير مرعوبين.

---

(1) أو ما تسمى؛ «مشكلة إليوت». وهي مسألة تتعلق بمريض اسمه إليوت، كان يعاني من قصور وإعاقة عاطفية. وكان خارجاً عن إرادته، يقضي ساعات في محاولة التقرير. والإختيار بين اختيارات يبقى محتاراً بينها بطريقة تبدو لا نهاية لها، ولن يصل في النهاية الى أي قرار ـ المؤلفون.

لقد أقدم التطوّر على خطوة مهمة مستهدفاً حل هذه المشكلة التصميمية. وزوّد الدماغ بمهارات تجعله يتهيأ حين الطلب على (فضاء عقلي)، عبر عملية شاملة من «نشر النشاطات». وسبق للباحثين النظريين أن وضعوا عدّة هياكل عقلية ـ إنشاءات افتراضية. وأشكالاً ونصوصاً، كلّها مصممة أن تتعامل بطريقة أكثر كفاءة وتزاوجًا بين عملية حل المشكلة، وعملية التعلم والفهم الحياتية بطريقة تقارب إمكانية حل المشكلة.

هنا يصبح من الضرورة مقاربة هذا المفهوم بدقة؛ «الفضاء العقلي». وتأتي تحليلات جيلز فاكونير[1]/ Gilles Fauconnier، لتقدّم وصفاً للقوى الإدراكية المعقدة، ضمن عقل الإنسان البالغ، والتي تقوده إلى افتراض دور في عملية امتصاص المعلومات والتحكّم بها، والتي نسميها؛ «الفضاء العقلي». إن الفضاء العقلي هو حيّز من الذاكرة العاملة. تترابط فيه المفاهيم النشطة، والتوقعات بطريقة لغوية دلالية. وقد يكون هذا ضمن حالات عدائية مفهومة ومميزة.

ومن نافلة القول، إن هذا الفضاء الذي نتحدث عنه، هو بالأساس فضاء وظائفي. ـ فضاء منطقي ـ وليس مكاناً تشريحيًا في العقل البشري.

ولقد حدث هذا الفضاء تراكميًا، وخضع للمراجعة بشكل ثابت. هذا الفضاء، على العكس من الأطر المقترحة، أو النصوص، أو الأشكال والنماذج التي سبق أن صيغت على شكل «نماذج مثالية إدراكية»، والتي يمكن تخيّلها على شكل قواعد بيانات، فإنه يأتي على الشكل الذي اقترحه

(1) جيلز فاكونير (1944 ـ)؛ لغوي وباحث فرنسي. بروفيسور في اللسانيات في جامعة كاليفورنيا. اختص بأبحاث العلوم الإدراكية المعتمدة على الدلالة اللغوية. له كتاب «الفضاء العقلي/ 1984» ـ المترجم.

فاكونير ليؤسس نفسه من خلال عملية مهام الفهم التي واجهها العقل. حدث هذا بالتزامن مع عمليات استخلاص وتخليق الأفكار ضمن العقل.

لقد اقترح فاكونير وجود هذا الفضاء العقلي كأساس لتدعيم المصادر النظرية الدارسة للمعنى. والتي تحوّلت فيما بعد إلى ما بات يُعرف بـ «نظرية توليف التصوّرات»[1].

وفي هذه النظرية تتداخل الفضاءات من أجل توليد فهم متعاضد يحافظ على انعزالية الأفكار وتمايزها، وأن تحمل إشارات مميزة ومختلفة ضمن فضاءات معرفية متعددة، أي إن كل فكرة يجب أن تحمل سماتها بذاتها، وتبقى كالأرشيف المرتّب، ولو حدث العكس لصعُب تمييزها. وبينما يمكن للعقل البسيط أن يضم فضاءً عقليًا واحداً، وهو ما يقابل واقعية الشخص الأول (في هذه الحالات لن يكون للمفهوم ومعناه أهمية تذكر). نجد في العقول الأكثر تعقيداً، مثل عقل الإنسان الحالي، إن هذه الفضاءات العقلية تخدم بصفتها وعاءً تحدد مسارات الأفكار المتشكّلة. هذا ما يمكّننا من أن نمارس أحلام اليقظة، بينما نشاهد فيلماً سينمائيًا،

(1) توليف التصوّرات، هي نظرية تشير إلى مجموعة من العمليات الإدراكية، التي تتولف فيها الكلمات، والصور، والأفكار، وشبكات المعلومات لتنتج «فضاءً عقليًا فاعلاً»، يسهم في خلق المعنى. هذه النظرية، تفترض أن تأسيس المعنى يتضمن حدوث تكامل إنتقائي، أو توليفًا في عناصر التصورات، وتوظيفًا للهياكل النظرية لشبكات التكامل المعلوماتية المتصوّرة. كلها لأجل مصلحة حدوث هذه العملية. على سبيل المثال، عملية فهم عبارة: «وفي النهاية»، «VHS»، (وهو رمز نظام الفيديو المنزلي خلال السبعينيات والثمانينيات). ستتضمن إحالة إلى أربعة فضاءات. منها إثنان للإدخال (عبرنظام الفيديو القديم)، ومنها (ماهو مادي يتمثل بالكاسيت، ودورانه على قرص ضمن جهاز كهربائي). هذه النظرية متأثرة حتماً بنظرية التصورات البلاغية. لكنها تركز على الديناميكية التي يراكمها المعنى اللغوي ـ المترجم.

ونحفظ العمليتين من الإختلاط. وفي نفس الوقت، نعزلها عن وعينا وإدراكنا بالواقع المحيط بنا.

عندما يخاطب هاملت أوفيليا ويقول لها: «كوني راهبة أيتها السيدة»، فإنك ستستوعب أن ما يقال أمامك هو توجيه ضمن فضاء عقلي خاص، وإنك شخصيًّا غير معني بتنفيذه ولا أحد يتوقّع منك ذلك.

تقول الدراسات التي تتعلق بالإنتباه، إن من الممكن أن يكون هناك فضاءٌ عقليٌّ فاعلٌ واحدٌ منشّطٌ في كل مرّة. لكن هذا ما يمكن دحضه بسهولة وبسرعة. بل إن ما يحدث هو الإنزلاق رواحاً ومجيئاً بين الفضاءات.

إن الفضاءات العقلية الجديدة يجري تأسيسها وخلقها بسرعة، عبر طرق وتسهيلات متنوعة؛ هناك عبارات تساهم في بناء فضاء عقلي حالما نسمعها؛ مثل عبارة؛»..في هذه الصورة»، أو الوصلة اللغوية؛» إذا...فإن»، هي من بين طُرقٍ عديدة يجري عبرها إبتداء أو إنشاء فضاء عقلي يدركه المستمع على الفور[1].

متى ما حضر موضوع جديد، سواء جرى طرحه عبر سرد متوقع مباشر، أو عبر خطاب يلقى، أو عبر التنبيه أو آلية من آليات التذكير، فإذا لم يتمكن هذا «الموضوع»، من الاتساق ضمن فضاء عقلي حاضر مناسب وفاعل

---

(1) إن عبارة (كان وياما كان، في قديم الزمان)، أو معادلها الإنكليزي (Onc upon the time in..)، هي من أبسط الأمثلة التي يرمي فيها المحدِّث إلى خلق فضاء عقلي سيحتوي ما يقول لاحقاً. فحين نسمع عبارة (..في قديم الزمان)، هذا يعني إننا نتفق مع الراوية المُحدّث وسيكون معلوما بأن لا نسأله عن تحديد الزمان والشخوص والمرحلة التاريخية لما سيتبع من سرد. وسنقبل مؤقتاً ريثما تنتهي الحكاية/ الأحدوثة/ النكتة أن نكون خارج هذه التساؤلات ونقبل بأحداث القصّة بمعزل عن تساؤلاتنا القافزة (في أي بلد حصل هذا، وهل الشخصية خيالية أم وهمية؟.)، وهكذا ـ المترجم.

مباشرة، فإن فضاءً آخر سيتخلق مباشرة لاستضافة هذا الموضوع. ستكون هناك ما يشبه منطقة علاج خارج الوعي، تنشأ على الفور لمعالجة النقص وخلق فضاء بديل حسب الحاجة.

بشكل عام، كلما مالت التفاصيل إلى الصمت، والتناقض مع الفضاء العقلي المتوافر، فإنها ستحوّله إلى فضاء عقلي غير مستخدم، وبالتالي ستكون هناك حاجة لفضاء آخر يستقبل المعلومات ويتعامل معها بشكل أكثر فاعلية.

في عالم السرد القصصي، يمكن استحضار هذه القضية بشدّة، وغالباً ما تشهد الحكايات فضاءها العقلي الخاص. ودائماً سيكون هناك طلب على توافر تماسك محلّي في السرد. إن البحث عن هذا التماسك، هو الذي قاد إلى الإكتشافات التي تتعلق بتمييز الفكاهة.

لقد جرى البرهنة معاصراً على أن فهم العبارات، تكون عملية تصاعدية وتتخللها التوقعات.

إن عبارات التورية المفذلكة لغويًّا، هي نموذج خضع كثيراً للدراسة، إذ إنه كثيراً ما يأخذ المستمع إلى توقع خاطئ. وذلك بسبب السياق المضلل لها. أو في بعض الأحيان، الأمر لا يعدو عن كونه سِمة لغوية.

إن عدداً كبيراً من عبارات التفذلك، والمفاجأة اللغوية التي تتلاعب بتنسيق كلمات الجملة، قد تكون عبارات طريفة بالأصل. وهناك الكثير مما هو مشترك بينها.

وتقول الدراسات التجريبية، إن البشر عادة ما يتوقّع المعنى بصورة منتظمة، لأي عبارة فيها غموض وتعاني من التناثر، حيث يعمل على ضبط الفضاء العقلي المصاحب لتلقيه مع وصول المعلومات التي تزيل هذا الغموض.

هذا يعني أن الفضاء العقلي يشرع بالفعل في أن يتراكم، مع مقدم كل كلمة. ثم يخضع النموذج إلى المواءمة والتضبيط مع اكتمال وصول الكلمات. وتقول البيانات من هذه الدراسات، إن المعلومات المتصوّرة، والبراغماتية، والإدراكية الحسية، يجري إضافتها ضمن مهمة بناء الفضاء العقلي، حال توفرها. وهو ما يدفع إلى الاعتقاد، بأن ليس فقط تراكم الفهم هو من يزداد، إنما تراكم تقييم الموقف أيضاً سيتصاعد.

كل هذا يدفعنا إلى الإعتقاد بأن عملية الفهم تجري ضمن سياق شمولي. في محاولة لتحقيق تكامل المعلومات. المعلومات القادمة من كل المصادر، والتي بدأ وصولها إلى الدماغ إلى غاية أن تتحقَّقَ النقطة الجدلية الموضوعية. وإلى غاية أن تأتي معلومات تساهم في الضبط الموضوعي ضمن نظام موحد يعمل بتناسق، سيواصل النموذج إعادة ضبط نفسه.

وخلال عملية الفهم، فإن الدماغ لا ينتظر بسلبية إلى غاية أن تكون هناك معلومات «كافية»، في منطقة بينية تستوعب فقط ما وصل إلى غاية الآن. بل إنه سيمارس محاولات إزالة الغموض إلى أن يتضح العكس.

إن هذه التوقعات قد يصح وصفها بأنها إفتراضات «تعليمية/ تعلّمية (جرى تعليمها)»، نفذت بسهولة عبر الملاحظة ومتابعة رواية الخصائص. بينما تشير المعطيات المحلية أن الإفتراض الفلاني أكثر احتمالاً من غيره. أو أن الموضوع متعلق بموروث معلوماتي يؤدي الى إحتمالية تبني معنى معيّن أكثر من إحتمالية تبني معنى تفسيري آخر[1].

(1) أشار علماء فسلجة اللسانيات، أنه على وجه التقريب الأولي، فإن كل المعاني المتعلقة بمصطلح مستخدم، ستكون حاضرة سوية ضمن سياق فهم عبارة ما. إلى غاية أن تصل المعلومات التي ستساهم في إزالة الغموض. هذه الملحوظة قد تكون طبيعية، إلّا أنها ستقوض الكثير من المعلومات التي سبق أن جرى اختبارها ـ المؤلفون.

في الماضي، كانت عملية إعادة التقييم لإزالة الغموض عن الصورة أو الفكرة تسمى؛ «الإزاحة الإطارية». وتتكفل بها في العادة محاولات الفهم وفقاً للآليات المعتادة، وليس فقط آليات فهم الطرفة.

نعني بعملية «إزاحة إطار»، أن نغيّر إطاراً مفاهيميًا سبق أن أثار المعلومات، ولَفّها بما يجعل كل البيانات أكثر مواءمة ومنسجمة مع تفاصيلها.

لاحظ مينسكي أن عملية «الإزاحة الإطارية»، «تجري بسلاسة كبيرة، لأن الروابط المتقابلة للأطر المتوفرة أصلاً، هي بالأصل تحتوي على ما يربطها ويجعلها تشرح بعضها بعضاً. وهذا ما يسهل عملية تغيير «ترجمة متعثرة»، أو «توقّع مُحبِط». وتحتوي نظرية مينسكي عن الفكاهة إزاحات إطارية هي الأخرى، تُسبب التوليف المتناقض في إطلاقها. لهذا، تأتي نظريات النصوص الدلالية عن الفكاهة لتستخدم أوصافها عن الفكاهة على أنها ناتجة عن عدم التوافق بين نصّين. وكل واحد تمكن من دفع سياق ملتبس ومتراكب مع الآخر. وكل واحد يمثل وجهة نظر لسياق الفكاهة.

وبالأخذ بنظر الإعتبار الإعتماد التاريخي لنظريات الفكاهة على هكذا شروحات، فإننا بحاجة إلى وقفة حقيقية لنتأمل مفاتن هذا التفسير. وعلى الرغم من أن مينسكي كان يرى في هذا المستوى من الإدراك، نماذج صامتة لا تزيد من شروحات آليات الفكاهة، إلّا أنه أخطأ في التعامل معها على أنها مسألة محورية كاملة بذاتها. فهي ليست بناءً بياناتيًا أساسيًا داخل الدماغ.

في الحقيقة، فإن النصوص التي تتعامل مع الفكاهة، والأطر المحددة لها أقرب إلى السَّحاب في شكلها. نموذج غائم يصعب تحديد حدوده.

إنها حقيقية بما يكفي، ومرئية. لكن لا يمكن رصدها ميترولوجيًا. وهنا نطرح الجواب عن؛ «لماذا؟»:

من الصعب في مكانٍ أن نصف بدقّة، ما هو المحدد الذي يشكل إطاراً أو نصًا وعائيًا لحدث ما.

لنأخذ على سبيل المثال، نصًا سرديًا كلاسيكيًا يصف عملية الذهاب إلى مطعم. إن التفاصيل في عملية الذهاب إلى مطعم ستعبر بقوة عبر عادات وثقافات وعدد من المؤثرات. ومن الصعب وضع محددات بعينها لكل محطة من مراحل هذه العملية. بل إنها ستحوّلها إلى مسار لعبة عبثية معقدة بما يكفي. ومع ذلك، لو توفر لدينا إطار مختلف لكل تنوّع أثني ثقافي يتعلّق بالذهاب إلى المطعم، فإنه الخطوة الأولى لتمييز كل إطار يتعلق بالشخص الذاهب إلى المطعم، وما سيرتكب من خطوات. هذا سيأخذنا إلى منزلق لا عمومية فيه ولا يمكن تعميم أيٍّ من أحداثه وتفاصيله.

وبدلاً من محاولة وضع قواعد لنصوص عاملة في مجال الفكاهة، أو وضع أطر تحدد عملها، فإننا نضع نموذجاً نسميه؛ «نشر النشاط في الوقت المحدد». رد فعل يشتمل على إتيان حدث وتفاعل اتجاه الفكاهة يكون لحظيًا وآنيًا ومتناسقاً، ويظهر في الوقت المناسب. وهو يمت بصلة قوية إلى ما وضعه مينسكي في هذا السياق. المصطلح؛ «نشر النشاطات»، جرى استخدامه فعليًا بين المنظِّرين في هذا المجال. واستخدم أيضاً في مجال العلوم المتعلقة بدراسة الإدراك. ولأن هذه القضية يمكن أن تطبق على طيف واسع من النماذج، فقد تتمدد عملية التنشيط الموصوفة لتمتد بين النماذج النشطة في مفاهيمها، أو عبر الشبكات الدلالية اللغوية. أو إنها تظهر ضمن العقد التي تربط الناس المحليين بلغتهم ووسائل تواصلهم.

إن المحتوى الدلالي اللغوي هو الذي ينشط في البداية فيما يتعلق بالفكاهة. وضمن الذاكرة العاملة ووفق ما يتوفر من الفضاء العقلي المتسق. ثم تسير العملية بتوقعاتها. ثم تظهر أي أفكار أكثر عمقاً كلما سرنا ضمن ما يقدح من أفكار دلالية، التي تربط أحداثاً لها نفس الدلالة، وهكذا يخلق النموذج.

وجب علينا أن ننوه، أن لا أحد يعرف اليوم على وجه الدقة كيفية عمل ما سمَّيناه؛ «نشر النشاط في الوقت المحدد/ JITSA»[1]، ضمن النظام العصبي الفسلجي للدماغ. ولا سعة هذا الفعل ضمن عملية التعامل والوصف والتعاطي مع البيانات المشكلة للفكاهة. وبالتالي، لا أحد سيحدد على وجه الدقة كيف يمكن للفكاهة أن تظهر من هكذا منظومة.

«التعامل في الوقت المحدد المناسب»، قد يكون مصطلحاً هندسيًّا مستعاراً من عالم التكنولوجيا، إلّا أنه مصطلح يتضمن معنى إقتصاديًّا أيضاً. إقتصادي بمعنى التعامل بتحري أفضل العوائد (أو أفضل الأفكار في حالة الفكاهة)، من أجل استخدامها. المنافسة في هذه الحالة لن تتم إلّا إذا أزف الوقت المناسب. طبعاً ما نصفه هنا هو ليس مجرّد حالة بايولوجية نتعامل معها. إذ أن علينا أن نتذكر، متى ما ظهر هناك اختيار، فإن الكائن الحي سيلجأ إلى قوانين المحافظة على الطاقة (وحتى

---

(1) لمزيد من الإيضاح حول هذا المفهوم، فهو يعني التفاعل السريع والآني مع معطيات إثارة الفكاهة وفهمها ضمن السياق الصحيح، ومزاولة توقعات ما سيرد منها تباعاً أثناء الرواية. وبالتالي تهيئة رد فعل مناسب، كأن يكون الضحك، أو عدم الضحك. أو الإزاحة نحو فضاء عقلي آخر (إذا فشلت الفكاهة). إنها مجموعة متكاملة من ردود الفعل والتفاعل ضمن الدماغ اتجاه المؤثر، تأخذ بنظر الإعتبار ما أمكن حوسبته مسبقاً لتهيئة أفكار مقابلة حاضرة تحت الطلب ـ المترجم.

الأفكار)، والتقنين في الإستخدام. على الأقل هذا ما أملاه التطور علينا. لكن طبعاً بالأخذ بنظر الإعتبار تحري الواقعية فيما يتعلّق بكيفية عمل الأفكار ظاهراتيًا.

قد لا يبدو الأمر وكأن الأفكار تنطلق بشكل مباشر نحو هدفها، إلّا أنها تعكس لنا إنطباعاً بأن هذه الأفكار لا تنشأ بطريقة عشوائية نهائيًا.

ودائماً ما يكون هناك أفكار ترتبط عائدة إلى توقع قريب له من وجاهة الرأي والطرح ما يكفي. يحدث هذا في مجال المشاعر، والرغبة والاستنباط وغيرها.

ولأجل مزيد من الإيضاح نقول؛ إن كان التعامل مع المعطيات وقواعد البيانات لن يتم إلا تحت الطلب، إذن سنكون في معضلة شبه دائمية تتعلق بالحاجة إلى تقرير مستمر الى أي مدى على الدماغ أن ينجز مهامه بسرعة. ولنتذكر أن السرعة هي الأساس وهي الركن المهم. طبعاً لا داعي للقول بأن الأخذ بنظر الإعتبار كل الإحتمالات، ستكون ستراتيجية بطيئة. فضلاً عن أنها ستتسبب في تلاشي مبدأ الإقتصاد الذي سبق أن وصفناه.

إتباع مبدأ «التصرف في الوقت المناسب»، قد يعكس إنطباعاً عن شحّة في البصيرة. يعني، لو كانت هناك بصيرة في الاختيار، فالأولى أن يكون هذا الاختيار مرتاحاً ومسيطراً على وقت رد الفعل ومتمكناً منه. لكننا سبق أن عرّفنا الكائن البشري بأن من بين خصاله هو أنه ميّال إلى التوقع والإستشراف. وليس هناك تناقض في هذا الطرح، إذ أن البشر يمارسون التوقع بلا كلل. ويستمرون في تسطير مجاميع من التوقعات وعمليات الإستشراف عن عالمهم المحيط بهم. لكن مثل هذه التوقعات لا تخلق

أفكاراً تكون جاهزة للتركيب متى ما صار الإنسان (عقله)، أمام اختيار التعيين والأخذ بالأنسب. ولن تكون متحسبة لاختيار كل الإحتمالات كي تواجه خط الأحداث المتوقعة في المستقبل.

وبدلاً من ذلك، ستكون التوقعات المتاحة بين أيدينا هي عبارة عن تراكم، لكل حالة وجيهة تواجهنا. وحصيلة لمواقف التصرف في الوقت المناسب التي تُمكِّن إدراكنا من جدولتها.

إننا نتوقع الأحداث المستقبلية أن تجري على خط الوقت الذي نراقبه ونتخوّف منه. نفعل هذا باستخدام الخبرة، وباستخدام قوة التوقّع التي أتيح لنا أن نخلقها خلال عملية فهمنا للأحداث نفسها واستيعابها. يضاف هذا إلى العدد المتوفر من التوقعات، رغم أنه ليس بالعدد الذي يمكن لآلات السرد المستمرة أن تستولده من توقعات.

ومن حسن حظنا (بفضل عملية الإنتخاب التي وفرها التطوّر)، أن توقعاتنا التي نحاول أن نضبطها لتنطلق في الوقت المناسب، يحدث أنها ستكون التوقعات الأكثر تعلقاً بما نفكر فيه. يحدث هذا، خارجاً عن أي قواعد تؤطر الأفكار المنطقية وفقاً لتوافرها.

التعامل في الوقت المناسب، هو عملية يمكن أن تحدث بالتدريج والتجزئة، طالما حافظت على خط فهم الأفكار وفقاً لقواعد البيانات المتوفرة بالأصل.

وبدلاً من التفكير في أطر مسبقة التصميم والتنفيذ، تحمل كوعاء الأفكار ضمن الفضاء العقلي، إننا كبشر سنفضّل التفكير في شيء» مكافئ قريب يجري توظيفه». مستمد من ضمن الأطر النامية التي أرسى قواعدها

مبدأ؛ «التصرّف في الوقت المناسب».

إن السرعة لوحدها، التي تنشئها عملية «التصرف في الوقت المناسب»، غالباً ما تُوقِعنا في إستيهام الإدراك الكامل (طبعاً هذا غير موجود). وهم يفترض أن الذاكرة استنفدت وسائلها وقدمتها متكاملة. وهو ما نسميه؛ «الإستيهام الإطاري».

«وَهم الإطار»، يعني أن هناك تصورًا بأن الفهم، والأفكار، واستدعاءها، إنما تجري بسرعة وكأننا نمتلك ولوجاً آنيًّا إلى جميع العناصر المتعلقة بحالة ما، أو فكرة ما. وكأن هذه العناصر قد جرى شحنها وتهيئتها وهي تنتظرنا جاهزة في متناول العقل، وستدخل الخدمة فوراً ضمن الذاكرة العاملة.[1]

لهذا، فحين نكون إزاء سردية روائية تتعلق بالدخول إلى المطعم. ونشر النشاط فيه بعدِّه فضاءً عقليًّا، فإننا عمليًّا نتحوّل إلى الإهتمام بمجموعة عقد، تتعلق بالكراسي، والطاولات، وقوائم الطعام، والسقاة العاملين، وحتى باقي الزبائن. وستتوفر أمام أعيننا روابط لهذه الأشياء، يبدو لنا أن وجودها حتميٌّ. (روابط تعود بنا إلى كنه تعريف المطعم نفسه). بينما تبدو باقي الأشياء محتملة الحدوث أو الظهور. وربما سنفضل إختيار القيم

---

(1) مما يثير السخرية، أن هذه السرعة المفترضة في الولوج إلى الذاكرة الدماغية العاملة، كانت واحدة من الأسباب التي دعت إلى انتشار (نظرية الإطار) في بادئ الأمر. لكننا اليوم غير متأكدين من جواب: لماذا لم تتحسن حالة «التصرف في الوقت المناسب»، مع مرور الوقت، ومع تأثير التطوّر. وإن ما يعاكس عملية «التصرّف في الوقت المناسب»، هي عملية «التصرّف وفقاً لكل حالة»، لهذا نرى أن (الوهم الإطاري)/ الوهم بوجود إطار معيّن نعرفه، بالتعاضد مع التجربة الهندسية، قادت مبكراً المنظرين إلى معارضة هذا النوع من ميكانيكيات الإدراك ـ المؤلفون.

المسبقة الضبط. (أفكار مسبقة لدينا عن تفاصيل المطعم، أي مطعم سبق أن ضُبطت في أدمغتنا نتيجة التجربة). وهذه ستكون ضمن إطار تسير فيه الأحداث، وسنتحرى عملية قبولها ضمن سقف خبرتنا التي سنستعملها للفحص.

هذا لن يمنع ظهور هيكل ديناميكي نشط، يعمل بمعزل عن السياقات. ويمكن أن يلعب دوراً في تقديم حالة مزيفة كثيراً ما تظهر، وتتمثل في مظنّة أننا نقوم بحشو الفراغات الفكرية. لكن ما نفعله بالحقيقة، هو توفير مصدر من مصادر الفشل في تحديد الفضاء العقلي المناسب.

على سبيل المثال، لو قال لك أحدهم أن (توم)، و(بيل)، يلعبان الملاحقة ومسك الكرة عند الشاطئ، فإنّك ستبني عدّة هياكل تصوّرية لما يحدث. هذه تنبثق ضمن فضائك العقلي، لكنها ستنتهي إلى أن تسأل نفسك، أي نوع من ألعاب الكرة تتوفر لديهما. إن عملية «التصرف في الوقت المناسب»، ستزوّدك ببعض النماذج/ مبنية على أساس إحصائي سبق توفّره لديك. هل ستكون كرة مضرب، أو كرة سلة، أو كُرة شاطئية، أو كرة قدم. وستقوم بحشر هذه الأشياء سويّة على طاولة الفضاء العقلي الذي تهيأ لك لحظة سماعك الموضوع.

من ناحية أخرى، قد لا تتوفر على أي فكرة عن أي نوع من أنواع الكُرات هي التي كانت محل اللعب، لكنك تحت وطأة الاستجواب، وضغط وجوب التصرف في الوقت المناسب، سيسمح لك مسار التفكير في اقتراح نوع بشكل سريع، «سيبدو» لك (وليس فقط لمن سألك) وكأنه نوع مناسب. وسيظهر وكأنك تعرفه من البداية. الأمر يشبه وجود محطّة إطارية تمثل معيناً للأفكار، لكنها مُسبقة الضبط.

وهناك احتمال آخر، وهو أنك لم تفكّر في أي كُرة على الإطلاق. ولم تأتِ خاطرة على أفكارك أي نوع من أنواع الكُرات، ويخلو دماغك فعليًا من أي صورة لها. ببساطة، ليس هناك من كُرة في فضائك العقلي على الإطلاق.

تأتي حالات، يكون فيها الجواب؛ «في الحقيقة، أنا لا أعرف»، هو الجواب المثالي.

رغم أنه جواب ليس مثاليًا، وربما يكون هناك ضغط إجتماعي لتوفير جواب أفضل. وربما يكون أقل إحتمالية. وقد تميل إلى «تفسير»جوابك، بأن تقول إنه لا تبدو لك أن هناك كُرة معينة محتملة أكثر من غيرها. ستقول؛ إنها (ربما) تكون كُرة شاطئ، لكن قد تكون شيئاً آخر.

إن استظهار هذه السلسلة من الإحتمالات، تبرز لنا مسألة تعدد مستويات المعرفة، واختلاف الإلتزامات المعرفية اتجاه مَعين القرار.

فإذا قدّمت رأياًعاماً غير ملتزم للتساؤل، وفقاً لما متاح لك لحظيًا، ربما ستقول إنها «كُرة مضرب»، مثلاً. ثم اتضح لاحقاً أنها كانت كُرة طائرة شاطئية. فإنك في هذه الحالة ستلاحظ بصعوبة عملية إعادة النظر. من جانب آخر، لو اتضح لك أن كلًّا من توم وبيل يلعبان بواسطة سمكة حيّة، فإن هذا سيربك لديك هيأة التكامل، إذ إنك على الأقل كان لديك إلتزام بأن تتصور أنها كرة في فضائك العقلي. من هذا المنطلق، سنناقش بمزيد من التأصيل بعضاً من جوانب الإلتزامات المعرفية الأبستمولوجية.

إن نموذج «التصرّف في الوقت المناسب»، يوفر أساساً لمواجهة الإدراك الضروري توافره لسير الفكاهة. ويمكن هنا أن نعرج على باقي هذه الوجوه.

7 ـ 2. المعتقدات النشطة.

سؤال: ما هو الشيء الحي، ولونه أخضر، ويعيش حول العالم كله. ولديه سبع عشرة قدماً؟.

- لا أعرف!.

جواب: هو العشب، أما عن عدد الأرجل، فقد كذبت عليك!.

إن المعتقد، هو نوع من الإلتزام اتجاه حقيقة ما تتعلق بهذا العالم. ربما تعتقد أن الشمس تشرق كل يوم. وقد تعتقد أن نيل آرمسترونغ قد خطا أولى خطواته على سطح القمر يوم 20 تموز، 1969. وبالتأكيد أنك تعتقد بقيامك الآن بقراءة كتاب.

إن مثل هذه الإلتزامات بما نعتقد، تسمح لنا أن نتحرك خلال هذا العالم، مع بعض التطمينات بأن حركتنا سيكون لها العواقب التي سبقتها نوايانا المقابلة لها. إن هذا التعميم غير الجدلي، يخفي في حقيقته أن هناك في الواقع عدّة أنواع مختلفة من الالتزامات. في هذا القسم، سنناقش الأنواع المختلفة من المعتقدات الضرورية لتوصيف ميكانيزمات الفكاهة.

إن المعتقدات المتعلّقة بالذاكرة العاملة، ولأجل الأغراض المذكورة هنا، ستكون هي الأهم من بين المعتقدات. فهي تشكل عماد محتوى الفضاء العقلي.

إن معتقدات الذاكرة العاملة، تنشأ مع بزوغ الأسباب والمسائل المتعلقة بالفهم والإدراك. وكذلك خلال عملية حل المسائل. وقد يكون لديها عدد غير محدود من المصادر الدلالية.

كل ما سنذكره هو ينتمي إلى مجموعة معتقدات الذاكرة العاملة؛ أحدهم قد يخبرك بأن السائل الموجود في الكوب هو قهوة (وأنت مصدّق لما يقول). أو إنك قد ترتشف منه فتتأكد من أنه قهوة. أو إنك قد تستنتج ذلك من خلال ملاحظة اللون، وحقيقة أن الكوب هو مخصص للقهوة. أو إنك قد تكون تركت كوب القهوة هذا من يوم أمس، وأنت تعلم إنه كان فيه قهوة، والآن تستحضر هذه الحقيقة ببساطة.

إن الإدراك اللغوي، عادة ما يكون إنطباعاً متحسساً بشكل مباشر. سواء بالإختبار، أو بالملاحظة؛ «إنها تبدو لي وكأنها قهوة».

أو، بدلاً من هذا، فإن الذاكرة العاملة على المدى الطويل ستزوّدك بقواعد بيانات لهذه المعتقدات[1]. بينما بعض هذه المصادر هي مجرّد أماكن محتملة تتوافر فيها الأفكار.

هنا سنحاول أن نستحضر المحتوى التشاركي للمعتقدات النشطة في الذاكرة العاملة.

إن معتقدات الذاكرة طويلة الأمد، من جانب آخر، ينظر لها بطريقة

---

(1) من الجدير بالانتباه، إن هذه الإستظهارات، إنما توضح بطريقة وكأنها تتحاكى مع أنفسنا، قليلاً أو كثيراً. لأسباب أردناها أن تكون قابلة للتمييز بسهولة من قبل القارئ. لكنها بعيدة عن الإستدلال الرشيد الذي يجعلنا نقول مثلاً؛ «هممم، أنا أظن أنها كذا». أو أن يكون هناك ردّة وعي صامتة؛ «آه، نعم، إنها بقايا القهوة السابقة». هنا سنكون بحاجة إلى تعليم مرحلة الإنتقال لأجل الوصول إلى المعتقدات النشطة. وإذا كنا سنحتاج إلى عملية إرتجاع، لتحديد أي مسار وجب السير فيه لِنُزيْلَ اللايقين، عندها سنقول: «أنا تذوّقتها...لا، لم تتذوقها، أنت مجرّد نظرت إلى لونها». وهذا سيحول المسألة برمتها إلى نوع من ممارسة الحدس. إن لدينا مقداراً أقل من حق إمتياز الدخول إلى أدمغتنا، أقل في الحقيقة مما افترض عدد من الدارسين وواضعي النظريات من فلاسفة اللغة مُسبقاً ـ المؤلفون.

أفضل على أنها؛ «ترتيبات مُكتسبة»، لأجل أن يكون لدينا معتقد نشط بعينه ضمن الذاكرة العاملة. لقد تعلمنا أشياء خلال حياتنا دفعتنا إلى تبني إحتمالية تنشيط معتقدات معيّنة ضمن الذاكرة العاملة، وتحت وطأة ظروف خاصة من النشاط المنتشر فعليًا.

لنفترض أن الذاكرة طويلة الأمد، هي شكل من أشكال العالم البديل. بالضبط كما يكون العالم الخارجي مفعماً بالمعلومات إزاء ذاته بالنسبة لنا. هنا سيكون الفضل عائدًا إلى منظوماتنا المتحسسة، كي تطلق المعتقدات النشطة (المناسبة)، أين ما تطلّب ذلك. إذن، ستكون الذاكرة طويلة الأمد، مصدراً مضافاً من مصادر المعلوماتية لنا، معلومات غير متوافرة آنيًا في المحيط الخارجي، لكنها موجودة تحت الطلب.

إذن، ما لم يكن لديك بعض الأسباب، بعض المُعطيات من النشاط المُنتشر، أن يكون دماغك محل تفكير بشأن «حرب جزر الفوكلاند» مثلاً، فإنك لن تكون مضطراً أن تحوز معتقدات نشطة تحت تصرّفك بشأن ذلك النزاع المسلح. ولا يهم هنا الكم الذي تعرفه بشأنها، ولا يهم ما تعتقد على المستوى طويل الأمد بواسطة متحسساتك بشأن تلك الحرب.

وبينما يتوفر لدينا مليارات المعطيات في الذاكرة طويلة الأمد، إلّا أنه سيتوفر لدينا في كل مرّة وفي كل لحظة معيّنة، مجموعة صغيرة بعينها من المعتقدات النشطة.

لكن فكرة أن تكون الذاكرة طويلة الأمد[1]، بمثابة مخزن للأشياء التي

---

(1) إن الذاكرة طويلة الأمد (LTM)، هي المرحلة الأخيرة من النموذج المعروف بحفظ الذاكرة على مستويات متعددة في العقل البشري. وقد اقترحه أتكسنون شيفرن/ Shif-frin. وهو ما يوفر الإحتفاظ المستمر بالمعلومات والمهارات. ونظريًا، يمكن أن تكون

تشبه العبارات اللغوية، (وهو ما يظهر في الدراسات اللغوية مقترحاً من بعض الباحثين)، وأن هذه العبارات يمكن استرجاعها أو تحريكها أو التصرف بها مخزنيًا، او استنساخها إلى مكان معيّن، إنما تشبه عملية الإستنساخ وإعادة الوضع في (RAM)، الحاسبة الإلكترونية. وسيكون هناك مكان تتراكم فيه المعلومات، حيث تجري كل العمليات.

إن فردانية المحتوى (على صعيد المعتقد المفرد الواحد)، وهناك المليارات متوفرة منه، إنما هي بمثابة قطعة أثرية تمثل احتياجاتنا. وخلال عرضها ستعمل على جذب الاهتمام للقضايا البؤرية في ذاكرتنا طويلة الأمد.

لكن الأهم خلال هذا السياق، هو ما يحدث على شكل صورة خاطئة، حيث تتحول الذاكرة طويلة الأمد إلى مجرّد مكان ترسل إليه الأشياء. هنا سيكون لدينا «مصل» مضاد لهكذا حدوث، سيتمثل بتذكيرنا أنفسنا بأننا في طور تطوير نموذج يحاكي عملية إنتشار النشاط ويواكبها.

إن الذاكرة العاملة، هي ببساطة، الجزء الذي يجري توزيعه من الشبكة

سعة الذاكرة طويلة الأمد لدى الإنسان غير محدودة. وإن وظيفتها الأساسية، تكون بتوفير مسار للدخول إلى هذه المعلومات، وليس توفيرالمعلومات نفسها. أما وقت الدخول المطلوب لهذه المعلومات، فقد يكون خلال دقائق، أو قد يستغرق العمر بأكمله. أما نموذج الحفظ المفترض فيها فقد يكون دلاليًا/ عبر المعاني. أو مرئيًا/ عبرالصور. وقد يكون صوتيًا أيضاً. واقترح تولفن/ Tulving نموذجاً لهذه الذاكرة يتمثل مرّة بشكل حلقات، ومرّة بشكل مدلولات، ومرّة بشكل إجراءات، من أطوار هذه الذاكرة. فالشكل (الإجرائي) من هذه الذاكرة، هو المسؤول عن تصوّراتنا الشخصية عن كيفية إنجاز الأشياء والمهام. والشكل (الدلالي) هو المسؤول عن تصوّراتنا التي نستخدمها في فهم معاني الكلمات والصور والإشارات والمعرفة عن العالم بعمومها. ـ المترجم.

الطبيعية للمعلومات العاملة أصلاً. شبكة واعية، يقظة غير خاملة (لا شيء يذهب سدى). وهذه الفروقات تأتي على شكل درجات مختلفة المستوى.

كشفت أعمال سويني/ Swinney، أن كل معاني الكلمات الغامضة، سيجري استحضارها حين تكون مطروحة. لكن معنى واحداً في العادة يكون أكثر تفعيلاً من غيره، فيكون محلّ ملاحظة ونظرة أولى. (ولقد تطلب الأمر تجارب دقيقة كي تثبت أن المعاني الخاملة بعمق قد عانت في الحقيقة نفضاً للغبار واسترجاعاً، إن لم يكن إستحضاراً كلّيًا شاملاً).

حينما نتكلم عن المعتقدات النشطة، فإننا نشير بصورة نمطية إلى أكثر الأشكال فاعلية من هذه المعتقدات. لكن، وكما سنرى، أن هناك الكثير من التأثيرات في الفكاهة تعتمد على أن لا توضع بين حالة اختيار اضطراري حاد، بين المعتقدات الحاضرة بقوّة، أو تلك التي يأكلها النعاس.

ومن الوسائل الجيدة للتمييز في هذا المجال، هو الأخذ بعنصر المفاجأة بنظر الإعتبار. ولكي نتفاجأ بشيء ما، وجب أن يكون خارج التوقعات. لكن هذه العبارة لا تعني مجرّد «غير متوقع». لنفترض أنك تتوقع وصولنا، وإننا وصلنا إلى منزلك ونحن نقود سيارة زرقاء. اللون الأزرق هنا لن يفاجئك، فأنت لم تكن لديك أي فكرة عن لون السيارة التي سنأتي إليك بواسطتها.

لكن لو كانت السيارة تحمل لوناً قرمزيًا أو برتقاليًا مشطَّباً يتلألأ مع أشعة الشمس، فيعطي ألواناً إنعكاسية أخرى ومتعددة، فإن الأمر سيفاجئك حتماً. (ستتفاجأ ما لم يكن لديك معطيات مسبقة تجعلك تخمّن بأننا سنأتي إليك بسيارة من مثل هذا اللون).

اِفترض إننا قمنا بـ«لصق» كوب القهوة على طاولة المطبخ، ولم تتمكن من رفعه حين شرعت بمسكه. إن كان لديك مُعتقد مسبق بأن كوب القهوة هو بالأصل شيء قابل للتحريك، وليس ملصقاً على الطاولة، وإن كان هذا (المعتقد)، فعالاً بشكل ما ضمن وعيك، فلن يكون هناك أي خرق للتوقعات حين تفشل في رفع كوب القهوة. أنت لم تتوقع بالأصل أن كوب القهوة لن يُرفع. ولن تكتسب المفاجأة أو تظهرها.

قد يحدث أن يكون مستوى النشاط منخفضاً. لكنه لن يكون بأكثر من ذلك النوع من التنشيط المعتمد على مبدأ «التصرف في الوقت المناسب»، بصورة كبيرة. ويظهر بشكل سلس حين يتهيأ الحافز من داخل وعيك. وكردَّة فعل على إعمال تجربتك، فقد وضعت نفسك بثقة في مكان حالة مطبخ إعتيادية، ستجعلك في موقف التساؤل لماذا لا أستطيع أن أرفع كوباً من القهوة من طاولته؟. بطريقة مماثلة، قد تتفاجأ حين تنخلع حنفية الماء الحار من مكانها لحظة ما تلمستها. وفي الحياة العملية، في مختبر للبايوكيمياء، أو ضمن خط إنتاجي في مصنع ما، سيكون مع كل هذا لديك نقص واضح في التوقعات بشأن العديد من الفقرات بسبب تعقّد المشهد. وعليه، سيجري إعلامك بالمعلومات، لكنك لن تتفاجأ بأي شيء ستكتشفه.

نطرح هنا سؤالاً، إلى أي مدى تعمل هذه الآلية من إستيلاد التوقعات؟. في الحقيقة، إن الجواب هو مسألة أمبريقية خالصة، تعتمد كليًّا على الفرد وعلى الظروف المحيطة.

لدى كلٍّ مِنّا تضمينه الخاص لما يتصوّره من حلول لمشكلة توفر الإطار الفكري. وكذلك نتقاسم عدداً كبيراً من الستراتيجيات، بينما نحتفظ أيضاً باختلافاتنا الفردية.

ولكي نجري مقاربة متوقعة لنظرية الفكاهة، تكون أقرب إلى الواقعية. إن توفر لدى (هاري)، و(توم) طرفة، بينما لم يكن لدى (ديك) أيٌّ منها. فإن من المحتمل أن حلول (ديك) لمشكلة الإطار الذي تساق به الطرفة لم تشتمل على ذات الكشف المشذب الذي نفذه وتوفر لدى كل من هاري وتوم.

إن الإنتهازية (بمعناها الإيجابي)، والفردانية ضمن سياق الكشف عن الفكاهة، التي يتخذها كل فرد عبر آلية «التصرّف في الوقت المناسب»، يبدو أنها محكومة بعدة أنواع من القوى، تعمل على تحديد مدى النمذجة الممكن تقديمها، وتحديد إنتشار النشاط، وكالآتي:

1 ـ الاحتكاك: إن التنشيط الذي يجري إنما يحدث ضمن سباق يتلاشى منه البخار الدافع باستمرار. ومهما كانت الطاقة الدافعة إلى التعبير متوفرة، فإنها ستبدأ بالخبو والضعف ضمن المحتوى المعيّن المقدم في سياق الفكاهة. وهي تحاول لملمة الفرصة لتقدّم نفسها متجددة، لكنها تخبو مع الوقت.

2 ـ الخاتمة: إن هناك ما يتعلق بالمحتوى يكون عادة (أقرب من غيره، أو أبعد)، ويكون أقرب إلى الاستكشاف من النواحي الأخرى. (لا شيء في نهاية هذا الزقاق، وفّر وقتك وجهدك!). وحين يهمل لاعب الشطرنج، وجود آلة مهمة لدى خصمه في مكان معيّن، في الحقيقة هو يضع نفسه محل التساؤل؛ كيف يمكن لهذه الآلة أن تشكل خطراً على بيادقي!، إنه لن يتحرّك. هذه الحالة، تختلف عن أن لا يجد اللاعب وقتاً حتى يقدر خطر تلك الآلة اتجاه بيادقه.

إن كل القوة الإدراكية التي يمتلكها الفرد ضمن منظومته المسمّاة؛

«التصرّف في الوقت المناسب»، تقع ضمن نطاق استخدامه لـ «الخاتمة». وحيث أن الإحتكاك جيد بقدر ما يكون متعامياً عن المحتوى، أو أنه سيتسبب بتوقف البحث بلا سبب على الإطلاق، بدلاً من استنفاد الوقت دون حصول شيء. تأتي الخاتمة لتمثل التناقض، وإمكانية ضبطها باستخدام الخبرة. يمكن أن نتصورها على هيأة منظومة منطقة معالجة إقتصادية، تساعد على تفادي آثار التعامي من أجل تحديد المصادر المعرفية. تفعل ذلك عبر «البحث الأناني عن أعذار» تنفع في سياق تبرير الفكاهة. وستستخدم هذه الأعذار لأجل حذف نشاطها الخاص في أي وقت. متى ما رأت منطلقاتها المحلية أنها ستدخل في نشاط من غير المحتمل أن يتلاءم مع منتجاتها الموهوبة، المتوفرة من الذاكرة طويلة الأمد. لذا، يتوجب عليها حفظ مصادرها وذخرها لأجل فرصة أفضل[1].

إن المعتقدات طويلة الأمد التي تبقى خاملة (ظرفيًّا) بسبب الإحتكاك ستكون ببساطة غير معيّن لها أي مهمة. كما ستكون عارية من أي إحتمالية على الإطلاق ضمن تلك الظروف ولن تمنحنا أي استثناءات. أما المعتقدات طويلة الأمد التي تبقى خاملة بسبب (نوعية الخاتمة التي تحملها)، فهي أمر مختلف. فالخاتمة تستولد نوعاً من الإشارة التي تخلق نشاطاً ـ عادة ما يكون مشوباً بالنعاس، لكنّه سيولّد شيئاً من التوقّعات.

فلو تصوّرت مكتباً، فإن مُعتقدك بعدم وجود ضِباع داخل هذا المكتب

(1) سيكون أمراً بنّاءً إن قارنّا وجهة النظر الكاشفة هذه، مع المشكلة التي تواجه المخابرات المركزية الأميركية (CIA)، في سعيها المحموم أن تدفع الإرهابيين بعيداً عن إمكانية مباغتة المجتمع، أو إيهامه. إذ أن كل وكالة حكومية لديها موازنة مالية، وتسعى أن تقتصد في صرفها عبر مخاطرة مستمرة. وأنها تصرف الموارد فقط حين يشعر أفرادها بأنهم فعلاً يساهمون بقوة في إنقاذ الوضع فورياً ـ المؤلفون.

لن يحضر إلى ذهنك باللحظة. ولن يكون معتقداً نشطاً لحظة شروعك في تصوّر شكل المكتب. لكنك من الممكن أن تتقبل الحديث عن وجود «ضباع»، بهيأة بشر عاملين ضمن مكتب ما ضمن سياق حوار أو حديث، وضمن محتوى آخر تماماً. يعني يمكن أن تتقبل معنى بلاغيًّا في هذا الشأن؛ «إنهم يتعاملون في العمل والتنافس كالضباع!».

كذلك ليس هناك من حيوانات أو وحوش أخرى في متخيّلك عن المكتب، لكن دماغك لن يتعامل مع كل مفردة من هذه المفردات على أنها بؤرة أو محل معتقد نشط. لأن الخاتمة ببساطة لا تأخذنا إلى أي احتمالية لوجود أي نوع من الحيوانات في تصوّرات شكل المكتب. هذا السبب هو الذي جعل حضور كلمة (ضبع)، أو أي مسمى آخر لأي حيوان أن يفاجئك. لأنه يخرق التوقعات. ولو سألك أحد آخر عن وجود ضباع في المكتب، أو أي حيوانات أخرى، ستكون إجابتك الفورية نافية. لكن هذا السؤال بالذات، فيما لو طرح عليك بهذا الشكل، فإنه سيغير من السياق الإدراكي للحوار. وسيدفعك الى استخدام آلية «التصرّف في الوقت المناسب»، لأجل أن تنتج جواباً يخضع للعقلانية، والتوقعات الممكنة في ردّك. ولو عاكسنا هذا السؤال، مع السؤال التالي؛ إن كان هناك أي نباتات مزروعة في الأصص ضمن المكتب؟، هنا سينطلق الإحتكاك. وربما أن آليتك في «التصرّف في الوقت المناسب»، لن تفتتح نشاطها، أو إنها ستتراوح بين فتح هذه النافذة وغلقها.

إن قضية ما يمكن تضمينه، وما يمكن عزله، ضمن هكذا مصفوفة فكرية، سبق أن أشار إليها جون مكارثي/ John McCarthy، وسمَّاها «مشكلة التأهيل». وجرى إيضاحها بجلاء عبر لغز (المُبتعثين وأكلة لحوم البشر):

إلتقى ثلاثة من المُبتعثين الإرساليين، وثلاثة من أكلة لحوم البشر عند حافة نهر. وكان يتوفر قاربٌ للعبور يتسع لشخصين فقط. وإذا حدث وزاد عدد أكلة لحوم البشر على عدد الإرساليين عند أي ضفّة، فعندها سوف يأكلون الإرساليين. كيف إذن يتسنى لهم عبور النهر بأمان.

من الواضح أن اللغز يحتوي على ستراتيجية حل، تتمثل في رواح القارب ومجيئه عدّة مرّات، وبتنوّع ركابه لكي تتفادى الكارثة.

لنتصوّر إننا عرضنا هذا اللغز على شخص ما، ثم فكر لفترة وقال: «من السهل أن نمشي باتجاه أعلى النهر نصف ميل، ومن هناك سنعبر على الجسر، ولن نحتاج إلى القارب. لكن!، أي جسر؟. ستوقفه وتقول: «لم أخبرك بوجود أي جسر خلال اللغز!».

سيجيبك: «نعم، ولكنك لم تقل أنه ليس هناك جسر. ستعيد النظر كرّة في اللغة المستخدمة، وستكتشف فعلاً أن السرد الأولي لم يقل إنه ليس هناك من جسر متوفر على النهر. وبالعادة، الأنهار والجسور تترابطان.

عندها ستضطر إلى تعديل المنطوق، وستؤكد هذه المرّة على عدم وجود جسر حين تلقي اللغز ثانية. ربما في هذه المرحلة، سيقترح من ألقيت عليه اللغز، أن جرى استخدام طائرة مروحية. ستعيد الكرّة وتقول هذه المرّة ليس هناك من طائرة مروحية متوفرة خلال سرد اللغز. ترى أن مسلسل الحماقة في الإقتراحات لا ينتهي، وفي كل مرّة، يجري الحياد عن مسار الإدراك الذي رسمه نص اللغز، وربما في النهاية سيخبرك أن هناك ثقباً في القارب، فكل الإحتمالات مفتوحة وفقاً لهذه الطريقة من التفكير.

إن الوقوف على صعيد إدراكي واحد، ضمن هذا المثال من الألغاز، يتطلّب مشاركة الكثير من رصيد «التصرّف بالوقت المناسب»، وبالتالي يمكن التشارك في الفضاء العقلي المؤطّر لسرد اللغز. إن توافقاً مشابهاً سيكون ضروريًّا أيضاً في حالة تقاسم الفكاهة وطرحها.

7 ـ 3. المحاذير الأبستمولوجية والالتزامات:

إن ما يوقعنا بالمشاكل، ليس ما نجهله. ولكن ما نكون متأكدين من أنه في الحقيقة ليس على ما يبدو عليه.

مارك توين.

إن التفريق بين أنواع المعتقدات هو أمر ضروري لسريان الفكاهة. قد تظنّ أن مطعماً بعينه ما زال مفتوحاً وسط المدينة هذه الليلة، لكن لنفترض أنك واعٍ باحتمالية أن يكون المطعم مغلقاً. وإذا قدّت سيارتك، لتناول الغداء، ثم وجدت أن المطعم مغلق، سوف تصاب بالإحباط، لكنك لن تتفاجأ لو وجدت أن المحل مغلق في الفترة بين الغداء والعشاء. خاصة خلال الأعياد، أو العطل. إن هذا النوع من المعتقدات الشائعة، غير الملتزم بها يمكن أن يناقَض بما نطلق عليه؛ «المعتقدات النشطة المُلزمة».

وعندما تذهب لممارسة رياضة التزلّج من الجبال، أو الركمجة، فإنك ترهن حياتك رهان أداء آلة معيّنة ورهن جودتها. سواء كنت مدركاً لهذا أم لا. عبر تفاصيل أداة اللعبة، أو عبر ما يشرحه لك المُشغّل المشرف على

ممارستك هذه الألعاب. حقيقة أنك تُدرك رهنية حياتك لقاء هذه اللعبة. وهذا هو نوع من المعتقدات النشطة الملزمة التي لدينا.

لنأخذ في نظر الإعتبار مثالاً آخر؛ عندما تلقي مرساة قاربك، وتثبّته وسط الماء، سيكون لديك عدّة أنواع من المعتقدات المتعلّقة بهذه الحالة. سيكون لديك معتقد أن المرساة قد انغرست في مكان ما تحت القارب عند قعر الماء، لكنك لا تعرف بالضبط أين. وليس لديك أي التزام بأن تعرف الموقع بالضبط.

وإذا حدث أن ارتطمت المرساة إلى اليسار قليلاً من المكان الذي ألقيتها فيه، فلن يكون هناك مفاجأة أو إرباك تحتسب له. من جانب آخر، إنك من المحتمل ستكون ملتزماً بمعتقد أن الطرف الآخر من المرساة إنما يرتبط بقوة إلى مكان ما داخل سطح القارب. وعندما ستراقب نهاية الحبل أو السلسلة وهي تتسرب نازلة إلى الماء، قد تُصدم. وخلال ظروف معيّنة، قد تجد هذا الحال طريفاً أيضاً. ولو كان هناك شخص آخر يراقبك، فإنه على الأكثر سيشعر بنفس الطرافة التي شعرت بها.

إن المعتقدات النشطة المُلزمة مثل هذه، هي المعتقدات التي نتصرّف اتجاهها بجسارة. أمّا المحاذير والإحتياطات المعرفية الأبستمولوجية، فهي التي تمهد لاحتياطات السلوك ونواذره. والإلتزامات المعرفية هي التي تؤطر جرأة سلوكنا وجنسانيته.

يحدث هذا بصرف النظر فيما إذا كانت المحاذير والإحتياطات علنية أو مخفية. إن لم تكن متيقناً أن ماء الحنفية الذي يسيل هو ماء حار، فإنّك ستمدّ يدك بحذر لتختبره. لكنك لو كنت متيقناً انه ليس حارقًا، فلن تتردد

في غمس يدك فيه. وإذا كان شيئاً ما؛ «تعرف يقيناً أنه ليس كما يبدو عليه»، فإنك ربما ستحرق يدك. الأمر مشابه في السلوكيات المغطاة للفهم الدلالي، خاصة حين تستمع إلى العبارات المتفرقة. «لقد كانوا داخل دبابة..»[1]. إن لم تكن متيقناً من معنى كلمة «دبابة/ صهريج»، فإنك سترتبك لتقرير ما إذا كان الحديث يدور عن صهريج للماء، أو دبابة عسكرية، أو خزّان للسمك الحي. لكن، لو سمعت أحدهم يقول: «إنه سيذهب إلى المتجر، وسيصطحب (خزان) السمك معه خلال عودته»، فإنك لن تتردد في إعتبار الخزّان المعني شفافاً، إسوة بما يمليه على ذهنك معنى أنه خزّان للسمك. وإنه بالضرورة سيكون مليئاً بالماء، وإنه سيكون أصغر من سيارة بيوك، لأنه يمكن حمله إلى البيت. هذه الإيحاءات متأتية من ذكر سياق كلمة سمك، وكلمة خزان/ حوض. وهي بالتأكيد مدلولات غير غامضة.

إن مستوى الإلتزام اتجاه معتقد ما، يتعامد تماماً مع مستوى النشاط. إن تهيُّؤَك لمد يدك تحت ماء الحنفية، يعتمد كليةً على وعيك بمستوى الأمان الذي تنظر به إلى الماء ودرجة حرارته. صحيح أن الضعف في التقدير، وتبعات المآلات، لقناعتك القوية بأن الماء على درجة حرارة آمنة، ربما يعطي تفسيراً لماذا لم تحدث تعديلاً على معتقداتك بهذا الشأن. لكنك لم تدُر حول نفسك متسائلاً فيما لو كانت إلتزاماتك الأساسية مبررة أم لا.

إن الإلتزام اتجاه المعتقدات، هو جزء متكامل من حالة السير باتجاهين بين (الذاكرة طويلة الأمد)، و (أنظمة الذاكرة العاملة). إن مستوى الإلتزام بمعتقد ما، ضمن الذاكرة العاملة، سيكون مصاحباً للمعتقد الذي يسير نحو

---

(1) في الإنكليزية، Tank تعني دبابة، وتعني صهريجاً، ويمكن أن تعني حوضاً أيضاً ـ المترجم.

موقعه في الذاكرة طويلة الأمد، وثم يعود متقهقراً اتجاه فضاءات الذاكرة العاملة.

إن كنت تراقب حيوان راكون، وكان مغطى الوجه بقناع، فعليك أن تفتح فوهة سلّة المهملات الخاصة بك. إنك ستتذكر هذه الحقيقة، وستلتزم اتجاه ما تستولده من معتقد، بأنك أمام حيوان راكون، وهو موجود في المكان، بصرف النظر عن القِناع وتوقعاتك لما يقبع تحته.

وإذا اقتنصت نظرة إلى وجه الراكون، (طيب، لو لم يكن راكوناً، فماذا يكون غير ذلك؟. وهو يجري بسرعة!). وهو يركض في كراجك، فستقارب المعتقد بأن هناك راكوناً في المكان. لكن مع بعض التحفظ الناتج عن الإحتياطات الأبستمولوجية التي تفرض نفسها آنيًّا.

إننا نتوقع أن تكون درجة اليقين في مثل هذا المعتقد، مضمّنة في مشهد المعلومات بشكل ما. ربما بالطريقة التي اقترحها واقترح تدريجها أنتونيو داماسيو[1] / Antonio Damasio.

اقترح داماسيو أن تكون هناك علاقة رقمية. هذه الفوارق الرقمية، هي وسيلة عملية انتشار النشاط لتعديل النظم العصبية وضبطها. مثل هذه التدريجات والترقيمات للمعتقدات، تكشف إلى أي مدى يمكننا أن نثق

---

(1) أنتونيو داماسيو، عالم أعصاب أميركي ـ برتغالي. تخصص في علم الأعصاب السلوكي، وبخاصة ما يتعلّق بالمشاعر العصبية. طرح نظرية مفادها أن المشاعر تلعب دوراً دقيقاً للغاية في المستويات العليا من المعرفة والإدراك. أي إن المنطق الأرسطي لتراتب المعرفة وتراكمها سيكون مهدداً بتأثير المشاعر، خاصة في المستويات العليا من الإدراك. وأفاد بأن المشاعر يمكن أن تنحاز للسلوك، وتجعله منحازاً. وقد وضع لهذا الموضوع تدرّجاً رقمياً ـ المترجم.

بمعتقد ما. وعليه، مدى ثقتنا واعتمادنا للاستنتاجات المستولدة من هذه المعتقدات حين تصبح نشطة.

هذا الترقيم أو التدريج، تظهر أهميته حين يسير النظام بالاتجاه الخاطئ. فمن المحتمل أن يتحول المعتقد الجاري الإلتزام به ضمن الذاكرة العاملة، إلى معتقد معتمد ضمن الذاكرة طويلة الأمد. وهذا بدوره سيكون نقيضاً للمعتقدات المستقبلية النشطة، وسيستعمل في إدارة محتوى الأفعال المنطقية.

إن السماح لهذه العملية البالونية بأن تمضي بلا تفحّص أو اختبار، حين يكون واحد أو أكثر من المعتقدات الملتزم بها غير متوافر، سيؤدي إلى خلق معتقدات خاطئة. غير صحيحة، ولا يستدل بها. وتؤدي إلى تمثيل خاطئ ضمن العالم الخارجي.

إن المعلومات التي نستذكرها عبر خبرتنا، هي ليست نسخة عالية الدقّة من تلك التجارب. مهما تكن واضحة وجليّة. لكن ما يتوفر في الحقيقة هو نسخة واطئة الجودة ومتحوّلة من المعلومات والتجارب والخبرة، والتي شهدت فقداناً للسياق الأصلي، وعانت أنضغاطاً واختصاراً.

هنا يتخذ الدماغ حلًّا طارئاً. إذ إنه سيحاول أن يلاحق المعتقدات الخاطئة والمضللة قبل أن تتحول إلى الخزن المشفر. وبينما يكون السياق حاضراً لدينا وتحت المناقشة، وقبل أن نحسم مصير هذه المعتقدات الخاطئة.

أمّا الذاكرة المفاهيمية فهي جزء من الذاكرة الدلالية، ويمكن تعريف المفاهيم ببساطة بأنها الأفكار التي تربط المعنى بأي شيء يمكن أن ندركه بحواسنا. إننا نبدأ في تعلّم المفاهيم منذ المَهد، وهي تشكِّل جزءاً مهمًّا

من قدْرتنا على الحكم على قيمة الأشياء من حولنا. ولأن المفاهيم ترتبط بتخزين القواعد وقواعد البيانات والإشارات المرجعية والمعاني، فإنها بحُكم تعريفها تندرج ضمن الذاكرة الدلالية.

وتأتي الفكرة الراسخة عن التعلُّم الضمني لتتمحور حول كونه تعلُّماً إدراكيًّا بحتاً لا يمكن أن يتفاعل مع الذاكرة الدلالية أو يساهم بأي شيء فيها؛ لذلك تحتم اختبار هذه الفكرة والتأكد مما إذا كان بإمكان الذاكرة الضمنية التعامل مع التهيئة المفاهيمية أم لا. وللقيام بذلك استخدم أشخاصًا مصابين بفقدان الذاكرة؛ لأن هناك أدلة على أن فقدان الذاكرة يُدمر الذاكرة الصريحة وليس الذاكرة الضمنية.

وعُرضت جُمَل لا تحمل أي معنى على مرضى مصابين بفقدان الذاكرة، ومن بين تلك الجمل الجملة التالية: «كانت النغمات رديئة لأن حاشية القماش قد تفككت». ثم عُرضت عليهم كلمة دليلية، وقد كانت في هذه الحالة كلمة «مزمار القربة الاسكتلندي». وقد وُجد أنه عندما عُرضت الجُمَل بمفردها، استطاع المرضى المصابون بفقدان الذاكرة في الكثير من الأحيان تذكُّر الكلمة الدليلية حتى بعد مرور عدّة أيام، وذلك على الرغم من نفيِهم المتكرِّر لرؤية الجملة أو الكلمة الدليلية من قبلُ.

لقد تمكن التطوّر من تزويدنا بنوع من الحلول؛ مستغلًّا مشاعرنا المعرفية والإدراكية. أولاً، عبر «الإرتباك»، كما جرى تعريفه. وهو ما سيساعدنا في تحديد مواقع الإشتباك في الذاكرة العاملة. وهو ما سيلقي الشكوك باتجاه المعتقدات التي تعاني اشتباكاً في الدلالة. وسيسمح بعملية تشبه إعادة الإستكشاف من أجل إصلاح الأعطاب.

والأفضل من بين هذا، إنه سيتحرّى الإلتزامات غير المناسبة، قبل أن يتاح لها المجال لخلق معتقدات راسخة ضمن الذاكرة طويلة الأمد. وهو ما سيساعد على حمايتنا من الوقوع ضحية استنتاجات خاطئة. إن هذا هو جوهر ما نقترح أن يكون قلب الفكاهة والغرض منها. وهو المهمة الأعلى في أهميتها والتي ندفع العوائد لأجلها، وتحمينا من الكوارث التي قد تصيب نظامنا المعرفي. وفي المعرفة ولأجل مزيد من الوضوح في فهم النظام المعرفي البشري، وجب التفريق بين المعرفة الإجرائية، والمعرفة التقريرية.

فالمعرفة الإجرائية، هي التي تشتمل على أن (نعرف كيف) ننجز الأشياء. ومنها المهارات، كيف تعزف على البيانو مثلاً، وكيف تركب درّاجة هوائية، لكنها لا تنضوي على أفكار واعية. أمّا المعرفة التقريرية، فتشتمل على أن (نعرف أن كذا)، فمدينة لندن هي عاصمة المملكة المتحدة، والحمار الوحشي حيوان برِّيٌّ. لكن استدعاء المعلومات من الذاكرة التقريرية يتم عبر بعض الآليات الواعية. فالمعلومات بدءاً يجري جلبها إلى الذهن، ثم (إقرار) وجودها. إن الفوارق بين هذين النوعين من المعرفة، جرى اختبارها على مرضى فقدان الذاكرة/ Amnesia، وكانت واضحة الوجود. وفي العادة، فإن المريض بفقدان الذاكرة يواجه صعوبة في استرجاع المعلومات الدلالية وليست الإجرائية. وبينما تميل ذاكرتهم قبل الإصابة إلى أن تبقى سليمة، لكنهم يواجهون صعوبة في إضافة ذاكرة عرضية جديدة.

7 ـ 4. الصراع والقرار.

لقد احتفلتُ بعيد الشكر بالطريقة التقليدية القديمة. لقد دعوت كل

الجيران إلى منزلي، وكان لدينا إفطار ضخم، ثم قتلتهم جميعاً واستوليت على أراضيهم.

جون ستيوارت/ كوميديان أميركي.

إننا سنستشعر وجودَ صراعٍ معرفي، حين نجد تعارضاً بين عناصر المُعتقدات المُختلفة ضمن الذاكرة العاملة[1]. أمّا التعارض بين المعتقدات ضمن الذاكرة طويلة الأمد، فقد يوجد خاملاً جنباً إلى جنب، وبشكل غير قابل للتمييز. فقط حين يحضر معتقدان متخالفان سويّة ضمن فضاء الذاكرة العاملة ـ وضمن الوعي بوجودهما، فإننا سنكتشف مشاركتهما سوية في تشكيل صراع معرفي.

إن هناك ثلاثة مُخرجات محتملة لأي صراع معرفي؛ ففي صراع غير محلول، سنجد أنفسنا مرتبكين. وبين أيدينا قصّتان من سرد المعلومات، مع ملحقاتها من ملحوظات مُجريات الصراع نفسه. لكن، سيكون لدينا استرجاع أحد المعتقدات أسهل من غيره، بينما تُلصق بالمعتقد الثاني صفات اللايقينية. ولكنه يبقي على المعتقد الثاني على البال.

أمّا في حالة «القرار التعاضدي»، فإننا قد نجد طريقة نقبل بها حقيقة كلا المعتقدين، عبر وسيلة خلّاقة تذيب التناقض الظاهر بين المُعتقدَين، وتحيله إلى حالة من المواءمة.

(1) مثال ذلك الإرتباك والدهشة والتساؤل الذي يصيب الشخص حين يفقد غرضاً شخصيًا استعمله للتو، هاتفًا نقّالًا، أو ولّاعة سجائر. أمّا من يبحث عن شيء مضى عليه زمن (أي إنه انتقل في المعلومات عن مكان وجوده لتخزّن في الذاكرة طويلة الأمد)، فإنّه سيصاب بالإحباط حين لا يجد ذلك الغرض، لكنه لن يصاب بالدهشة أو الارتباك ـ المترجم.

وفي حالة «القرار اللاتعاضدي»، فإن أحد المعتقدين سيبقى، بينما يجري تدمير الآخر.

إن أي معتقدين اثنين، بصرف النظر عن الوسيلة التي جرى بها اشتقاقهما، قد يدخلان في حالة صراع بينية. أما عملية (جرّهم) إلى صراع، فهي نتاج ومُخرج لعملية صعبة، أو أن الحظ يلعب دوره في هذه الحالة.

إن مجتمعاً ضخماً قد يقع ضحية لتجهيل مبارك، يشتمل تناقضاً واضحاً في «المعرفة الجمعية»، إلى أن يأتي مفكرون صناعيون وخلّاقون ليشحذوا أنوفهم طلباً لحل المعضلات. أو لغاية أن تحدث صدفة تدير انتباه الجميع إلى أصل المشكلة.

ولقد لعب العلم والأدب عبر التاريخ دوراً مهمًّا في تنسيق عملية تدريجية، تنتهي إلى الكشف ووضع الحلول التي تجعل كل شخص يساهم في البحث عن أسباب الصراع. ولكل واحد منّا أجندته العلمية الخاصة به. عبرها، نتحرى الجذور الخاصة بهذا الصراع، نشرك عالمنا المعرفي الخاص بهذا الصراع.

ومن المدهش أن الأفراد الممارسين لفعل الكوميديا على المسرح (الكوميديانات)، يُعدّون شكلاً من أشكال العلماء غير الرسميين، لكنهم بالطبع من ضِمن الخبراء، وبما يساهم في جلب وتعريض مواطن الخلل ضمن وعينا الإجتماعي العام.

إن المقاربة المؤقتة البسيطة، التي تجلب كلا المعتقدين إلى مساحة التنشيط سوية، ستكون خطوة ضرورية. وهي ستشعل الإرتباك الذي سيدفع إلى البحث المحموم عن الحل لهذا الصراع.

وكما يستخدم العلماء في العادة، التجارب المسبقة الفهم، وسرديتها المبسطة، لأجل أن يجدوا حلًّا للصعوبات النظرية، سيكون من دواعي الفهم لدينا أن نستخدم هذه السرديات في رسم ملامح الصراع خلال ما يواجهنا يوميًّا من قضايا تتطلب الفهم والاستيعاب.

وعندما يحدث أن يصل صراع معيّن بين المعتقدات، إلى أن يُسقط أحد هذه المعتقدات ويؤشرها على أنها «خاطئة»، فإنها ستكون خاطئة على مستوى سياق السرد الذي تبنيناه، وليس بشكل موضوعي.

عند هذه النقطة، يبدأ نموذجنا بالإختلاف البيّن عمّا سبق أن قدّمه شوبنهاور. حيث سبق أن قدّم نموذجاً يعتمد على إستثارة الفوارق بين التصوّرات والمفاهيم. تطرح الأبحاث الحديثة مسألة مبنية على أن التفريق بين هذين التصنيفين، هو أمر مصطنع كلية. في الحقيقة، إن المفاهيم، والتصوّرات، يتشاركان في الكثير والعديد من دوائر الأفكار. وكان العنصر المهم في محاولة شوبنهاور للتفريق بين التصوّر والمفهوم، هو كيفية تماثلهم وتمثيلهم ضمن النظام العصبي. بل أكثر من هذا، كان يبحث في العناصر التي تشكل علاقة بين بعضهما البعض.

إن «المفاهيم»، هي في العادة متوفرة في الذهنية، بينما تأتي «التصوّرات»، لتطرح صراعاً آنيًّا معها. وبما أن التصورات تكون أحدث في وصولها وحضورها، (أسرع من استحضار المفاهيم)، لذا سيكون هذا التفريق المؤقت عبارة عن منزلق غادر يسهل الوقوع في تضليله.

ماهي السرعة التي يجري بها ترسيخ المعلومات بعد وصولها إلى الدماغ، واستخدامها ضمن «التصوّرات»؟، ومن ثم حيازتها حالة المعرفة، أو تبوُّؤها مستوى «فرضية»؟. بأي سرعة تتحول المعلومات إلى «معرفة»؟.

في الحقيقة لا يتوفر خط بياني واضح لرسم مثل هذه العلاقة (سرعة تحوّل المعلومات إلى معتقدات في النهاية، أو تصوّرات). ولا توجد حاجة أن نُصِرَّ على وجود مثل هذه العلاقة المباشرة والرياضية والقابلة للقياس.

لكن شوبنهاور نظر إلى الفكاهة على أنها «تصوّر» تمكّن من هزيمة «المفهوم». لأنه في العادة تكون الحالة كالتالي؛ أن تتمكن المعلومات المُدركَة حسيًّا من تعديل ما متوافر من مفاهيم، عبر التأكيد وعبر الدعم وعبر التحدّي. أو أن تتكامل معها رغم هذا، فإن هذه الحالة هي ليست الحالة الشائعة والنمطية، لا تجري الأمور دائماً وفقاً لهذا السياق.

إن ظهور «مفهوم» ما وصعوده، قد يتقاطع أو يتحدّى «تصوّراً» ماضياً في طريقه. أو أن يحدث صراع بين اثنين من ملامح الإدراك الحسّي[1].

من جانب آخر، يمكن لمفهوم ما أن يهزم مفهوماً آخر. كما يحدث خلال أحلام اليقظة حين تتقاطع مع الحسابات العقلية، ثم تتحدى الضمير بأن تثير توبيخاً ذاتيًا كي يُعيد الحالم إلى عمله.

من هذا المُنطلق، سنعدُّ أن كل أنواع المعلومات التي تدخل في بناء أو تعديل الفضاء العقلي ستكون متساوية القوّة. وذلك دون التفريق بين المفاهيم والتصورات وقوّة فعل كل منهما. وفي المقابل، فإن ما يُهم فعليًّا هو درجة الإلتزام المعرفي بأي منها. ويأتي نموذج شوبنهاور ليميل مع نهايتين مثل هذه ضمن هذا الطيف.

كذلك إننا نجد المُعتقدات المنشطة، وقد دخلت ضمن الفضاء العقلي بطريقة

---

(1) مثال ذلك، بعض الرسومات الخادعة المضللة التي تنشرها بعض صفحات التسلية، من قبيل مرتسم يبدو من زاوية أنه رأس فتاة وشعرها المنسدل، بينما يمكن رؤيته على أنه حصان يشرب من ينبوع للماء. الأمر يعتمد على مبتدأ عملية النظر إلى الرسومات الملغزة، والبداية هي التي ستقود إلى فهم الرسم ضمن سياق محدد ـ المترجم

متسلسلة. ولدى دخولها ستخضع إلى عملية سنصطلح عليها تسمية؛ «المصالحة المعرفية ثنائية الاتجاه». وهي متعلّقة تماماً بالمحتوى الجاري للفضاء العقلي.

من المفيد هنا إعادة التنويه بالمقصود بـ «الفضاء العقلي». إنه المحيط الذي يسبغ معلوماته على الحالة. ويمنحها أرضية من الإدراك كي تتحرك ضمنها. فالفضاء العقلي ليس مجرد مجموعة من المواصفات، إنما هو إملاء شبه قسري يدفع العقل إلى حصر التفكير ضمن متاحات محددة. ويمنعه من القفز الى استنتاجات لا أرضية لها. وهناك الفضاء الأساسي، ويعرف أيضاً بـ «فضاء الواقعية»، مثاله الفضاء الذي يدور فيه الحوار بشأن تقاسم المعرفة على مستوى العالم. ولا يُبنى هذا الفضاء إلّا عبر العبارات المُحددة له، والتي ترسم فعليًّا مدياته.

ماذا يحدث، حين يتصادم مُعتقد مُلتزَمٌ به، مع مُعتقدٍ آخر ذي نسبة التزام أقل؟. أو أن يتواجه مُعتقد قوي في اعتماديته، مع آخر أقلَّ منه قوةً. في العادة، فإن الأخير يبدأ بتصفية نفسه. (أنا أستسلم، لا تهتم!). ولن يستتبع ذلك أي معركة. وبما أنه لم تحدث معركة، فإنك ستلاحظ ما حدث بصعوبة بالغة. لكن العلة تحدث حين يتصارع معتقدان قويّان بنفس المستوى. فإن هناك شيئًا سيجري التنازل عنه، وسيذعن، بينما تندلع المعركة. وتظهر على السطح ملامح الإرباك. وسيجري تقييم الحلفاء، وهذا ما سيجعلهم من المشاهير ضمن الدماغ. وفي الواقع سيكون هناك نوع من الحل في النهاية. لكنه حل غير مضمون. إن ضمانته تعتمد على قوة الحلفاء في كل جانب. لكن حين يحدث هذا، ستكون هناك أماكن رمادية على مرتسم التصالح، وليس فقط أبيضَ أو أسودَ.

إننا قد نتعامل مع المعلومات المتأتية من حواسنا على أنها أكثر موثوقية

من تلك التي أتت إلينا عبر التصوّرات. فالأخيرة تكون قد خضعت للتعديل، إما بالتكامل مع باقي معطيات الحواس، أو عبر ضغط الإدراك الذي يرتفع وينخفض حسب التعارض والتناقض.

قد تكون حواسنا خادعة، لكنها في العادة أكثر موثوقية من تصوراتنا. ويعوّل عليها أكثر. وتأتي الإستنتاجات لتأخذنا إلى ما هو أبعد من معطيات المعلومات التي زوّدتنا بها حواسنا. تفعل ذلك باعتبارها نسخة مزيدة ومنقحة ومضغوطة من الأشياء التي استدركناها من البيئة المحيطة بنا.

(من ستصدّق؟. هل ستصدقني أم تصدّق عينيك الكاذبتين؟.)

حين تلتقي التصوّرات المعتمدة، بالاستدلالات المعتمدة أيضاً، عندها تتكون منطقة لنشوء الفكاهة. لكن، حين لا يكون مثل هذا التلاقي، فمن الصعب حدوث كل أركان الفكاهة.

قد يحدث أن معتقداً ما يحوز على قوّة أكثر معرفية من غيره. وهذا ما يؤدي بالمعتقد الأضعف إلى الإنزواء من الصراع. لكن، في المنطقة التي تتلاقى فيها التصوّرات بالاستدلالات، فإن المعتقدات الأضعف تعيد بهرجة نفسها لتبدو مؤهلة لخوض الصراع مجدداً. صراع بقاء المعتقد وعدم سقوطه في ساحة الإدراك. حيث تعاد عملية إعتماد هذا المعتقد أو الالتزام به وأخذه بنظر الإعتبار.

مثل هذه المعتقدات، ستكون مؤهلة أن تُخزن في الذاكرة طويلة الأمد. إن المعتقد الذي نكون على استعداد أن نعتمده بلا تحفظ، هو ذلك المعتقد الذي سيستمر في التأثير اتجاهنا.

وأيضاً، هنا ستحدث الفكاهة، في الزاوية التي تلتقي بها المعتقدات المتصارعة والمتضاربة، لكنها كلها مُعتمدة ومُلتزم بها بشكل أو بآخر.

(8)

الفكاهة والمَرَح

ذهب أحد الظرفاء إلى صالون حلاقة ليقصّ شعره، فسأله الحلّاق: «بأي طريقة تحب أن أقصّ شعرك؟». فأجابه الظريف: «إختر أي طريقة صامتة!».

إن ما نقترحه من شكل ومخطط للهيكل التنافسي للإدراك، والدور الدينامي للمشاعر في ضبط العملية التي تحدث في ذلك الهيكل، سيعطينا خريطة يمكن أن نعيّن فيها المواقع الأساسية لحدوث ظاهرة الفكاهة وظاهرة المرح. وكما سنرى، فقد تعاضد الإبتكار الإنساني، والتطوّر الثقافي لاستغلال الطرق التي تنتج الفكاهة وتنشطها وتوظفها.

وقبل أن يكون لدينا كوميديا رفيعة المستوى، من تلك التي تُصمَّم من قبل مُحتالين بارعين لأجل دغدغة عظامنا، وجب أن تتوفر «كوميديا متهافتة»، سهلة نسبيًا. وكذلك لحظات إدراكية بسيطة ليست قوية لتقديم المتعة. لا نعني المفارقات أو النكات العظيمة، إنما أسلافها. وباختصار، فإن (المَرَح) الأساسي، هو مُتعة الكشف عن أنواع محددة من الأخطاء ضمن منظومة المُعتقدات النشطة.

و (الفكاهة) الأساسية، هي أي ظروف دلالية، أو أي توافق بين العناصر ذات المحتوى في وقت محدد ويحدث خلاله أن ترتكب هذه الأخطاء، ثم ننجح في كشفها.

8 ـ 1. تلوّث الفضاء العقلي.

إن ظاهرة الكشف الآلي عن مجريات الأمور، أي إنكشافها أوتوماتيكيًا، تترك تأثيراً مهمًا خلاصته؛ إن الكثير من المعلومات تسير نحو الإندماج. يحدث هذا ضمن تمثّلاتنا الحاضرة، على أساس من الإحتماليات. ويحدث هذا أيضاً دون أن يخضع الأمر إلى أي اختبار. لنتذكر التفريق بين ظاهرة «الكشف الآلي عن مجريات الأمور»، ومسألة (الوعي)، بما يجري حول محيطنا.

ومع هذه الملحوظة، تصبح عملية التبسيط في الأفكار، أو الإنحياز لبعضها، عملية تراكمية على وفق هذه الآلية التي لا تسبب الأضرار. بل إنها ستكون مفيدة جداً في الواقع. إن تقدير ومقاربة الحقائق، لن يغفل مسألة أنها تحتوي دائماً على ضعف مُحتمل. مثلما تحتمل أن تكون لديها مصادر الخمول الخاصة بها. وهذه ناتجة بالأساس من أخطاء قاتلة.

وستكون عملية ربط الأخطاء في الأفكار المتكونة، بالمعطيات عملية مستهلكة للوقت، خاصة ضمن عملية «الكشف الآلي عن مجريات الأمور». وستستهلك الموارد المعلوماتية التي وجب أن تدخل في منافسة مع باقي النشاطات الإدراكية. يحدث هذا من أجل الوصول إلى أفضل «مشاركة في دورة الماكنة هذه»، ضمن ما خصص له الدماغ جهوده.

سنجد أن هناك افتراضات مضمرة، ومخفية نسبيًا ضمن مسائل

الفكاهة. وهذه الإفتراضات، ستتناقض مع قدرات حل المسائل المجدولة والمرتبة والمصنفة بتعمّد ضمن الذاكرة العاملة للدماغ. وهي التي ترفد الفضاء العقلي بخواصه المتعلقة لكل فكاهة معيّنة مدار البحث.

ويأتي تأسيس الفضاء العقلي الخاص بالفكاهة ليشكل عملية تشغيلية وتدويرية للفراغ بين الأفعال التي تحدث طواعية أو تلك المقصودة. بينما تكون هناك ردود أفعال غير واعية من جانب آخر.

ويبقى الجانب الأهم، وهو أن الفضاء العقلي المتواصل ضمن حياتنا اليومية، يبدو لنا وكأنه يعمل ذاتيًا وغير مطاوع لأفكارنا. إنه موجود فوق الأسئلة، وكأننا سنتقاعس عن التساؤل في أحقية وجوده وتأسيسه بشأن فكرة معينة.

الفضاء العقلي الرابط بين أكثر من فكرة حاضرة في حياتنا اليومية ضمن أكثر من موضوع، وتحت أكثر من عنوان. لنفترض إنه «فضاء عقلي مُتعدد».

الـ«نحن»، المحتواة فينا، ستوكل هذه المهمة لـ لميكانيزما الثلاثية غير الواعية، والتي سيجري تنفيذها بلا إشراف منّا. وبلا متابعة من الـ«نحن». وهنا، ستتدخل آلية «التصرّف في الوقت المناسب»، لتقدّم هيكلاً للفهم والعمل معاً. يغذي إحساسنا بما يحدث، والأهم؛ لماذا يحدث.

وعندما نفرّق بين الوعي واللاوعي بالمدركات المتوفرة، فإننا لا نعني أن هذه المدركات لا يجري مراقبتها من قبل محور تنفيذي مركزي، سواء كان معنيًا بالآخر أو مخصصاً للذات. إنما نعني أنها تحدث ضمن طريقة موظفة ومفعمة بالمصادر. وسترسل بضعَ موجات عبر المنظومة الفكرية، بما يتسق والتنشيط العام لها جميعاً. ضمن هذه المقاربة، صاغت مارلين

دولتسكي / Dolitsky رأيها؛ «إن تأثيرات الفكاهة تأتي من إدراك المستمع وقبوله بأن يُقاد عبر مسار الجُمل المضللة. في الفكاهة يجري استدراج المستمع، ضمن مُفترضات مُسبقة مقبولة، لكن لاحقاً سنكتشف أنها غير موجودة». وهذا تقييم إعتباري دقيق للفكاهة. لكن لماذا تحدُث عملية كشف النكتة حينما تحدث؟.

لماذا يتوجب على أدمغتنا أن توفر ساحة لعب لمثل هذا النوع من المُتعة؟. ولماذا يتحتم أن تكون طريفة للغاية؟. إن جوابنا على هذه الأسئلة يشخص مشكلة، وهذه بدورها ستخلق إحتياجاً بعينه. وهذا الإحتياج سيقابل بنوع من أنواع الحلول على أكثر الإحتمالات. وهذه الحلول ستستعمل ما متوفر من مصادر معلوماتية ومعتقداتية في الدماغ.

المشكلة أن عملية تراكم «المعرفة بشأن العالم»، هي عملية إنتهازية تتضمن مشتملات عديدة ربما لا يمكن ملاحظتها. وبما أنه لا يمكن ملاحظتها، لذا فإنها ستكون على شكل فقرات قد لا يجري الوعي بها أو أخذها بنظر الإعتبار.

كلّنا نعلم أن الزرافة في البرّية، لا ترتدي الأحذية المطاطية. لكننا لم نأخذ هذا الموضوع بنظر التصوّر والإعتبار وبالتالي رفضه إلّا مع قراءة هذه العبارة هنا.

إن متجرنا الذي نتسوّق منه معرفتَنا بالعالم، نادراً ما يزوّدنا بمثل هذه المعلومات الـ«ما وراء المعرفية» عن هذه المحتويات. والنتيجة أن الضعف الذي يعتري معرفتنا هو ضعف غير مرئي، إلى غاية أن يخضع للإختبار. والإختبار هو الذي يؤسس ما سبق أن سمَّيناه بالفضاء المعرفي.

أما ما يعمل بنجاح فعلي على مدى 99% من الوقت، فإنه قد يفشل في اللحظة المطلوبة، وقد يتسبب بنتائج كارثية. ما لم يجرِ صياغته وتقديمه على الطاولة ضمن سرد قصصي. أو ضمن أحداث واقعية يصادف أن تجري ضمن بيئة متسامحة.

تبرز الحاجة هنا إلى نظام يعتمد عليه، يحمينا من الأخطار التي يجلبها لنا ذكاؤنا. الفطنة والمعرفة بهذه الأخطاء، سيكون لها وقع المكافأة التي تسمح للمنطقية والمعقولية الحاضرة أن تسري بلا أخطاء (طبعاً هذا قبل أن نتصرّف فعلياً اتجاه هذه الأخطاء). لكن هذا بالضبط ما سيزوّدنا بتراث نذخره للمستقبل. سيحصّن من معرفتنا، وسيزيد من قدرتنا على التعامل مستقبلاً مع حالات أكثر تنوّعاً ما خطرت لنا على بالٍ سابقاً ولم نختبر أنفسنا فيها. وستبقى الإدعاءات والإستنتاجات الباطلة في منأى من أن تسجّل ضمن الذاكرة طويلة الأمد.

ومن الحتميات هنا، هو توفر ميكانيزما لفحص مستوى التماسك. وستكون هذه الميكانيزما لا غنى عنها. وتعتمد بشكل أساس على المعرفة المتأتية من قواعد البيانات. والتي سبق أن بُنيت عبر عملية جرى تصميمها كي تنال فرصة معقولة تحت ضغط الوقت.

سيكون حتماً أيضاً توفر «فحص مدى الواقعية»، فيما لو أراد الكائن العضوي أن يستديم التماس مع العقلانية. هذا الفحص يجب أن تخضع له كل متجهات هذه العملية، وعلى ضوء مصادر الإعتماد والموثوقية المتعددة.

إن مفهوم الحل في الفكاهة، هو النشاط المشتمل على بناء الفضاء العقلي، وهو واحد من ألمع ما قدّمه الإدراك الإنساني.

ستكون هنا عملية البحث في الحطام والخردوات (الفكرية) التي تطفو على السطح، بمثابة ضرورة للحفاظ على التكامل الإدراكي. وهذه المهمة تعدو إلى جنب ضغط حضور اللحظة المناسبة للفكاهة. إذن، حتى تجري المنافسة بنجاح، وجب أن يكون إيصالها وتنفيذها ضمن مكافأة مستقلة بذاتها. حدث متفرد لا يعتمد كثيراً على ما متوفر من استحضارات من الذاكرة الفاعلة. وستكون المكافأة هنا هي المرح بعينه. هذا النوع من أعمال «حراسة البوابة»، لا يمكن إنجازه بخلفية فكرية معتمدة على اللاوعي. ببساطة لأن الضعف في السؤال سيظهر فقط في السياقات الفقيرة المصادر للفكاهة. وضمن الفضاء العقلي الذي سيجلبهم إلى نزاع مباشر مع باقي المحتويات النشطة في محاور موضوع الفكاهة.

إن الفضاء العقلي الذي أسسناه في تأثيره يشبه سرير الإختبار في عالم معرفتنا. حيث نكون في موضع مراقبة لنراقب كيف أن هذه العناصر تنجز أنواعاً مختلفة من التضبيطات. والمكافأة ستكون عبارة عن باعث أو محفّز للفكاهة. وإلّا فستكون مسألة نادرة التردد والطرح.

إن قدرة عقولنا على «إنتاج المستقبل»، هي قدرة مرنة ويمكن الإعتماد عليها. وهي مصدر مبادلة المنفعة بين السرعة والتكامل في الفكاهة. وهو ما سيخلق المجازفات التي تحتملها عملية تطبيق هذه الميكانيزما.

هناك افتراضات ستضيء ما نمتلكه من مستولدات الحدس لإنتاج الفكاهة والمرح. هذه الإفتراضات سيكون متاحاً أن تخضع للإختبار متى ما خُلق الفضاء العقلي المناسب لها. وهذه الإفتراضات أيضاً ستنافس باقي الأنشطة في مسألة الوقت وفي مسألة المصادر المزوّدة لها، والتي سيجري توظيفها في عملية الفكاهة داخل الدماغ.

أما أن تحدث عملية خارج نطاق الوعي لتصحيح الأخطاء في التوقّعات اتجاه مسار الفكاهة، فهذا ببساطة أمر غير ممكن. لأن عملية تصحيح الأخطاء تتطلب تفعيل مفردات محددة والحفاظ عليها فاعلة في مختلف الظروف، وهذا أمر مستبعد في سياقات الفكاهة. بل من الصعب الحفاظ على كل شيء فاعلاً في وقت واحد، وهناك منافسة حول الوقت الكافي لاستغراق الفكاهة، والمطلوب لاستكشاف ما سبق افتراضه في سياق السرد. ستكون هذه العملية محتوية بالضرورة على عملية تلاعب بما متاح من مصادر. وبالتالي لن نصل إلى تفسير علمي يشرح وسائل عمل الفكاهة.

إن الصورة التي تظهر لنا، تتضمن عامل الوقت الضاغط في تفاعل الفكاهة، أو التفاعل معها. وستكون التوقعات المقبولة ضمن عملية الإستكشاف هي مصدر خلق الفضاء العقلي المطلوب، والذي ستجري في عملية اختبار العناصر المكوّنة للطرفة. ووفقاً لهذا النموذج، يمكننا القول بأن «الفكاهة الأساسية» تحدث عندما:

1 ـ يتوفر عنصرٌ نشطٌ في فضاء عقلي يحتويه.

2 ـ يحدث دخول مستترٌ لهذا الفضاء، لسبب أو لآخر.

3 ـ ثم يؤخذ هذا العنصر على محمل أنه سيكون حقيقيًا وصادقًا (يعني أن يكون معتمداً وموثوقاً معرفيًا ضمن ذلك الفضاء).

4 ـ أن يشخّص على كونه خاطئًا ضمن ذلك الفضاء العقلي، ـ ببساطة بسبب الوعي بأنه سيكون العنصر الخاسر.

5 ـ ثم يكون الإكتشاف سلساً إلى درجة لا تصاحبه مشاعر قوية سلبية.

- (هكذا يمكن أن تحدث الفكاهة).

وبصياغة أكثر بساطة؛ تحدث الفكاهة حين يجري الإلتزام بالإفتراضات معرفيًا، ضمن فضاء معرفي معيّن.. ثم يجري الكشف على أنه كان تقييماً خاطئاً.

الشروط أعلاه ستكون كافية لنشوء فكاهة تزوّدنا بتجربة المتعة. رغم أن هذه الشروط ليست من النوع التي يمكن تطبيقها مباشرة على حالة سرد لـ (نكتة) ما واستثارتها. إنها شروط تتعلق بالسلوك العقلي اتجاه استيلاد الفكاهة. هذا الموديل من عمل الفكاهة يتفادى الأخطاء الإسقاطية التي قد تشوب التصنيفات النظرية العامة.

لدينا ظاهرة تعمل على خلق فضاء عقلي أولاً. وخلال عملية تراكم فهم الأحداث والعبارات، وخلال عملية وصف (قرارات)[1] إدراكية بعينها، سيجري التقاط طريق الفكاهة وإدراكها بما يتناسب مع الفضاء العقلي المتوفر. لقد منحتنا نظرية التطور إضاءة مهمة لنفهم سبب أهمية هذا النوع من الإدراك. مثلما عملت النظريات المعاصرة المتعلقة بالمشاعر على تفسير كيف نلتحم ضمن نشاط يتأثر بالفكاهة.

هذا ما يعطينا فهماً عاماً حول (هوية الفكاهة الأساسية)، ولماذا تعمل كما تفعل على أرض الواقع؟. وقضية أخرى، إننا سنجد أن التضخم الثقافي قد قدّم لنا أدوات إضافية مكنت من إيجاد فكاهة عالية الدقّة والتفصيل ومن رُتبٍ عليا.

---

(1) مستلهمة مما طرحه كل من كانت، وشوبنهاور، ومينسكي وغيرهم في هذا المجال ـ المؤلفون.

8 ـ 2. المرح، باعتباره قوّة «مايكروديناميـة».

إن المشاعر المُلحقة بنظرية المعرفة، يمكن أن تكون في حقيقتها «أحاسيس عقلية»، من وجه من الوجوه. لكن (المَرَح)، و (متعة الكشف)، متشابهان كونهما أشهر عضوين متناسبين إيجابيًّا ضمن هذه الحزمة المسماة؛ أحاسيس عقلية.

بالإضافة إلى حضورهما السريع (خاصة في الطرفة التي تروى بشكل جيد)، بما يوحي أنهما حضرا وظهرا صدفة، وبطريقة تفادت الخضوع لأي نوع من أنواع الإشتقاق والتحوير في الدلالة. وبالتأكيد لسنا أوّل من لاحظ العلاقة بين الفكاهة ومتعة الكشف. المنظرون المبكرون أشاروا مراراً إلى هذه العلاقة، على سبيل المثال ما أورده تيرنس ديكون/ Terrence Deacon؛

«..آخذين بنظر الإعتبار شدّة ميل البشر إلى ملاحقة الغوامض، ستكون الإكتشافات العلمية، والألغاز، والفكاهة، والحلول التي تفكك دواخل هذه المفردات، هي الأساس والبؤرة ضمن هذا الميل. إن القصّة المختلقة عن أرخميدس وهو يركض عارياً ويصيح؛ «وجدتها!»، ستجذب هذا الميل بكل تأكيد. إن المشاعر الإيجابية المرافقة لهذا السلوك، تحتوي على ما هو أكثر من نشاط إدراكي مجرّد. إن ما يحدث من تعزيز لمعرفتنا، إنما هو أمر جوهري لتحقيق الكشف وإزالة الشفرة، وسيكون جزءاً مهمًّا من إنحيازنا إلى تبني الأفكار المنتجة للفكاهة. وفي كل الأحوال، تكون المفاجأة وإزالة الشك هي مكونات دقيقة وحرجَة بالنسبة لنشأة الفكاهة.»

إن النكتة البدائية تبدو عدوانية وأوّلية بشكل كبير. أو أن تكون مثيرة

للعواطف الجنسية باستخدام أقل ما يمكن من الذكاء. لكن حتى الضحك الخشن الذي يرافق مثل هذه الطُرَفِ، إنما ينضوي على شيء من الإعجاب يوجّه إلى شطارة النكتة. وإذا كُنّا سنفرق بين المَرَح وباقي المشاعر الممتعة، خصوصاً «مُتعة الكشف»، فإننا بحاجة النظر عن قرب إلى التفاصيل الإدراكية التي تتمايز بين أرخميدس الذي يركض عارياً، وبالون ينفجر فيثير ضحك الحضور. ما يمكن أن ينتج هذه الفوارق هو الحدث الـ (microsatisfaction)/ وهو حدث يبدو بلا معنى في ظاهره، لكنّه يحمل الإرضاء في طياته. ويتعلق بالعادة بإدراك كُنه الفكاهة.

ربما نجد أن المتعة الأساسية في الاستكشاف هي أمر شائع جداً في مملكة الحيوان. الأبقار على سبيل المثال، تبدي حُبوراً ونوعاً من أنواع الفَرَح حين تصادف حزماً من العشب الجاهز للأكل في مكان غير متوقع بالنسبة لها. إنها سعادة إيجاد مصادر غير متوقعة من الطعام، في مكانٍ وزمانٍ غير متوقّعين.

وبالتأكيد، فإن الحالة في الإنسان مكّنته من التمتع بطيفٍ واسعٍ من مصادر المُتعة، خاصة تلك المتعلقة بالاستكشاف غير المتوقع. ونقارب هنا، متعة حل الألغاز والوقوع على حل الإجابة الواسعة كلما تعقد شكل اللغز. ان العناصر الأساسية من مختلف أذواق الكشف، تكون لديها لذّتها المصاحبة والتفصيلية لها. وكان المعمار البشري الإجتماعي هو من أتاح هذا ضمن الممكنات.

وتأتي المذاقات المختلفة لمكافأة الكشف (الممتعة)، لتحاكي اختلاف ميكانيزمات التعلّم التي تختلف باختلاف مصادرها. وكل نوع من المكافأة يعود إلى حالة مختلفة من هذا العالم، وإلى سلسلة من السلوكيات

التي تنتهي بكلمة تعبيرية: «كم هو حلو!». وهو ما يجعلنا نقبل على تناول الأشياء الحلوة. (وبالتالي نهضم الأفكار الطريفة على أنها مكافأة حلوة).

وعلى النقيض مما يبدو، فإن البصيرة (عمق الفهم) في فهم الطرفة، لن تكون في إيجاد الحل للتناقض، ولا في تقليل الإرباك الذي تسببه السياقات المتناقضة لرواية الطُرفة الفكاهية، رغم أنها يمكن أن تقودنا إلى هذا المجال. فهي لن تتطابق مع الكشف عن المعتقدات الخاطئة داخل طرفة أو فكاهة ما، رغم أنها يمكن أن تقودنا إلى هذه أيضاً.

«اللمحة» في الفكاهة، هي ببساطة المشاعر التي نشعر بها كلما تلاقى المحتوى الدلالي وتناسب وانضبط في الدماغ، بحيث ينتج تأطيراً سرديًّا للمفاهيم وبما يستولد الفكاهة. إنها مُتعة إكتشاف تفاصيل أي شيء. وقبل أن يتحقق تماسك الإكتشاف، سيكون الشخص في مواجهة التناقض الذي تسبب في حيرة شديدة. إن اللمحة شيء لا يُقال، يُنتبه له من قبل المتلقي. وكلّما كانت الإنتباهة أعمق، وباستخدام معارف ومعتقدات غير شائعة، كانت أعجوبة الاكتشاف أكثر جاذبية.

- كيف يمكن لراعي البقر أن يركب حصانه يوم الإثنين وسط المدينة؟، الجواب: يبقى ليومين، ويمتطي حصانه يوم الإثنين!).

أو ربما تأتي متعة الكشف في سياق سؤال، لكنه لا يحتاج بالضرورة إلى جواب ولا يحتوي على تناقض.

- «لغز سردي»؛ (من يصنعها لا يحتاجها، ومن يشتريها لن يستعملها، ومن يستعملها لا يعرف ما هي، فما هي؟).

أو ربما يكون الشخص ممارساً لمجرّد اللعب بأغراض معينة، ثم يعنُّ له اكتشاف معلومات جديدة. إن الأمر يسير هكذا، ويمكن لعدد كبير من الطُرف والنكات وحالاتها وسياقاتها السردية، أن تحتوي على مفهومي «اللمحة»، و«المَرَح»،في آن واحد.

وبينما تكون اللمحة ضرورية كنوع من الفتيل الداخلي الذي سيسمح لنا أن نكتشف الخطأ في المُعتقد المُصاحب للفكاهة، فإن هذه الملاحظة الدقيقة كانت نتاج أبحاث كل من كويستلر وديكون/ Koestler and Deacon. التناقض بين المَرَح، ومعنى لفظة: «آه!».سيكون حادًّا في حالات عدّة. لكن الحدود متخلخلة بين الفكاهة، ومثل هذه الألغاز التراثية المبنية على مبدأ مشكلة وحلّها.

نجد أيضاً أن عدداً كبيراً من النكات يتصف ضمناً بنوع من الأحاجي. وبعضها يستغل إنكار الإفتراضات المخفية بصورة جيدة، لأجل فرض الحل. وحين يلقى الحل ـ أو يكشف عن تفاصيله ـ بالعادة ما يستصحب هذا ضحك، وهو المؤشر الأشهر لحدوث الفكاهة.

لكن لماذا نحن لوحدنا (نحن البشر)، نستمتع بالمرح المحتوى في الفكاهة، وكذلك باللمحة المحتواة في النكتة أو اللغز إلى هذه الدرجة؟. إن أساسيات هذا النظام (الفكاهة ومشابهاتها)، ربما توجد أصلاً في جميع أنواع الهومينايد (أسلاف البشر). وخاصة مع وجود مقابل مقترح لدى القِردة، وربما في ثديّات أخرى.

لقد حدث الأمر حين أضاف أسلافنا إبتكارات إلى الهيكل المعرفي والإدراكي الأساسي، الذي نتقاسمه مع الشمبانزي والقِرَدة العليا الأخرى.

وهو ما جلب ظاهرة مشاعرية جديدة إلى المسرح. هذه الظاهرة المشاعرية عُدَّت بمثابة (ابنة عمّ) مُتعة الإستكشاف، على حد تعبير كويستلر.

لقد وجد مؤخراً أن هناك فوارق تشريحية كبيرة وصادمة، تفرّق الأنظمة العصبية الإنسانية عن تلك التي يحملها الشمبانزي. وهي اكتشافات حديثة، تخالف ما كان يعتقد لفترة طويلة من صورة التقارب الفسلجية والتشريحية غير المتعمّقة. طبعاً، يعود الفضل في هذه الإكتشافات إلى التطور التكنولوجي النانوي. وإلى الأجيال الحديثة من المجاهر التشريحية الإلكترونية. ليس لدينا شك بأن هذه الفوارق قد جرت وحدثت تطوّريًا بسبب السلوك الابتكاري الذي مارسه أسلاف الإنسان (الابتكار انعكس على الشكل التشريحي للأنظمة العصبية التي ورثناها عن أسلافنا). ولنتذكر أن عملية التفكير هي جزء من السلوك الداخلي للكائن. لكن لم توضع لحد الآن فرضيات تفسر كيف ومتى حدث ذلك.

وكما يحدث اليوم في عالم الحواسيب الإلكترونية، فإن التطوّر والإبتكار في البرامجيات، يقود في العادة إلى تطوُّر مناظر في (الهاردوير) الخاص بالحاسبة الإلكترونية. ولنضع فرضياتنا مَجازاً نقول: «إننا ولدنا ولدينا عقل سيارة شيفروليه، وبوساطته يتوجب علينا أن نشغل برامجيات سيارة ميزراتي. وعلينا هنا أن نتخلى عن شيء ما»[1].

---

(1) يعبر عن هذا المفهوم بما يسمى (تأثير بالدوين/ جيمس مارك بالدوين)، وهو ميكانيزما إلى جانب التطور، الدراسة اقترحت آلية يحدث بها الإنتخاب المحدد لعامل على القدرة التعلّمية. النسل المصطفي يكون لديه زيادة في قدرة تعلم مهارات جديدة وسعة في تحصيلها، ولا يكون مقيداً بالقدرات المشفّرة جينيًا والثابتة نسبيًا. وفي الواقع الدراسة تشدد على حقيقة أنَّ (سلوك) النوع أو المجموعة يمكن أن يحدد نمط تطوّر هذا النوع أو المجموعة. بعبارة أخرى، الذكاء يملي سلوكاً معيّناً، وبالتالي يقود هذا السلوك جانبا كبيراً من التطوّر بدلاً من مجرّد تكرار الانتخاب الطبيعي ـ المترجم.

إن الإبتكارات السلوكية في الكائن البشري، كانت في البدء عبارة عن إنعكاس للوعي الذاتي الذي بدأ الإنسان يلاحظه. يدرك مسألة ما، فيغير سلوكه بما يراعي مصلحة معيّنة وتفضيلًا معينًا يراه في ذلك الظرف. وكانت هذه الملحوظة الإنسانية، ليست مجرّد ملحوظة فقط للتغير في العالم المحيط، إنما ملحوظة لتغير تفاعل النفس مع هذا العالم المحيط. وضمن هذه السلسلة المتكاملة من الأدوار بين (الملحوظة)، و(تغيير السلوك)، كانت اللغة قد ظهرت وشرعت بالتكامل ضمن هذه الآلية.

فاللغة إبتكار سلوكي بارز، تُراجع فيه الذات، وتُراجع فيه تفاعلاتها مع العالم المحيط، أفراداً ومادةً وأحداثاً. وهذا ما ولد قابلية تأسيس فضاء عقلي مُضاد وافتراضي، «حتى دون تجريب». (من الذي أتى أولاً؟. في عملية تطوّر اللغة ونمو الوعي الذاتي، وولعها في تأسيس فضاء عقلي)[1].

إن سؤال البيضة والدجاجة هذا، يجب أن يستبدل بسؤال أكثر دهاء، يأخذ بنظر العلم أن التطور المشترك هو القاعدة. مع الظواهر وتفصيلاتها، التي توفر القاعدة لمزيد من الخطوات. ولن تكون أي ظاهرة منها معدّة للإنفجار مثل معجزة، فينوس حين ولد من زبد البحر. كل الظواهر ستسير بتلقائية واتساق وتناغم. وهنا، يبرز دور اللغة في استكشاف الفضاء العقلي (والعكس بالعكس).

---

(1) المقصود أن الإنسان، نتيجة الملاحظة والوعي بدأ بابتكار اللغة. لكن معاني اللغة واستخداماتها ولّدت فضاءً عقليًا بطبيعة الحال. وهذا الفضاء العقلي أثر مرّة أخرى (وهو محمّل بالإضافات كل يوم) أن يراجع الإنسان إختياراته المبنية على الملحوظات، فبدأ ببناء فضاء عقلي مضاد (غيّر من تصوراته)، فهاتان العمليتان متعاقبتان إحداهما تسبب الأخرى، فمن كان يحدث في البداية؟ ـ المترجم.

وكما طرح فاكونير، إننا نحن البشر نختلف عن الشمبانزي في ميزتين أساسيتين؛ اللغة، والقدرة على عكس الوعي الذاتي. إن تفكير الشمبانزي محكوم بـ«النشاط اللحظي الصادر فوراً، وفي الوقت المراد له»، يعني مثل البشر بالضبط. وهذا يساعدهم على توقع العالم حولهم، لكنهم على ما يبدو، لسبب ما لا يكررون الخطوة التي ستجعلهم يعيشون الطفرة الحقيقية.

إن عدداً كبيراً من القصص والنكات والفكاهات تمتلئ بذكر الجملة التالية: «حسناً، في ذلك الوقت، كانت تبدو هذه الفكرة، فكرة جيدة». إن هذه العبارة أصبحت على ما يبدو نوعاً من الإعتذار عن الحماقة مقدماً.

في الحقيقة، نحن البشر وجب أن نكون ممتنين لهذه العبارة. إذ أن أي شخص، كان يرى فكرةً ما على أنها فكرة جيدة، ثم اتضح له لسبب تجريبي أنها (ليست) فكرة جيدة، فإنه في الحقيقة يقف على أعتاب الألمعية والتفوّق. هذا ما لا يمارسه الشمبانزي، وهو الذي جعل هذا النوع يدور عقليًّا في متاهة حافظت على مستواه التطوّري عن حد لم يعبره، بينما عبره أسلاف الإنسان.

إننا نحن البشر، باستطاعتنا إتيان ما هو أكثر من التفكير. وهو إننا نتذكر تفكيرنا السابق ونتائجه. وباستطاعتنا أن نتذكر لماذا فكّرنا بهذه الطريقة. كما إننا سنتذكر ونحلل لماذا أغرينا كي نفكر في المسار السابق، وكيف يمكن لمسار لاحق أن يغير من النتائج التي نتوقع الوصول لها. وإلى غاية هذه اللحظة، لا يوجد كائن حي يمكن له أن يفكر بهذه الطريقة على وجه الأرض غير الإنسان.

لاحظ العلماء أن الشمبانزي تعالج جروحها بنوع من الأعشاب من بيئتها المحيطة. ردّة فعل آنية على الألم الذي تسببه الجروح، لكنها ليس باستطاعتها إفراز فرد متخصص من بين المجموعة، أو يعرف أكثر من غيره، أو يلجأ له كطبيب أو معالج. إن قابلية الإدراك الإنسانية هذه، التي تتميز عن الشمبانزي، هي التي منحت حساسية متزايدة لدى الجنس البشري أن يتقارب مع المتعة، ويستكشف المرح ويتحرّاه.

8 ـ 3. مكافأة الأعمال القذرة بصورة جيدة.

لقد تشاجرت مع شخص ضخم للغاية، وقال لي: «سأمسح بوجهك الأرض»، قلت له: «ستندم على هذا!»أفقال:»حقاً؟، ولماذا سأندم؟.». قلت له: «لأنك لن تستطيع تنظيف الزوايا بشكل جيد!».

إن أهم واجبات مشاعرنا المعرفية، هي أن تنتج الحدس والتوقع، بأسلس طريقة ممكنة، وبأكثرها دقّة. كما أن من واجبها أن تحافظ على تكامل قواعد البيانات في منظومة أظهار المعرفة الخاصة بنا. وهذه المهمة، إظهار المعرفة واسترجاعها واستخدامها، ستغدو أكثر صعوبة عبر استخدام الميكانيزما المستولدة للحدس والتوقعات الخاصة بنا، وهي في العادة معقدة وتميل إلى تبذير الموارد.

وهي مهمة لن يكون لها الأولوية في حياتنا الواعية، ما لم ترتبط بـ «نظام المكافآت»، الذي أسس له الإنتخاب الطبيعي. إن نظام المكافآت الطبيعي هذا، إنحدر عن، أو نتج كناتج عرض، عن نظام المكافآت الخاص بنا والمتعلّق بالاستكشاف.

قلنا سابقاً، إن الميل الطبيعي لدى الانسان للاستكشاف والتساؤل وحل الألغاز سيكافأ بمتعة المعرفة، أو في حالة الفكاهة والطرافة بمتعة حل العقدة وصولاً إلى الضحك والمرح.

ونظام المكافآت هذا، جرت عليه تحسينات عبر الظروف السعيدة التي اخترعها نوعنا البشري، وعبر الاعتياد على تأسيس فضاء عقلي مقصود، يمكن أن تعرض فيه المعتقدات/ الأفكار المرشحات للتنافس على البقاء والمكوث في قواعدنا المعرفية.

إن الإفتراضات تدخل متخفية إلى فضائنا العقلي، حاملة معها نوعاً من مضخمات المتعة. هذه المضخمات ستتفعل وتنطلق حين تتلاقى مطالبنا في التوقع مع اكتشاف أي نزاع داخل هذه الإفتراضات، الأمر يبدو مثل من ينتظر شجاراً في الشارع كي يستمتع بمنظر المتشاجرين.

هذا النوع من مكافأة الذات، والذي ربما يعرفه فقط البشر من بين الكائنات، تطوّر (ضمن عملية التطوّر) مع الزمن من أجل أن يجتذب المزيد من المحفزات النشطة، وليحوز المزيد من العوائد. عندها ستظهر الفكاهة بوصفها جزءاً متكاملاً من عملية التطوّر الموصوفة. الفكاهة بوصفها جزءاً من نظام مكافأة الذات في آلية التوقع والحدس والمتعة المرافقة لها. ستعمل الفكاهة على إدامة تكامل قواعد البيانات في عملية تمثل عالمنا المعرفي. كانت هذه أطروحة هيرلي/ Hurley، الذي كان أول من كتب في أن المُتعة هي في واقعها نوع من المكافأة والعوائد لأجل تكامل قواعد البيانات المعرفية في ذهن الإنسان.

إن هذه الإستنتاجات، تبدو مُحبطة بعض الشيء. لقد توغلنا في لُب

ماكنة الفكاهة، لنجد مهمات تدوينية عالية النفعية يجري تنفيذها. ثم وجدنا أن السبب الوحيد لاستخدامها الفكاهة، هو استغلالها نظام العوائد والمكافأة الذي خضع للتنمية؛ أولاً عبر الإنتخاب الطبيعي، وثانياً عبر التطوّر الثقافي.

إن وجهة النظر التطورية والميكانيكية هذه بشأن الفكاهة إنما تحمل معها رسالة مهمة؛ لا شك أن دينامية حدوث الفكاهة تلعب دوراً محوريًّا في استيلاد تجربة الفكاهة نفسها، لكن، لو جاءت هذه التجربة بشكل بطيء، أو واضح جداً، أو صعب جداً... ففي النهاية لن يحدث المرح، أو سيحدث القليل منه فقط. إذن، الأمر يعتمد على الصورة أو الكيفية التي جاءت وفقها الفكاهة الأولية.

وهنا، وجب أن يتعاضد الفن، مع العلوم الإنسانية، مع علم الأعصاب لأجل حل الغوامض والحوادث الدورية في ظاهراتية الفكاهة. مثلا، فقط علماء الأعصاب بإمكانهم أن يفسروا ظهور غاز الضحك، وهو (أوكسيد النايتروجين). وكذلك تأثيرالكحول، رغم أنها لم توثق علميًّا بما فيه الكفاية. فضلاً عن تأثير المخدِّرات في إطلاق الضحك.

أي شخص شاهد مجموعة من السكارى يفرطون في تعاطي المشروب، ستنشأ بينهم دفقة قوية من دوافع الفكاهة في أغلب الأحيان. أو حتى غشي غرفة تُدخَّنُ فيها المخدِّرات أو الماريوانا فإن هناك من سيكون أكثر مرحاً من غيره، وستظهر علائم المتعة ظاهرة.

كما أن هناك من يحتد ذكاؤهم، وتبان تعليقاتهم وكأنها قد جرى شحذها. سندرك عندها أنه مثلما أن هناك أشخاصًا يمتلكون روحاً مميزة

من الدُعابة والقدرة على إطلاق الفكاهة، فإن هناك أشخاصًا فيما لو تعرّضوا إلى مؤثرات عصبية مادية، فإن من بينهم من سينشط في مجال الفكاهة والدعابة وإطلاق النكتة سعياً للمَرَح، عن إدراك أو غيره.

إن أكثر التفسيرات لهذه الحالات، ستكون في إطار علم الأعصاب الحديث والعلائم الكيميائية التي تصاحب التأثير على مختلف أنواع الأعصاب والأجزاء في الدماغ البشري.

وعند هذه النقطة نتوقع أن يفكّر نصف قرائنا بالتالي: «نعم لقد فهمنا ما تريد أن تقول، لكن إعطنا تفصيلاً يتعلّق بعلوم الأعصاب، كيف يجري هذا الأمر».

بينما سيفكر النصف الآخر كالتالي: «أوه، لا، جنبنا مسألة تفاصيل علم الأعصاب».

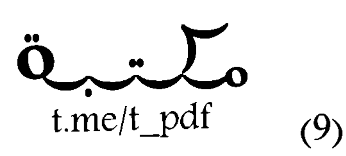
إن المُنظّرين في مجال الفكاهة دائماً ما يُتهمون بأنهم يتحدثون في مجال فنّي، أو متعلق بالعلوم الإنسانية الأخرى. وفي الحقيقة فإن من النادر أن يذكر علم الأعصاب الفسلجي في أعمال هؤلاء بطريقة تكون مناسبة أو قابلة للشرح والفهم.

وفي الحقيقة فإن الآلية البايولوجية ليست سوى الوجه الديناميكي الذي يهمنا في إتمام عملية الفكاهة. وهو من سيحدد الفرق بين النكتة الناجحة، والنكتة غير الناجحة على سبيل المثال. وربما سيظن البعض أن هذا الأمر مخيب للآمال، طالما بقيت هناك أسئلة متعلقة بالفكاهة تحتاج إلى إجابة. وستكون هذه الأسئلة متعلقة بالمحتوى تحديدًا. أو إنها تسلّط تساؤلاً من وجهة نظر قابلية وصول الآخرين للفحوى. وهو من سيكون مسؤولاً عن جعل الأشياء طريفة؟، وأن تفهم على أنها طريفة.

لكن سيبقى السؤال، ما الذي يجعل الأشياء طريفة بلا إجابة، طالما افتقدنا إلى الآلية التي تعمل بها الفكاهة وتؤثر. لكن، يمكن استبدال هذا السؤال بأسئلة وأجوبة أخرى. تعمل على شرح الحواشي والإستخدامات، وهي ما ستقود في النهاية الى إجابة سؤال، ما الذي يجعل الأشياء طريفة.

وقد نخاطر بتخييب آمال البعض عبر التفريق بين الطُرفة الناجحة والأخرى الفاشلة. وأن نزوّد السؤال بدلاً من ذلك بمخطط يشرح مدى إمكانية البحث عن مُشتركات داخل العناصر المتنوّعة التي تؤلف الفكاهة. تنوع العنصر داخل وظيفته. وهو ما يدفعنا هنا إلى توضيح الفضاء الوظائفي لكل عنصر، بدلاً من الربط غير المجدي بين تفاصيل علم الأعصاب، وآليات عمل الفكاهة، فبالنهاية ستكون الإنعكاسات الفسلجية، هي نتائج، بينما نحن نبحث في المُسببات وأُطرها النظرية ومدى تطابقها مع الإفتراضات التي صاغتها النظريات المختلفة التي تعرضت لدراسة الفكاهة.

لكن التركيز على نواحي عمل الفكاهة، وحرف التساؤلات عن المسار الفسلجي، سيؤجل بعض التساؤلات في هذا الجانب والتي قد يطرحها أي باحث أو منظر ضمن منهج تنبؤاته في مسببات التأثير. لكن من الأفضل أن نبقي باب التساؤلات مفتوحاً أمام الباحثين والساعين إلى وضع إطار نظري. وهو الأمر الذي سيكون أفضل من نفي أي مؤثر قد يبدو أنه لا يعتمد عليه حاليًا، أو إنه لا علاقة به في الوقت الحاضر، ضمن نظرية محددة تفترض أنه قليل التأثير في الوقت الحاضر.



(9)

غوبانوف وتأطير الصراع بين الفكاهة والدين.

يطرح نيوكولاي غوبانوف/ Gubanov أرضية مهمة من الفضاء المعرفي التي تنشأ في الفكاهة على أنها أداة في الصراع. ولقد تزايد ميل اصطدام الدين بصورة شائعة ومتزايدة بقضايا مناقضة متعددة. وعبر استخدام النكات، أو»الميمات»، والرسوم الكاريكاتورية جرى تقليب الفضائح الدينية، والقضايا الجنائية وحتى الأعمال الإرهابية.

إن تاريخ االعلاقات بين الضحك والدين على خط الزمن هو مادة مليئة بالأحداث والتناقضات، وتثير العديد من الأسئلة. لنتذكر أن موارد التناقض كما سبق أن عرضنا، هي إحدى أهم البيئات الخصبة التي يمكن أن تنشأ فيها الفكاهة.

وعلى مدى زمن تاريخي، كان الوعي الإنساني يقلل من أهمية الصفات الإيجابية المشتركة التي يستولدها الضحك (والفكاهة التي تقف خلف تفعيله). مثلما لم تكن هناك أهمية عميقة لكل الظواهر المرتبطة به.

لقد عدُّوا الضحك بمثابة الخطيئة أو الرذيلة، التي لا مجال لتناولها إلّا عبر أدوات النقد ووجهة نظر متسلحة بالذخيرة الأخلاقية المنظر

لها إغريقيًا. وتفاقمت وجهة النظر هذه خلال تنامي الميول اللاهوتية للاختلاط بعلوم السلك التي كانت في بدايتها خلال القرون الوسطى وإلى غاية القرن التاسع عشر. لكننا نشهد تغيُّراً تدريجيًا في هذه المواقف اتجاه ظواهر الضحك والفكاهة. ومع ذلك، فإن النظرة الدينية التقليدية للعالم لا تزال تتميز بدرجة كبيرة من عدم الثقة اتجاه الضحك والمرح واللعب والفكاهة.

إن وجود ملف المواجهة بين الموقف الديني من هذه الظواهر والاتجاه العام لإيجابياتها، فرض عملية إعادة تقييم حقيقية. مثلما يمكن أن يضيف توترًا إضافيًا في حالات النكتة الهجومية (العدائية)، أو محاولات الإذلال باستخدام الدعابة في الصراعات. وهي ستمضي على أساس من عدم الرضا عن أمثلة محددة من الدعابة. من ناحية أخرى، لا تختلف هذه الآليات عما يحدث في الصراعات القائمة على استخدام الأعمال الفنية على سبيل المثال. وهو ما سيسمح للفكاهة أن تتسبب في إدراج مخاطر إضافية تسلّط على أحد أطراف الصراع، وذلك في المقام الأول ما يؤثر ضمن حيز مفهوم «السُّمعة» القلق في معناه وتأثيره.

يمكن أن نميز بحثيًا عبر فرضيات غوبانوف، التي تعرّضت لسلوكيات المجتمعات الحديثة (الغربية على الأقل)، وجود اتجاهين متعاكسين عاملين ضمن آليات هذا الصراع، وضمن وسائل توظيف أدوات استدامته. أولهما ما يرتبط عمليًا بوجود رغبة في تعزيز مكانة قيمة الأثر الذي تسببه الفكاهة ضمن الاعتبارات العامة للمجتمع. والثاني، هو ما ارتبط بنمو عدد النزاعات القائمة على مبدأ اصطدام الفكاهة، مع إضمار محاولة إهانة مشاعر مجموعات اجتماعية وثقافية مختلفة، وخاصة المتدينين.

الجديد في وظائف الفكاهة ضمن هذا الصراع، هي أنها تستولد إبتداء لتكون أداة نزاع فعالة. أي إنها ستنطلق تصميماً من إفتراض إشتراكها الناجح في رفد صراع موجود أصلاً، ويستخدم طيفاً واسعاً من أشكال وآليات الصراع التقليدية ابتداءً. ظهر هذا على نحو متزايد في النكات و«الميمات»، والسلوك الفكاهي العلني. وهي التي نجحت في التسبب باحتداد تهيج الجماعات الدينية من الأفراد، مما يؤدي إلى الدفع بمناسيب إجرامية في القضايا والفضائح الدولية وحتى الهجمات الإرهابية.

وعبر مسارات الصراع، نجد إن التداعي المباشر جاء على صيغة تشديد في الرقابة، وخاصة فيما يتعلق بإهانة مشاعر «المؤمنين» الدينية في كثير من دول العالم، بما في ذلك روسيا. وسار هذا التشديد في مسارٍ ربما كان يتصف بالسخف في كثير من الأحيان. ومن الملاحظ أن نشر تطبيقات العولمة وما ترافق معه من هذا التوظيف للفكاهة في الصراع، قد أدى كنتيجة مباشرة، إلى ترسيخ وتشدد الخطاب الديني الإعلامي بصورة عامة. وابتعدت روح الدعابة عن أن تكون (ضمن مفاهيم الدعاية العلنية)، ويحدث فعليًا خروج عن الفضاء المفاهيمي الذي جرى عليه المعتاد في توظيف الفكاهة والدعابة.

وعلى مسار طويل من موضع إهتمام الباحثين في شأن الفكاهة، كانت بؤرة البحث تتركز في مسألة، ملامح الغموض. والنص الغامض، أو الحدث المنضوي على غموض، وبالتالي يمنح الفكاهة مظهرها النهائي الذي نميزه، فنقول: «نعم، هذه طرفة!». لكن غوبانوف يطرح مستدركاً أن هناك عوامل واضحة تشير إلى وجود فهم عام مبكر، بأن الفكاهة يمكن أن تخدم في مجال «فض» النزاعات، وليس فقط كما استحدث لاحقاً على

ضوء دورها في خوض النزاعات. يمكن للفكاهة أن تزيل سوء الفهم، في علاقات ـ الوجه لوجه. مثلما يمكن أن تستخدم لأغراض المضايقة والتنمر والتمييز.

وإلى مدى بعيد، (وما زلنا ضمن إطار الفكاهة المستخدمة في الصراع المتعلق بالدين)، إن الدعابة العامة، ليست الشيء الوحيد، ولا المعوّل عليه أساساً الذي يمكن أن يهين مشاعر المؤمنين. لكن، من جانب آخر، نجد أنفسنا في حالة إلتباس لإتجاه البحث، إذ أن الدعابة ليست الشيء الوحيد الذي يقف اتجاهه المؤمنون كمهين لمشاعرهم.

وكان من بين التكرار في مجالات استخدام الإهانة عبر الفكاهة والدعابة، هي مسائل التمييز العنصري وشتائم الأعراق، أو السخرية منها والحط من قدرها. وكذلك التوجهات الجنسية، أو الانحرافات الجسمانية، فضلاً عن استهداف الأعراق والجماعات الأثنية والأقليات وحتى الأحداث المأساوية الجماعية وما شابه. في نفس الوقت، يمكن النظر إلى نفس النكتة بشكل مختلف اعتمادًا على الظروف (أو الفضاء العقلي)، التي بموجبها تعمل وتطلق. وبأي نيّة، ومن سيخضع لعملية الإفهام وتأسيس المعتقد الداعم للفكاهة. لذلك، يمكن لممثل كوميدي ذي بشرة داكنة أن يلقي طرفة أو حكاية تستبطن الفكاهة عن ذوي البشرة الداكنة وعن عرقه؛ وسيفهم الأعضاء المفارقة. ومع ذلك، لا شيء يمنع من تبنّي العنصريين من رواية نفس الحكاية لكل منهم. ربما سيمارس البعض إعادة الرواية لتعزيز إيمانهم بتفوقهم في سباق إفتراضي، أو مفاهيمي. وهناك العديد من الخيارات لاستخدام الدعابة مثل، عدد الأشخاص، الأشخاص الذين يعانون من نقاط ضعفهم، النواقص والدوافع، حتى ذوي الإعاقات العقلية والجسمانية.

من ناحية أخرى، تشير التجربة التاريخية في دراسة الفكاهة، أن هناك مسببات ودوافع وظواهر كثيرة (ضمن سياق الفكاهة أو الدعابة)، يمكن أن تسبب الإستياء بين من يرون في أنفسهم ممثلين عن مختلف الجماعات والعقائد الدينية. وتتراوح هذه العوامل المثيرة للإستياء، من الأعمال الفنية «الفاحشة»، إلى البحوث العلمية والأكاديمية. حتى تلك التي توجه انتقاداً عادلاً لرجال الدين في الكنيسة.

إن الفكاهة، كظاهرة سلوكية وظائفية بالدرجة الأولى، لا تبرز بأي شكل من الأشكال كوسيلة صراع رئيسة. ولا تمثل في هذا المسار شيئاً خاصاً أو أداة مشهورة لإدامة النزاع.

إن متون الأبحاث الإجتماعية الحديثة، وخاصة تلك التي تتناول المجتمعات المعقدة المترابطة بشتى أنواع الروابط، ما زالت تنظر إلى الدعابة والفكاهة على أنها قيمة إعتبارية، ووظيفة بشرية عليا وواضحة الرقي في المرتبة. إنها خلاصة تقدم فكري استثنائي لم تشهد مثله باقي الأحياء الشريكة على الكوكب. إنها تقدم أسباباً كي نكون منجذبين إلى الأشخاص من ذوي حس الدعابة، وسنلاحظ آثار الشفاء من الضحك على سلوك أجسامنا الصحي. وفي الحياة اليومية، نحن نحترم الكوميديان المشهور ونحبّه. هناك عاطفة ومشاعر محمية بعقلانية واضحة تسري اتجاههم. كما أن النظرة الاجتماعية الحديثة، المحدثة قيميًا لا تنظر إلى عمل الكوميديان باعتباره شيئاً حقيراً، وانتهت تقريباً صورة المهرّج في القرون الوسطى، الحامل لتشوهات خلقية، أو المؤدي لحركات غير متناظرة، تعمل على إثارة الضحك.

ووفقاً لمفهوم باختين/ Bakhtin عن الحوار[1]، فإن المراحل المبكّرة من النمو الإجتماعي كانت تشهد وجوداً متعايشاً على أسس متساوية بين مفاهيم الطرافة، ومفاهيم «التصرّف بجديّة».

وكان الدين من بين القضايا التي يقاربها هذان المفهومان بتساوٍ في العادة، أو بما يشبه الحيادية، على الأقل في الفضاءات التي تسبغ عليها المسحة الرسمية. رغم أن هذا تغيَّرَ مع تنامي المجتمع. وهناك إشارات إلى أن الأسلاف كانوا يمارسون الضحك في الجنائز، كنوع من الإمتنان العاطفي للراحلين. ويزخر الفلكلور العالمي بهذه الصور، حتى على سبيل صياغات التناقض أو رواية حكمة ما، أو تكريم لبطولة. ووفقاً لباختين، فإن الأطر الثقافية للفكاهة والضحك بمجملها في القرون الوسطى، لم تصل بها إلى استخدام»رسمي»، عالي المستوى.

كانت الفكاهة في تلك العصور الثقافية خارج نطاق الفن، كما لا يمكن تلمسها في الفلسفة. ويمكن لها أن تظهر بشكل «شبه رسمي» ضمن المهرجانات الشعبية. ونرصد أن عدداً قليلاً من كتّاب عصر النهضة (مثل رابيلييه، وسيرفانتس، وبوكاتشيو وشكسبير بدرجة أقل) عكسوا آلاف

(1) هذا المفهوم ينسب إلى واضعه ميخائيل باختين (1895 ـ 1975)، وهو فيلسوف وناقد أدبي روسي. وقد طرح فكرة تتعلق بعملية التعليم في المدرسة. حيث يتاح للمعلّم التواصل مع تلامذته، وتتصف العملية التبادلية الرئيسة بينهم بأنها عملية نقل معان. ويستخدم مفهوم باختين لقياس وتقييم كفاءة «الخطاب» داخل هذه العملية الناقلَة للمعنى. كما إنه شخّص انضواء هذه العملية على أنها تتم وفقاً لمنظومة مسبقة الضبط من القواعد. ويكون قد اكتسبها الهيكل التبادلي بمرور الزمن. وأهم ما فيها، إن هذه القواعد سبق وأن استخلصت من أحداث بعينها، لا يشترط فيها التجريب واصطفاء الأفضل. «لا يمكن أن نفهم عالم الحدث من داخل العالم النظري، إذ يبدأ الحوار الحقيقي من الفعل، لا من نظرية مسبقة تصوغ شكله في تصوراتنا». ـ المترجم.

السنين من وجود الضحك في ثقافات مجتمعاتهم عبر أعمالهم. وقتها لم يكونوا استثناءً من الإعتبار الجاد العالمي الذي ينظر به إلى الأدب وبشمولية، القاعدة كانت أن الأدب يجب أن يكون جاداً، وفي غاية الجدية.

ونجد أن آيدولوجيا الخوف، ومفاهيم الخطيئة، وقيم الزهد، والحياة بعد الموت، ومصائر الإنسان، إلى جانب الجدّية الشاملة للطقوس الدينية والممارسات المتعلّقة بالدين، قد قادت في النهاية إلى ظهور تعويض مفرط يواجه بواسطة هذه «الواقعية المرّوعة» من الضحك. وهذا الأخير مصطلح استخدمه باختين لوصف النماذج الرائدة من الضحك، والجماليات الثقافية الخاصة به والتي تزامنت مع ظهوره.

كان هذا التصوير المروع عبر الفكاهة، يعطي دوراً رئيساً في التشخيص لما نسميه: «الطبقة الدنيا من صفات التجسيم المادي»، وهي التي تظهر بصورة السكر والشرب، أو ممارسات الطعام، أو الحياة الجنسية، أو التشوهات الجسمانية.

إن مثل هذا المثال «الإنحداري»، يقلب كل شيء مقدس أو مثالي. مثلما يخضع أي تسلسل هرمي لهذا الإنحدار التوصيفي (يسخر من كل شيء عبر الحط من قدره). كانت السخرية تمر بوسائلها من الأعلى إلى الأسفل. الأمر كان متعلقاً بوجه من الوجوه بالزهد الذي تؤطر به الثقافة المسيحية نفسها في تلك العصور. وكذلك دورات التحرر النسبي الذي كانت قيم المدينة فيها تحاول أن تتجسد داخل المجتمع.

من وجهة نظر ثقافات العصور الوسطى، كان الضحك (بشكل خاص، الصخب والزمجرة به)، يرتبط إلى حدٍّ ما بالخطيئة، والعدوانية،

والفسلجية الواطئة التقييم، وحتى بصورة الشيطان. وإلى غاية القرن الرابع عشر، ركز الباحثون في الفكاهة والطرافة بحوثهم على الجانب السلبي من عملية إستظهار الضحك والطرافة. لكن العلاقة بين الدين والضحك لم تكن علاقة بسيطة ولا واضحة المعالم.

وطبعاً كان من المستحيل إخماد البواعث الطبيعية للناس، وما يحرّك مشاعرهم. لكن الضحك وجد تعويضاً لوظائفه ضمن كرنفالات الناس الحاشدة، والعروض وأعياد الحمقى. وكانت تترافق هذه العروض مع العديد من مظاهر السخرية من الطقوس الكنسية المبالغ بها (قداس الحمير، وتشتيت البراز بدلاً من البخور، واختيار الحمقى لتمثيل دور رعاة الأبرشية ضمن الطقوس).

أما الفلكلور الأدبي للعصور الوسطى، فهو يستحق انتباهة خاصة. لدينا مثلا «العشاء السيبيري»، الذي يستهزئ ببعض شخصيات الكتاب المقدس. وهو ما يمكن أن نصفه بإطمئنان إلى أنه «إهانة لمشاعر المؤمنين».

إذن، كانت عملية الرفض المشددة التي مارسها اللاهوت المسيحي عبر العصور، اتجاه الضحك، كانت في الحقيقة محاولة لإخماد مسار معارض وسيسلب القوة مما توفر. لكنها سارت بالتوازي مع أي حاجة إنسانية أخرى، فكان هناك دورات من التسامح الكبير مع الطرافة والضحك. حتى أن صورة المشاركة من قبل رجال الدين في بعض النشاطات الساخرة، أو المحتوية على الفكاهة في الأعياد، كرّست رغبتهم في إظهار التسامح بشكل معلن عنه. لقد كانت مشاركة أكثر تسامحاً مقارنة مع اليوم.

لكن، لماذا كان اللاهوتيون في القرون الوسطى، وحتى في عصور

أبرك، سلبيين للغاية اتجاه الضحك أو أي من مظاهر الطرافة؟. نقول، ربما كان موقفهم سيتغير تماماً لو أن السؤال هنا يتعلق عن الفكاهة الحديثة. من المهم أن ننتبه، إلى أننا نتحدث عن حقبة جرى استخدام مصطلح «الفكاهة» فيها، فقط ضمن إطار مفهوم أبقراط عنها. وكما عبر عنها ليبوفيتسكي/ Lipovetsky،» إن مجمل كوميديا القرون الوسطى مبينة على صورة مروّعة، والتي لا ينبغي الخلط بينها وبين المحاكاة الكوميدية الحديثة. فقد كانت انعزالية، رسمية ولا قيم جمالية فيها.

وكانت من تقاليد السخرية والفكاهة المستتبعة لها في القرون الوسطى أن المرأى المتضخم، أو الإنحرافي للأجسام يكون مدعاة ومحفزاً للطرفة، مثلما يسود هذا في الأعياد والمناسبات التي تمارس فيها بعض مظاهر التحلل.

ووفقاً لدراسة تورن ولوغوف/ N. Truon and J. Le Gof، فإن هذا الموقف من الضحك على هذه الأسس، يعود بجذره إلى الإنكار الذي مارسته المسيحية للجسد واحتياجاته. فالضحك الذي ينبع من الجوف (الجزء الأسفل من جسم الإنسان)، كذلك يتعلّق بالأسس الجسدية لإعمال الفكاهة. وربما كان التحريم للتجسيد (وحاجات الجسد)، تسبب بإزاحة مفاهيمية نحو تمثيل هذه الإجتياجات بصورة من السخرية، وجعلها موضوعاً للفكاهة.

وكانت الكرنفالات تعطي فرصة لكسر الموانع التي تسببت بها الآيدولوجيا الدينية اتجاه نشاطات بعينها، وتكون هذه الفرصة على شكل تعبير عن «المحرّمات»ضمن إطار من الضحك والفكاهة.

وخلال العصور الوسطى (على الأقل بما يتعلّق بغرب أوروبا)، كانت الكنيسة على تواصل تام بما يتعلق بمحتوى الفكاهة في زمانها. والتي جاءت بدورها، كصورة تعبيرية (تسربت عبر الضحك)، للموانع التي مارستها الكنيسة نفسها. إذن، فقد أثرت آيدولوجيا الكنيسة بشكل غير مباشر في عملية اختيار المواضيع التي ستكون مادة الفكاهة وساحتها ونطاق فعلها.

نعم، كانت المناهج الثقافية في ذمِّ الضحك، والتي تستند على التعاليم الكنسية هي الطابع السائد منذ القرون الأولى الأربعة بعد الميلاد، وفقاً لـ لوغوف. لكن مع مطلع القرن الرابع الميلادي، بدأ المناخ الثقافي والإجتماعي يتسامح مع الضحك. يفسر لوغوف هذا المناخ المتسامح بأن السلوك الإجتماعي تعلّم كيف «يضبط» الضحك، ووضع بعض المحددات العرفية لإطلاقه. بل وقسّم المجتمع الضحك إلى ضحك «جيد»، وآخر «سيِّئ». والأهم؛ إلى «ضحك إلهي/ سماوي»، و«ضحك شيطاني».

أما نوعية المتعة التي كان يعبر عنها بالابتسامة فقد لاقت نظرة إيجابية من جانب وجهة النظر الدينية. ووفقاً لطروحات ليبوفيتسكي/ Lipovetsky، فإن ثقافة المهرجانات الجماهيرية، مع ميراثها الممتلئ بـ «الطرافة المروّعة»، وصلت إلى نهاية ما. وصار الضحك أمراً مشخصناً، كما أصبح سلوكاً رمزيًّا ودقيقاً وأكثر مدنية.

ومع نهاية القرن الثامن عشر، اكتسبت الفكاهة، معناها النهائي. وفي ذات الوقت، حدثت تغيرات في إدراك الظاهرة، من قبل العلماء والفلاسفة، كما هو الحال من وجهة نظر العامة.

إن تغير الموقف اتجاه الضحك والفكاهة، اشتمل كل المجتمع[1]، بما في ذلك الأفراد المشتغلون في اللاهوت. ومثال ذلك التغيير ما شاع وسمي بـ«لاهوتيات المتعة»، وهو مُتَّجهٌ ظهرَ في الأفكار الدينية الغربية خلال السبعينيات من القرن الماضي. مثلت أعمال وتنظيرات كل من أصحاب الإخوانيات اللاهوتية مثل إيلتون تروبلد/ Trueblood، وهنري كوكس/ Cox، وكونراد هايرس/ Hyers، وآخرين، أبرز ملامحها.

في الوقت نفسه، ظهر اكتشاف؛ «عالم الضحك الخاص بالعَهد القديم». وقد خُصصت عدّة دراسات للبحث في الكتاب المقدّس عن المعاني الجادة إلى جانب البحث عن لمحات تتعلق بالضحك والمتعة، فضلاً عن السخرية والطرافة. كما كتب العديدون عن الجانب الفكاهي لمشاهد الكتاب المقدّس، الجانب الذي تكون فيه السخرية هي المعطى الأبرز لإيصال المعنى

وكانت النتيجة في هذا الجانب من اللاهوت والدراسات الدينية، أن تكشفت عملية ضخمة لإعادة التفكير في الضحك والفكاهة، مثلما هي الحال في إعادة النظر بالخطاب الديني على أسس حديثة. وكان من التوقع بالتأكيد أن تبدي المؤسسات الدينية رفضاً للتجديد وتقاوم التغيير لأجل الحفاظ على النظرة التقليدية التي طالما تخالفت مع احتياجات العصر الإجتماعية. ومن وجهة نظر تاريخية ـ ثقافية، فإن هذه الستراتيجية ستؤدي الى إرتدادات سلبية يتأثر بها مجمل التطوّر الاجتماعي.

وتحت عنوان الفضائح التي بنيت على أساس الفكاهة والدين، يطرح

---

(1) الحديث هنا عن المجتمع الأوروبي بشكل خاص ـ المترجم.

غوبانوف أن عالم الصراع لم ينأَ مطلقاً عن هذا الجانب في المواجهة. رغم شحة الأعمال التي تناولت مسألة الصراع في ساحة المفاهيم والتأثير النفسي والمُعتقداتي. والأقل منها، هو دراسة النزاع بين الفكاهة والدين.

لكنه يشير إلى أعمال راسكن وكوبر، وخاصة التي تناولت الرسومات الكاريكاتورية الدنيماركية التي ظهرت 2005 ـ 2006. وما تلاها. وفي دراسة التفاصيل لهذه الحوادث، يجد الباحثون أن أوجه التشابه بين الفضائح المبنية على تصادم الدين والفكاهة، لا تختلف كثيراً (من ناحية قواعد الإشتباك ومساراته)، عن فضائح أخرى كان طرفاها هما الدين والأعمال الفنية مثلاً. ولهذا، ووفقاً لما كتب سي ديفز/ C. Davies، فإن «فضيحة السخرية بالرسومات ليست إلّا عملية تلاعب سياسي ظهرت بهذا الوجه، وهي منوي عنها مُسبقاً لتكون اعتداءً». وما كان أحد ليعير أهمية لصحيفة دنيماركية مغمورة. لتصبح فجأة محل شكوى قادة مجتمع مسلمين. الذين اشتكوا بدورهم الى زعماء مسلمين بشأنها. أكثر من هذا، إنهم أضافوا الزيت على النار بنشر رسوماتٍ أخرى لا يُعرف رسّامها، ولا تعود إلى صحيفة جوليان بوستن/ Jylland Posten ولا غيرها. مثل هذا السلوك، من الطبيعي أن يثير التظاهرات والاحتجاجات، بل إنه سيثير مكامن وحشية من العقلية المتشددة في جبهة المتدينين. لكن الأمر حدث كما يحدث في حالات رفض كتاب، أو فيلم قد يرى كثيرون أن فيه إعتداءً ثقافيًا.

وبالتأكيد فإن ثيمات حرية التعبير والتسامح والمراقبة وعقوبات النشر، ستكون حاضرة في مثل هكذا نزاع. لكن بالعموم، بإمكاننا القول إن أي صراع ديني مَبنيٍّ على إهانة عبر طُرفة أو نكتة أو عبر مادّة فنية من وجهة

نظر مغايرة، فإنه سيقود إلى عاقبتين منطقيتين اثنتين؛ الأولى إن الشعبية ستتنامى حول الموضوع الذي أثيرت بشأنه الفضيحة أو بنيت عليه الإهانة. والثانية، سيدور حول المجموعات المدنية المتعصّبة وما سيخرج عنها من تهديدات أو أفعال عنيفة. لقد أضافت «الفكاهة»، خواصّها إلى هذا النوع من الصراع. لكن أي نوع من الخواص هذا؟.

هنا يجب أن نتحرى الأسئلة المتعلقة بظاهرة قد نسميها؛ «اللافكاهة/ اللاطرفة». لقد لاحظ لويس/ P.Lewis، أن معظم الباحثين كرسوا جهودهم لتحري وتقييم الفكاهة بعينها. والتي في العادة يكون لها تأثير، إمّا إيجابي أو طبيعي. لكن ما جرى خلال العقود الحالية، دفعنا إلى دراسة (اللاطرافة). وهي الحالة التي تعدُّ فيها الطرفة غبية، أو بلا طعم، أو ربما حتى يمكن عدّها مُشينة.

وهنا يبرز نوع من ردود الأفعال نطلق عليه «ردّ الفعل المواجه للسخافة». وهو ردّ فعل قد يكون أقوى بكثير من الإهانة الإفتتاحية أو الإنتقاد المباشر الأولي. ولسبب ما، فإن العبارات الفكاهية المعبرة عن عدد من الأفكار بعينها، يمكن أن تؤذي الآخرين. بحث كل من لويس وسميث «قضية الرسومات الكاريكاتورية»، من وجهة نظر اللافكاهة. لكنهما فضّلا استخدام وصف (اللاضحك) للتعبير عن هذه الحالة. إن (اللاضحك)، هنا لا يعني غياب الضحك، إنما يشير إلى رد الفعل الحاوي على الإستياء وهو المقابل للضحك. إن ردّ الفعل الحاوي على (لا ضحك) اتجاه الطرفة يمكن بذاته أن يؤدي إلى الإستياء ويمكن أن يطلق موجة أخرى من الاستهزاء.

ضرب سميث مثلاً في رد الفعل السلبي الذي أبداه الممثل الأميركي

توم كروز اتجاه التظاهرات. لقد كانت ردّة فعل كروز (غير الضاحكة/ غير المتفاعلة) محل انتقاد واستهزاء بذاتها، وصارت موضع تندر وفكاهة. علاوة على أن أولئك الذين لديهم موقف إبتدائي من كروز، ذهبوا إلى استخدام هذا التندر والسخرية في تأكيد موقفهم المسبق.

حالة مماثلة حدثت مع المسلمين في ما يتعلّق بالرسومات الكاريكاتورية الدنيماركية. إذ أن الأمر من وجهة نظر المجتمع الدنيماركي، ظهر المسلمون ليؤكدوا انعزالهم، عبر تأكيد أنهم لا يتمتعون بـ «حسّ الفكاهة». وهم غير قادرين على الضحك على أنفسهم. وكذلك فإنهم يحملون قيماً غير متوافقة مع المجتمع الذي يعيشون فيه.

لقد ربط سميث هذا، بحقيقة أن الفكاهة (ومعها روح الدُعابة)، هي ذات تمثيل قيمي عالٍ، خاصة في المجتمع الغربي. وبهذا، ستكون روح الدُّعابة هي الميزة الأهم من بين مميزات «الإنسان الغربي» المعاصر. كما ذهب إلى أن روح الدُّعابة، هي ليست فقط صفة مطلوبة بحدّة، إنما هي ترتقي إلى مستوى الضرورة. وإن النقص في حيازتها سيكون متعلقاً بالمشاعر المتدنية، والمريضة (تحت تقييم ما)، والمحدودية إضافة إلى مجموعة أخرى من الصفات الشخصية السلبية.

هذا هو السبب خلف استخدام الفكاهة بشكل متزايد كوسيلة لاختبار (الآخرين)، وفقاً لسميث. فالمجموعة تعد ردّة فعل (اللاضحك) هي غلطة لا تغتفر وتتعلق بعدم تكيّف من (لا يضحك). وهو موقف متشدد اتجاه الذات، واتجاه من لا يتمكن من الضحك على النفس واستخدامها مادّة للسخرية.

وهناك دراسة أميركية دخلت في نفس الحيز، قدّمها تشايس ويزلي ريمون/ C. W. Raymond، جلبت الإنتباه إلى نقطة غاية في الأهمية؛ ففي الأخويّات التي تنشأ في الجامعات، تكون أشكال الإذلال عبر الفكاهة التي تستخدم الدين أو التمييز العرقي أو الأثني أو الأنماط الأخرى المشابهة، مزدهرة لسببٍ ما. وأيضاً لا تتمايز هناك مجموعات من الأفراد حينما يقع الهجوم على ضحايا مهانين.

ونجد أن أعضاء الإخوانية، الذين هم بالأصل مختلفون عرقيًا وأثنيًا، يضحكون ويسخرون من بعضهم البعض، بدءًا من اليوم الأول لهم في الإخوانية وصولاً إلى مغادرة الجامعة. فما هو السبب في شيوع هذا النوع من التسامح، الذي يستعد فيه كل فرد تقليديًا للقتال؟. ربما يعود هذا الأمر إلى وجود فترة تجريبية إلزامية لكل من يدخل إلى الإخويّة تمتد إلى عشرة أسابيع. فلا أحد يبقى في المجموعة ما لم يبدِ ما يكفي من استعدادٍ لتبني القيم العمومية فيها. إن الإخويّات التي يشكّلها الطلبة، مبنيّة على أساس من التجانس. ووفقاً لريموند، فإن الذائقة الفكاهية هي وسيلة مسلّية لكسر الحواجز، التي يمكن أن تنشأ بالأصل من وجود التنوّع الأثني، أو الديني أو الثقافي، أو أي شيء آخر يميز التنوع بين أفراد المجتمعات.

لهذا، ليس المدافعون فقط عن نشر الرسومات الكاريكاتورية قللوا من شأن غيظ المسلمين منها، إنما قللوا من قيمة الفكاهة ومعناها في المجتمع الغربي. وكانت التظاهرات المُنفعلة التي حرّكتها بعض السفارات والتهديدات بالقتل، نجحت فقط في تأكيد النمطية التي جرى تأديتها عبر الرسومات نفسها. والخطر الحقيقي للفضائح أو الأزمات التي تثيرها الفكاهة والدُعابات والسخرية، يكمن في تراكم سمعة المخاطر في الضحية.

إذن، عدم القدرة على الضحك من موضوع تكون الذاتُ محوره، وعدم التفاعل مع الآخرين في الضحك، سيفسر على أنه نقص في تبني قيم المجتمع، ومنها تبني روح الدُعابة. وهو ما سيجلب نقمة الآخرين.

ثم يستنتج غوبانوف أن النزاعات المبنية على تضاد الفكاهة والدين، لا يمكن عدّها ظاهرة مستقلة. إنها في واقعها حالة معينة وخاصة من المشاكل العالمية ومنها؛ حرية التعبير وحرية الخطاب والتسامح وحتى المشاكل الأساسية التي يعاني منها «الآخرون».

إن الصراعات الدينية التي تنطلق من أساس له علاقة بالفكاهة، ستؤدي إلى ذات العواقب التي تنطلق منها صراعات الخطاب الديني مع الأعمال الفنية على سبيل المثال. الأمر متعلق بشعبية موضوع الصراع (سواء كان فيلماً سينمائيًا، أو كتاباً، أو رسوماً كاريكاتورية، أو طرفة تنتشر). كما يعتمد على قدر علاقة المجاميع المتشددة الأصولية، التي تؤثر سلباً على صورة الدين وأتباعه. وهنا تضيف الفكاهة ملامح إضافية أخرى على الصراع.

وفي المجتمع الحديث المعاصر (على الأقل في المجتمعات الغربية)، ما زال الموقف من الفكاهة موقفاً إيجابيًا جداً. وحسّ الدعابة يغدو واحداً من أهم صفات ما بعد الشخصانية المرتجاة. فالفرد بلا حسّ الدعابة، سيُعد منقوصَ الصّفات وصعباً ومحدوداً ومُتعجرفاً اتجاه «الآخرين». ولهذا، فإن أي صراع تدخل فيه الفكاهة عنصراً (ليس الصراع مع الخطاب الديني فقط)، سيؤدي إلى مخاطر جمّة تميل على الجانب الذي يفترضه المجتمع بأنه لم يفهم الطُرفة أو الدُعابة. وإن الذين لا يتفاعلون فكاهيًا مع الطرفة، سيوصمون بالمزيد من قبل الجانب الذي تفاعل مع الفكاهة واعتنقها وتعامل معها على أنها قضية طبيعية معتادة.

ومن هنا، فإننا سنفترض أن الصراعات مع الخطاب الديني المبنية على الفكاهة والدعابة ستزداد. وتاريخيًّا، كان هناك جوٌّ من عدم الثقة بين الخطاب الديني والضحك، أو اللهو، وهو ما سيبان بصورة جلية في عدد من الأديان وسيؤدي إلى المزيد من النزاعات.

أما النبرة الأخلاقية، والفضاء الجاد الشديد الكثافة الذي نراه في وجهة النظر التقليدية الدينية، بما في ذلك الأرثوذوكسية، والتي تعاكس الميل العام للتغير في المواقف (من السلب إلى الإيجاب) للضحك والفكاهة فإنه سائر إلى التسيد والإنتشار.

وإن التفهم اللاهوتي لهذه الظاهرة، كما هوالحال مع التكامل في وجهة النظر الدينية الحديثة، قد يساعد على التقليل من عدد هذه النزاعات. هذه النزاعات لم ينفع وجودها إلّا في التأثير سلباً على صورة الأديان وأتباعها.

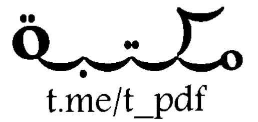
(10)

لكن لماذا نضحك؟.

وقف الأستاذ أمام طلابه وأعطاهم واجبات كي ينجزوها خلال عطلة نهاية الأسبوع. وقال لهم؛ «لن أقبل بعذر لعدم إنجاز هذه الواجبات، إلّا أن تكون مريضاً أو إنك تقترب من الموت».

رفع أحد الطلّاب يده وقال: «وماذا عن الإصابة بالإنهاك الجنسي!».

ضحك الطلّاب، لكن الأستاذ انتظر حتى ينتهوا من ضحكاتهم وقال: «ربما عليك أن تأخذ بنظر الإعتبار استخدام يدك الأخرى غير التي تكتب بها!».



10 ـ 1. الضحك كوسيلة للتواصل.

افترض بيرغسون أن أي مشاعر أخرى يمكن أن تبطل مفعول الفكاهة، لكن يتعيّن عليها أن تكون قويّة للغاية. وقد يحدث أن تأتي الفكاهة في وقت غير مرحّب به، وأن يجري التعامل معها على أنها مقاطعة في غير محلّها. لو جاءت الفكاهة وسط حفل رائع وصامتٍ يستمع بخشوع

لموسيقى بيتهوفن، أو إنها ألقيت بعد لحظات من ممارسة مُمتعة للجنس. لكن، لو كانت الطُرفة أو التعليقات فعلاً فكاهية بما يكفي، فإن من الأرجح أن تثير الضحك رغماً عن الشخص (هذا ما نميل إلى افتراضه).

إن المشاعر تتداخل مع بعضها البعض حين يكون لها تكافؤٌ متعاكس. لكن حتى في هذه الحالة فإنها لن تقاوم بعضها البعض، وحالة التأثير السَلبي يمكن أن تعبّد الطريق إلى حدوث ميل قوي لتقدير الفكاهة. مثلما يحدث حين يتحوّل الغضب أو الإنفعال إلى متعة حين تلقى في وسطه نكتة شديدة التأثير والعلاقة بالموقف.

إن المشاعر السلبية في الحقيقة لن تتداخل مع الفكاهة نفسها، لكنها ستتقاطع مع السرور المصاحب للفكاهة. أو مع الضحك الذي يستعمل للتعبير عن الفكاهة.

يعني بعبارة أخرى، إننا من الممكن أن نقيّم ونميّز فكاهة ما بمعزل عن السرور المصاحب لها. على سبيل المثال، لو كان هناك كاتب محترف من كتّاب الكوميديا، يجلس في جلسة مؤلمة ومروِّعة لقلع ضرسه عند طبيب الأسنان، فإنّه لن يقاوم إغراء السخرية من تعليق خرج من فم طبيب الأسنان، وفيه ما يدعو تحويله وإجابته بصورة فكاهية ملحّة. ولن يمنع هذا الكاتب عقله من عدم التعامل مع هذا التعليق وكأنه تعليق عادي يمر بطريقة روتينية. إنه لن يفوّت الإبتسامة على الأقل (حتى لو كان فمه مفتوحاً وضرسه مُدمى)، وصولاً ربما إلى الضحك.

لكن السؤال يبقى في الظروف الاعتيادية، لماذا نضحك عالياً اتجاه الأشياء الطريفة؟. إن الجواب قد يكون أن هذا هو مجرّد منتجٍ عرضيٍّ

غبيٌّ، نتج عن الطريقة التي ترابطنا بها واندمجنا بها مع المؤثرات وأنه لا يخدم أي وظيفة.

لكن، طالما كان هناك كُلفة لتبنّي وممارسة هذا النّمط من التصرّف، فعلينا أن نسأل؛ لماذا لم يتمكّن التطوّر من تخليصنا من هذه النزعة، أو على الأقل أن يشرع في وسيلة تقلل منها أو تعادل أثرها (السيِّئ في بعض الأحيان)؟.

هل يمكن أن تكون شكلاً من أشكال مكافأة النفس ولو بشكل طفيف؟.

هنا نعيد طرح ما كتب فيه روبرت فرانك الذي اقترح أن بعض المشاعر تدفعنا إلى تبنّي إلتزامات فيها عوائد نافعة، رغم أنها تبدو لنا على شكل خيارات غير عقلانية في بادئ الأمر. وجزء من وجهة نظره تقول بأن التعبير اللا إرادي عن المشاعر هو كذلك يزوّدنا بمنافع لا يختارها سلوكنا الإرادي في العادة. وعلى سبيل المثال، نجد أن احمرار الوَجه الذي هو في الحقيقة يكشف نوايا الشخص الذي يفكّر في أن ينغمس في سلوك ممنوع أو خاضع لتابو معيّن. هذا الاحمرار يمكن أن يشجّع مستوى معيّناً من السيطرة الإجتماعية على العقل.

وكذلك نجد أن الشخص الذي يُتاح له أن يتعلّم إظهار (وجه لاعب البوكر)[1]، عندها يمكن أن يغشّ الآخرين عبر تفادي الاحمرار أو ما يشابهه من آثار تبدو على الوجه. وهو يفعل ذلك بتفادٍ حتى التفكير في حدوث

---

(1) تعبير شائع يشير في العادة إلى الوجوه التي لا يبدو عليها أي انعكاس انقباضي أو انبساطي نتيجة الإنفعالات المختلفة اتجاه مواقف معيّنة أو سماعها عبارات محددة عادة يستجيب لها الناس بالتعبير الذي يظهر على الوجه ـ المترجم.

هذا السلوك (الممنوع أو الخاضع لتابو) والذي يؤدي الى إنعكاس واضح على الوجه. فالأشخاص الذين يحملون (وجه لاعب البوكر) يكونون إمّا قد درّبوا أنفسهم على عدم التفكير اللحظي في ما يدركون أنّه سينعكس على وجوههم، أو إنهم يفكرون فعلاً في شيء آخر بعيد تماماً عن موقف الإحراج. ويستمرون بالتفكير فيه رُغم سماعهم وتفاعلهم وحضورهم الموقف المُحرج.

إن الشخص الذي ينجح بإدارة هذه السياسة الهادفة إلى السيطرة على الذات، سيكون أكثر «إنفتاحاً» في الأوساط العامة، وسيربح المزيد من الثقة داخل مجتمعه (وهذه تؤدي الى استمرار عضويته الفعّالة فيه). وهي قد تقوده إلى أن يبذل جهوداً أكبر ليكون ضابطاً مُتقناً على نفسه. حيث أن كُلفة انكشاف الغِش في المراحل المبكّرة مع المجموعات الإجتماعية قد تصل إلى الموت أو على الأقل الإقصاء.

خلاصة القول، إننا مُجبرون على اتباع مناهج فعل تعود بالنفع على أنفسنا. سواء كان هذا الإجبار عبر مُستشعراتنا وأحاسيسنا الفسيولوجية، أو عبر التعبير اللا إرادي الظاهري. يحدث هذا حتى لو كانت هذه الأفعال (تبدو) غير نافعة لنا من الناحية الظاهرية العقلانية.

لكن يتحتم علينا ألّا نهمل حقيقة مرافقة لكل سمة خضعت للتطوّر، بأن للمشاعر تبعاتها وكلفها التي تتعدى فوائدها ومنافعها.

إن الصفات الموجودة اليوم قد جرى اصطفاؤها وانتخابها بسبب الفوائد التي تجاوزت الكُلف والأعباء التي تحمّلها أسلافنا، حتى لو كانت ثقيلة بالخصوص. على سبيل المثال، خذ الغضب وما يتزامن معه من

تعبير. فوفقاً لرأي فرانك، فإن تعبير الغضب تطوّر بين أفراد النوع الواحد كوسيلة لتحذير الآخرين بأن الفرد الغاضب هو ليس من النوع الذي يسهل غشّه. هذه المشاعر تظهر حين يشعر الشخص بأن مصدراً ما قد أخذ منه بلا عدالة. وهذه تطلق سلوكاً عادة ما يكون عنيفاً، بحيث إمّا أن يدحر الآخرين أو ربما يُرعبهم ويرعب الغشاش كي يرعوي ويتراجع عن غشّه.

إن الشهود الذين سيشاهدون سَورة الغضب وهي تصدر عن فرد، سيدركون أن كُلفة الغش معه قد تكون أعلى مما يتوقعون. وسيحاطون علماً بالسلوك الخطر للفرد الغاضب. رغم أننا جميعاً نقول بندمنا عن بعض ما يصدر عنّا خلال سورة الغضب.

أن تكون سريع الغضب ـ وأن تكون معروفاً بسرعة الغضب ـ هو أمر قد يجعل الآخرين يتأنَّون قبل أن يحاولوا تجربة الغش اتجاهك. لكن في بعض الظروف، فإن المشاعر قد تجعلك تخسر أكثر من الأرباح والفوائد المتأتية منها.

إن كل المشاعر التي نمتلكها قد خضعت للتشفير والتضبيط عبر الإنتخاب الطبيعي، بما في ذلك المشاعر الأبستمولوجية. كلها ستحرّك السلول فينا، وتحديداً السلوك المفيد. لكن هذه السلوكيات في بعض الأحيان ستعمل على التقليل من ملاءمة الكائن العضوي.

وعلى ضوء آراء فرانك في المشاعر، يتوجب أن نأخذ بنظر الإعتبار أن الضحك في العادة، وبصورة طبيعية سيكون أمراً لا إراديًا. لكن، هل هناك منفعة خفيّة في كوننا نضحك دون أن نختار بعقلانية؟.

إن حقيقة كون الضحك أمراً لا إراديًا، يجعل منه نوعاً غامضاً من وسائل

التواصل. ينطبق هذا الحال طالما أن المعلومات التي ننشرها عبر السلوك اللا إرادي (مثل الإرتجاف خلال الخوف، أو الارتعاش خلال البرد، أو الترنّح خلال السكر..الخ)، ينظر لها على أنها وسيلة غير مقصودة لخداع النفس، أكثر من كونها وسيلة تواصل. صحيح أنها وسيلة غامضة، لكنها فريدة أيضاً.

الإبتسامة، على سبيل المثال، قد جرى شرحها وتفسيرها على أنها أكثر من مجرّد كونها علامة من علائم الفرح. إنها وسيلة تواصل للفرح ـ إنها تحدث بقوّة فقط حين نلاقي من لديه استعدادٌ لتلقي الإشارة. إن الشيء المشابه لهذا الأمر يحدث مع الضحك. فالضحك يتمتع بنفس الخاصية الحساسة اتجاه الجمهور، سواء كان جمهوراً حاضراً أم مستمعاً يتصوّر وجوده الشخص. وسنجد فريدلند/ يفترض في هذا المجال أن هذه الصفة «الإجتماعية المُضمرة»، هي السبب الرئيس وراء حدوث الضحك الإنفرادي.

أمّا ما هو غير واضح، فهو الغرض من وجود هذه القدرة على التواصل بالضحك ـ التواصل غير الإرادي في العادة. وما هي الفائدة التي يمكن أن تتحصل لنا من خلال هذا التواصل، أو إرتكاب خطأ في الحكم على شيء ما، أو تمييز الخطأ في هذا الحكم؟.

مع ملاحظة أن الشخص الذي سيضحك هو بالضرورة من نجا أو تعافى من تبني الحُكم الخاطئ على الأشياء. رغم ذلك، فإنه يبدو كاستعراض للتشديد على أنه كان هناك خطأ ما في المقام الأول (وتعرّفنا عليه وميّزناه عن طريق الفكاهة وعبّرنا عن ذلك بالضحك). لكن لماذا يتحتم علينا أن نبث ذلك إلى العالم المحيط؟. نقول (يتحتم)، لأن الضحك لا إرادي

في العادة. «لقد ارتكبتُ خطأ في الحُكم الصائب»، ثم وُلِدت الفكاهة وانتقلت إلى الضحك للتعبير عن الشعور بها. فلماذا لم أحتفظ بكل هذا الأمر لنفسي؟

يقول بروفاين؛ «ربّما تكون نظرية (الإنذار الخاطئ) في الضحك وتفسيرات المنظرين الذين بحثوا في مفهوم (اللهو)، الذي يفترض أن الضحك قد جرى اشتقاقه وجعله شعيرة من أصل اللهاث الذي كان يستخدم كإشارة للاعدوانية خلال اللهو. وهذان الرأيان يمكن مقاربتهما سويّة. إن نظرية اللهو تمنحنا تفسيراً واضحاً كيف أن صوت الضحك المتقطع قد تطوّر عبر الوقت».

لكن، إن كانت الدغدغة تنضوي تحت مجموعة الفكاهة، فلماذا تطوّر ردّ الفعل ليصبح الضحك وليس غيره، هو المعبّر وهو الإستجابة لهذا النوع من الفكاهة والأنواع القليلة الأخرى؟.

إن الإجابة قد تكون بأن الفكاهة لدى أسلافنا كانت تحدث بالتوازي مع سلوك اللعب واللهو. وهذا الأمر ما زال يحدث مع الشمبانزي. وربما أن المعنى المقصود والمشدد عليه، يراد له أن ينتقل إلى الشركاء، فضلاً عن نقله الى المتفرّجين أيضاً؛ «لا تقلق، إن ما تشاهده ليس عدواناً خطراً».

ونشاهد أن سلوك اللهو واللعب لدى الشمبانزي مُحدد إلى مستوى عالٍ بالمطاردة أو المصارعة. والشمبانزي سيضحك أساساً حين يكون على مقربة من الوقوع في مَسكة الآخر المُطارِد له. أو حين يوشك على التعرّض لهجوم من قبل (اللاهي/ اللاعب) الآخر في قطيعِهِ الذي يلعب معه. سينطلق أحدهم بالضحك مباشرة بعد انتهاء هذه المحاولة التي تشبه

تمارين التنافس. إنها بالضبط اللحظة التي سيحدث فيها (إستئصال) للفضاء العقلي المختص بالأمن والسيطرة. سيُستأصل من قبل حقيقة أن الفرد المُطارَد قد جرى مَسكه. وفي لعبة محاولة لمس الآخر، على سبيل المثال، فإننا نحاول التذاكي على بعضنا البعض ونحاول أن نتوقع ما سيفعله الآخر. وأن نحاكي قفزتهم أو جريهم بالضبط، وأن نتوقع حركاتهم التالية وهم يهربون منّا. وهذا السلوك، يتضمن جزئيًّا عملية خداع في مرحلة المُطاردة، مثلما يتضمن عملية تنبُّؤ من قبل القائم على المطاردة.

إنني قد أبني نموذجاً من الظروف، ثم أحاول التنبؤ إن تمكّنتُ من تمويه هذا بعيداً عني، أو خداع ذلك بعيداً عنّي، فقد أتمكن بالنهاية من الهرب منك (أو الإمساك بك لو كنت أنا المطارِد).

إن لعبة اللمس هذه، أو في لعبة الإختفاء والبحث، هي في الحقيقة «نموذج لعبة» من المنافسة الأولية الواقعية التي تحدث بين الضواري والمفترسات اتجاه الفريسة، أو اتجاه المنافسة من أجل الفوز بفرصة للتزاوج. إنها نسخة لغرض اللعب من الواقع الصعب والدموي. وهي بهذا فقد تحوّلت من لعبة إلى وسيلة لـ «صناعة المستقبل»، باستخدام تطبيق أوّلي مبسّط للمواقف والنوايا.

إن لعب لعبة اللمس هو في الحقيقة بمثابة (الشطرنج) عند الشمبانزي. وسيكون كلا اللاعبين (النموذجين)؛ المطارِد والمطارَد غير مؤهلين في حالة الإمساك من قبل الآخر، أو تمكّن الآخر من الهرب. وهنا قد يمارس الحيوان الضحك بسبب فشله. أو ربما سيضحك من خصمه، لو احتكمنا إلى بعض ما في نظرية العقل.

وإذا كانت الدغدغة والمطاردة هي استظهار أوّلي لظروف الفكاهة، وإذا كان الضحك المتعلق بهما قد حاز على فوائد مبكّرة في منع العدوانية، أو منع حدوث فزع من قبل وجهة النظر التي تظن أن ما يحدث هو عدوان، إذن فإن الفكاهة بكل أشكالها قد تكون من بواقي هذا السلوك.

ومن جانب آخر، وبالرغم من أنها قد تكون تطوّرت لتقليل إشارات العدوانية، فإن الطَبعات المُعاصرة من الضحك قد جرى تبنّيها لتشجيع سلوكيات من أنواع أخرى متنوعة أكثر من الإستخدام الأولي لها.

إن الأدبيات التي ذهبت إلى تفسير الفكاهة والضحك على أنها قد تطوّرت من الصّيحات التحذيرية بين المجموعات، قد ثبت أنها تحمل مضامين متناقضة. كما أن النماذج الحالية قد أثبتت أن لا حاجة لتفسير عمليات الاختيار في الجماعات.

وذات المنطق يدعم الفرضيات التي ذهبت الى التفسير بسلوك التصالح مع النداءات التحذيرية الصادرة عن الذات، أو إرسال إشارة تبعث على إرتياح المجموعة وتطمّنهم بعدم وجود خطر. إن تمديد مثل هذا التطبيق ليشتمل مثل هذه الإشارات، ولتغطية سلوك اللهو واللعب هو خطوة صغيرة. حيث أن هذه السلوكيات من المحتمل أن تكون قراءة خاطئة لوجود خطر مُميت. ومع ارتقاء وتعقد سلوك اللعب، والفرص لوجود إنذار وتحذير حقيقي انحسرت، فإن البواقي من النداء الفطري استمرت لتلعب دور الإشارات التي تشير إلى «شعور بالإرتياح». الضحك لعب دور إشارة سارية المفعول ويعتمد عليها.

10 ـ 2. اِنتخاب الفكاهة والضحك.

حينما نقرأ كتاباً أو قصيدة، ففي العادة لن نجد الأمر مسلّياً لو قرأناه بمفردنا. لكن يمكن مع ذلك أن نجد بعض المُتعة لو قرأناه لشخص آخر غيرنا. بالنسبة لهذا الشخص، فالأمر مفعم بفضيلة المُتعة أو الدهشة؛ لأننا سنلامس كل المفاجآت والتقدير الذي ينضوي عليه عقله بشكل طبيعي. لكنه لن يكون بعد ذلك متوفراً لنا، سنكون قد فقدنا صفة التفاجؤ. سنتعامل مع الأفكار التي تضمّنها النص ونتلوها عليه في ضوء ما تبدو له، بدلاً من التعامل معها على ضوء ما تبدو (لنا). وسنكون مسرورين لسروره، الذي سنحيله إلى كونه قد حصل نتيجة جهدنا نحن.

آدم سميث.

في اللحظة التي تبدأ فيها الفكاهة البدائية أو المُبسطة، ثم يشرعَ الجمهور الذي كان يتلقاها بأخذ المسار الصحيح، فإن التطوّر سيبدأ بعملية حَرْفِها وحَيْدِها لتخدم غرضاً بعينه.

وفي الحقيقة فإن الطرق المتنوّعة التي نراها في الفكاهة ونرى بها الفكاهة والضحك، تستعمل اليوم كخطاب متعارف عليه. وهذا الإستخدام مبنيّ على حقيقة أن هذه السمة وجب أن تكون سبق أن تعرّضت لنوع من الحيود لغرض استخدامها لأغراض إضافية أخرى. بعبارة أخرى، ظهرت الفكاهة لأجل أن تخدم غرضاً ما، ثم صارت تستعمل عُرفاً لأغراض أخرى، بالإضافة إلى الغرض الأساس.

ومع ذلك، فمهما كانت الأغراض وراء استخدام الفكاهة بتفرّع مُضاف

أو بإضافة أغراض، فإنها ما زالت تلعب دوراً إتصاليًّا أساسًا. وعليه، سيكون من المفيد طرح السؤال التالي باستمرار؛ ماهو السلوك الذي يثيره الضحك بشكل موثوق به في المتلقي؟. شرط أن يكون سلوك المتلقي هذا (ردّة فعله إزاء سماع الضحك من الآخر) سيفيد الشخص الضاحك، وسيعمل لصالحه.

أولاً، لنستعيد الفرضية التي تقول بأن الإختيار الجنسي يلعب دوراً مهماً في تحسين وتشكيل المناسبات التي يكون فيها الضحك إستجابة طبيعية. وهنا يكون أساس الإفتراض بأن الفكاهة قد تطوّرت لتكون أداة إجتماعية لها استخدامها المهم في عملية التنافس للحصول على شريك. وهناك ركن مهم في هذا النقاض يعتمد على تثبيت المعلومة التي تقول بوجود علاقة بين الضحك والمقدرة الإدراكية وحيازة المعرفة. ولطالما أشارت البحوث المختلفة إلى أن «حيازة المعرفة» كانت هدفاً واضحاً من أهداف عملية التطوّر؛ وهو المعرفة التي ستساعد على خلق التوقعات الصحيحة التي بدورها ستجعل فرص بقاء الكائن الحي على قيد الحياة كبيرة وستقوده إلى انتهاج سلوك معيّن يصبّ في هذا المسار.

وفي الكائنات الحيّة التي هي أبسط من الإنسان، فإن هذه التوقّعات تميل إلى أن تتخذ أشكالاً نمطية ومحلّية، بما يسمح لها أن تتفادى التهديدات الآنية. وكذلك بما يسمح لها أن تقتفي نماذج مبسّطة في التعامل مع بيئتها، بما ينذرها بأنها ستكون إما جيدة أو سيئة بالنسبة لها.

أما في الإنسان، فهناك ما يُشبه سباقَ التسلّح في إنتاج التوقعات. وهو ما شكّل ضغطاً مُستمراً علينا كي نكون «متنبئين مُبدعين». وسيحاول كل شخص أن يجري توقّعات، ضمن فضائه العقلي، بالقدر الذي يمكنه عن

المستقبل المتعلق بموضوع التنبؤ. وسيكون هذا الجهد التنبؤي منصبًّا لصالح استخدام المعرفة المتاحة له، والتي جمعها عبر خط حياته.

إننا مُلهمون بأن نقرر وفقاً للمبدأ القائل؛ «كل شيء محتمل الحدوث». لكن بالتأكيد يتحتّم علينا أن نقلّص من عدد الأشياء التي نأخذها بعين الإعتبار لأجل أن نصدر قراراً في الوقت المناسب وقبل أن يفوت الأوان وتصبح أفعالنا متأخرة. وعليه فسينخرط كلٌّ منّا في جولة من البحث التساؤلي الإستكشافي الذي لن ينتهي. وسنبني هياكل معرفية جزئية، أو ربما تكون خطرة المآلات. في فضائنا العقلي. وكلها تعتمد على القفز إلى الإستنتاجات بقدر ما تمكننا حذاقتنا ومهارتنا العقلية من فعل ذلك.

أما اختيارنا المعيّن، فإنه سيكون إلى حد ما غيرَ اعتياديٍّ ونادرًا ومعتمدًا على نوع الخبرة التي نحوزها. وكذلك معتمدًا على ما يهمّنا أكثر في تلك اللحظة؛ لحظة القرار.

وكلّما تم بناء فضاء معرفي فوق توقّع معيّن لمعلومة ما، فإنه حتماً سيكون قد مر بسهولة عبر كل الإستنتاجات التي تتوافر من معرفتنا الحاضرة. هذا ما يحدث حين نفهم مستنداً جديداً لنضمّه إلى معرفتنا؛ إننا في الحقيقة نجري له عملية تكامل مع ما يتوفر لدينا من معرفة.

أمّا النموذج الذي نطرحه، فإنّه يأخذ بالفكاهة على أنها تحفّز دائماً بواسطة استكشاف معتقد خاطئ في الفضاء المعرفي. وبالتأكيد كلّنا من المتوقّع أن نتجه نحو الاختيار الأمثل في استعمال قدراتنا الإستنتاجية، خاصة في تكوين الفضاء العقلي المصاحب لفهمنا للفكاهة.

وعليه، فإن كل توقّع لأي خطأ سيكشف شيئاً عن محدودية معرفتنا

المفيدة لتكوين المجال المختص بتلك الفكاهة. إذن سيكون واضحاً لدينا، بأنك عندما تضحك متأثراً بفكاهة تلمسّتها، فإنك بلا قصد ستكشف عن شيء يشكّل أهمّية ستراتيجة في منظومتك المعرفية (وهذا الشيء من المحتمل جداً أنك ستضعه قيد الاستعمال بلا وعي). مثال ذلك، حين تُروى نكتة تحمل معانيَ عنصرية، فإن المُستمع الذي يتلمّس فيها فكاهة أكثر من غيره، في الحقيقة فإنه يحمل مُعتقدات تتقارب مع «عنصرية «الطُرفة المروية بمستوى أكثر من أولئك الذين لم يضحكوا بشدّة اتجاه روايتها.

إذن، فالشخص الذي يتخذ موقفاً مُسبق النوايا اتجاهك، سيكون قادراً أن يخمّن ما قد أخطأت في توقّعك اتجاهه. وإلى حدٍّ ما، سيكون قادراً على تخمين ما تعرف ومستوى محتواك المعرفي.

إن المعرفة والجهل، كلاهما من الأسرار الستراتيجية ذات القيمة العالية. فلا أحد يرغب بأن يظهر بمظهر الجاهل في أمر ما. ولا أحد يرغب بأن يكشف حدود معرفته الحقيقية في أمر ما. دائماً يميل الفرد إلى رفع سقفِ معرفته التي تظهر للآخرين.

أحد مؤدي الكوميديا كان يلقي النُكات والطُرف عن المارغوانا، مثلاً. وبالتأكيد سينقسم الجمهور بحدّة على قسمين؛ القسم الأول جمهور ماكر يعلم عن استخدام الماريغوانا ويضحك. والقسم الثاني من الحضور جالسون بصمت لكنهم غير مُرتاحين. وقد تعمل الضحكات غير المكتملة أو رفعات الحواجب من بعضهم استجابة لبعض الكلمات التي يتفوّه بها الكوميديان من ذوات المعنى الثنائي، والتي ستؤشر ما نسميه «الأفكار القذرة»، في ذهنية بعض الجمهور.

وفي مواقف أكثر جدّية، ممكن لعميل من عملاء مكافحة التجسس أن يدسّ نكتة ذات مرجعيّة معيّنة، لأجل أن يستكشف الفضاء العقلي لأحدهم، خلال عملية جمع المعلومات أو المحادثات التي تبتغي جرجرة الكلام من فم المشكوك به. ثم سيراقب أيًّا من الشفاه ستبتسم استجابة لهذه النكتة.

إن مواصلة هذه المنافسة في حيازة المعلومات التي تبدو وكأنها عملية تدور في لعبة اليانصيب، ستضع مكافأة على المعلومات المكتشفة حديثاً. ولو قسّمنا مجمع المعلومات لدى فردٍ ما على قسمين؛ الأول يحتوي على آخر المعلومات المضافة في كفّة، والمعلومات المألوفة والمبتذلة والتافهة، أو التي تكون من (نافلة القول) في الكفّة الأخرى. فأيٌّ من القسمين سيكون أكثر عُرضة لارتكاب استنتاج خاطئ؟. إن الإجابة لن تكون واضحة، لكن الفكاهة ستساعدنا على استكشاف السؤال بصورة أكثر دقّة.

إن بعض أنواع الفكاهة، يبدو وكأنّه معتمد على إتكالنا بدون تفكير على بعض الأنماط من الإستنتاجات التي تبالغ عقولنا في إعتبارها قطعية ومألوفة. طبعاً هذا يجري في العادة بعيداً عن الوعي الحاضر لعقولنا. مُجرد معلومات عدَّها الدماغ مألوفة جداً فوضعها في خانة المُسلّمات. وفي الغالب ننسى ولا نعرف لماذا عددناها أصلاً من المسلّمات.

البعض الآخر من الفكاهة يبدو أنه يستند على بعض التداعيات أو الإنعكاسات التي تكون نسبيًا غير مكتشفة، وإلى بعض الإفتراضات عن المواضيع المستحدثة. وبيّنت دراسات التطوّر والنمو أن أكثر المواضيع حداثة، والفقرات الأكثر في تفوقها وسيادتها والتي جرى تثبيتها حديثاً،

هي التي تمنح مُتعة المرح أكثر من غيرها خلال عهد الطفولة. يعني، لو كان هؤلاء الأطفال عادة ما يرتكبون استنتاجات خاطئة من خلال هذه المعلومات الجديدة، فإننا يجب أن نسأل ما هو المعنى المقصود بدقّة حين نقول؛ «الفقرات الأكثر في تفوقها وسيادتها».

ذات الشيء لا ينطبق على البالغين، أو على أولئك الذين يمتلكون مدًى معلوماتيًّا مسيطرًا عليه بشدّة. وبالرغم من هذا كلّه، فإن مستوى الوصول الإدراكي إلى محتويات المعرفة قد يؤثر ويحيد الطريقة التي تتكامل بها المعلومات في الدماغ. وهي ما تستند عليه الخاصية التي سبق أن شرحناها وهي: القدرة على «نشر النشاط في الوقت المحدد/ JITSA». وهو ما يؤثر في النهاية على احتمالية المشاركة في الفكاهة.

في أوقات عدّة حين نجلس مع الأصدقاء، يبدو حالنا وكأنه لا يوجد هدف تواصلي ليهيمن على الجلسة، بحيث يدفع إلى الشروع في محادثة.

وكما نعلم جميعاً، إن الهدف الأساس ببساطة هو المتعة. وأحد أكثر أشكال المتعة المستخدمة في هكذا جلسات هي الفكاهة، إن تقضية الوقت في الجلسات مع الأصدقاء وتزيين الجلسة بإطلاق القفشات، أو بالتباهي الكلامي في إلقاء الطُرف والنّكات، ليس بالهدف الأناني الرئيس للفكاهة. لكنّه وسيلة من وسائل التجارة برأس المال الإجتماعي.

إننا نقدّر الأصدقاء الذين يمكن لهم أن يضحكونا؛ إذ إنهم يعملون بما يشبه تزويدنا بالعقاقير الترويحية لصالح عقلنا الداخلي. وهي أيضاً بمثابة حلويات المَرَح. وهذا التزويد يجري تصريفه بطريقة مفيدة وجيدة وتخدم طاقتنا الداخلية. أمّا أولئك الذين تكون مهاراتهم ضعيفة في مجال خلق

الفكاهة، فهم سيردّون لأصدقائهم بطريقة أخرى من وسائل رأس المال الإجتماعي.

إن قيمة رأس المال الإجتماعي هذا، ستكون ملموسة أكثر حين نقارنها بنظيراتها الصناعية؛ فالكوميديان المُحترف مثل الموسيقي أو ممثل أفلام التعرّي يُحلّون خبرتهم بشيء من تقديم المُتعة. وبدلاً من أن تكون مكافأتهم زيادة في رأس المال الإجتماعي، نراهم يتلقونها على شكل أجور لقاء ما يقدّمون.

10 ـ 3. فن الكوميديا.

- من هو أعظم كوميديان بولندي على قيد الحياة؟.
- أنا.
- وما هو السّر وراء نجـ. ا.
- (قاطعه الكوميديان بسرعة)
- التوقيت الصحيح!

استخدمنا في ما سبق مُصطلحات كثيرة العمومية تصف الوسيلة التي عمل بها التطوّر الثقافي على تصميم المُحفّزات الطبيعية التي تنتهي إلى الفكاهة. وهذه المحفزات ستعمل على إستثارة خط صادم أكبر مما يمكن أن نجده طبيعيًّا.

إن المحفّزات فوق الطبيعية يمكن أن تحصل عبر المصادفة، أو في مجرى بيئة حياتنا اليومية. لكن، ما لم يكن هناك ميكانيزما تدعمها (يمثّلها

في هذه الحالة التطوّر الثقافي)، وتعوّض ـ وبالتالي تستديم ـ وجود هذه المُصادفات السعيدة.

في كتابه «أسلحة، وجراثيم، وحَديد»، يطرح جاريج دياموند/ Diamond، إن الآلاف الأولى من سنوات معيشة الإنسان على الكوكب، أتم خلالها استكشاف كل النباتات والحيوانات التي هي قابلة للأكل. بما في ذلك التي تتطلبُ تحضيرات خاصة لتخليصها من السموم.

وكذلك فقد تمكّن من تدجين الأنواع المفيدة له، والتي لها قابلية على التدجين والمعيشة المشتركة مع الإنسان تحت رعايته.

كان يتوفر للإنسان الوقت الكافي والذكاء والفضول المطلوب ليتم عملية التدجين، وبطريقة يمكن لنا الآن أن نتأكد منها عبر دراسة التحليلات الجينية لهذه الحيوانات والأنواع ومقارنتها مع الأنواع الأقرب إليها.

إن هذه العملية المبنية على مبدأ المحاولة والخطأ، والباحثة عن النباتات القابلة للأكل (وربما حتى الأعشاب التي فيها منافع طبّية وما شاكل ذلك)، هذه العملية كانت تترافق أو تتوازى مع عملية أخرى يمكن تسميتها بـ«محاولة الإنسان استكشاف دستور معيشته الداخلي». وهي التي تبحث عما سيكون طعمه جيدًا وتفريقه عن كل ما كان طعمه سيِّئًا، وكذلك البحث عمّا كان طعمه «لذيذا وشهيًّا».

مثلما كانت تبحث عن الأشياء التي قد تزعج الإنسان، أو التي تجعله يشعر بالنعاس أو الحذر أو الهلوسة أو متحفزاً جنسيًّا، وغيرها من التي يصح أن نطلق عليها اليوم «أمزجة مؤقتة» ذات أساس مادّي.

إن اللجوء إلى البحث عن أفضل مصادر المتعة، أو إلى أفضل تكنيك

في إعداد الأشياء، أو تحرّي أفضل شيء في كل خبرة الإنسان، هو بحث لا يتطلّب أن يحوز معرفة تقنية في مجال الكيمياء أو التغذية. مثلما لا يحتاج إلى فهم عملية الهضم في جسمه، ولا عملية التمثيل الغذائي، ولا علم الأعصاب. لقد عبر الإنسان إلى مرحلة أن (يعرف كيف)، لا أن يكتفي بمعرفة ما هو أمامه. حدث ذلك خلال حقبة استمرّت آلاف السنين. لكن استمرارية الفرد في استكشاف أحاسيسه الذاتية، يمكن أيضاً أن تدعم التغيير المستمر في التنظيم الداخلي لهذا الفرد. كما يمكن أن تمطّ الحدود التي تحدد ما هو مقبول، وتُعلي أو تخفض حد العتبة لحصول المُتعة والسرور.

وسيتسبب هذا التحري المستمر للإنسان داخل مجموعة أحاسيسه، في الدفع بتغييرات ذات صفة دائمة في تكوينه الذاتي. وستمد حدود ما هو مقبول، وسترفع من مستوى ما نقبله على أنه متعة. النتيجة أن يؤسس لوجود اختبار ذاتي في كل بعد من الأبعاد. وسيكون الثمن جرّاء حيازة ابتكار اختبار جديد هو فقدان القدرة على الإستثارة جرّاء المتعة التي كان يتمتعها نفس الشخص مقابل نفس الفكاهة في صباه. أي، أن عقولنا حين تبتكر اختباراً جديداً لفحص المتعة الموجودة في فكاهة معيّنة، فإنها تضيف إلى معرفتنا، لكنّها في الوقت نفسه تجعلنا «نرتقي» إزاء ما كنّا نستمتع به في صِبانا أو في الماضي لأنه أصبح (أقل) من مستوى ما يثير حسّ الفكاهة فينا.

وعلى ما سبق من أسُس، افترضنا أن تطوّر الكوميديا في الثقافة الإنسانية قد اتبع هذا النمط بحذافيره. كانت الكوميديا الإبتدائية (الخام) في الطبيعة تنضوي على هفوات الفرد نفسه غير المقصودة عقليًا. وكذلك

على سقطات الآخرين. كانت تشتمل أيضاً دغدغة عظمة الفكاهة لفرد آخر بشكل خاص. «كان يتوجب عليك أن تكون هناك»/ (كما يقول القول الشائع).

لكن على أرض الواقع، نجد أن نشاط الإنسان في تسويق سردياته، هو بحدّ ذاته «عملية استكشافية»، تهدف إلى استحداث مهارات جديدة عالية. مثلما تبتغي تعويض العزلة عبر جعل التجربة الشخصية متاحة للجميع. وتبتغي عملية التسويق هذه أيضاً تحسين مستوى المحفّزات الأصلية. فالنتيجة تكون أن الإنسان لم يعد يتمتع بالفكاهة البسيطة، التي ارتقت وتطوّرت وتعقدت لتخدم سرداً متداخلاً، لكنّه أكثر حذاقة في تضمين الفكاهة.

وفي الحالات الناجحة، فإن الفن يتفوّق على ما جادت به الطبيعة. يعني (لا ينبغي عليك أن تكون هناك!). وفي الحقيقة، تكون الأقصوصة أكثر طرافة حين (يعاد) إلقاؤها، إذ ستكون أفضل من الأصل. حيث ستجري عملية تشذيب آلية لها. وستستبعد كل التفاصيل والملامح غير المحبّذة. وسيبقى فقط شعور الفكاهة النقية المستقطرة لينقل إلى الآخرين. عندها يمكن أن تحرِّرَ نفسها من الأغراض التي جرى ضبطها إبتداءً لتؤديها في العالم الحقيقي، قد تكون أكثر مصداقية أو أقل من وقائع هذا العالم، لكنها ستؤدي بالتأكيد إلى خلق قصصية عفوية تروى.

لكن، كيف يمكن لسردٍ ما أن يكون أكثر تأثيراً من رؤية الحدث نفسه في الطبيعة؟. ما هي الجوانب التي يمكن أن يحملها تصميم الفكرة أو طريقة إيصالها لتزيد من إمكانيةِ وقوّةِ إثارةٍ ما عبر المَرَح وتحفيزه؟.

فكّر في نكتة (على سبيل المثال)، واجعلها إطاراً سرديًا بواسطة كل قواعد خط السرد الجيدة. سواء الفكاهية أو غيرها. عندها سيميل السرد (أو القطعة النصّية المعنية) إلى أن تقتبس الأخلاقيات التنويرية، وستكون مثل «حكايات إيسوب/ Aesop's fables»[1]. ستكون مثل عربة توصيل صغيرة تسير على سكّة واحدة لا غير. كل عنصر سيلعب دوراً في تضبيط الدرس المستخلص، نفس الدرس لا غيره. ولن يكون هناك استطراد أو إلهاء. سيحاول السرد أن ينقل المعرفة المحتواة في الأحداث التاريخية المهمة مباشرة الى إنتباه المتلقين. وسيذهب إلى الحقائق الأساسية. لكنه سيكون معبّأً بالتفاصيل الدخيلة لكنها مريحة، والتي تكرّس الأفكار الخيالية.

إن القاصّين الجيدين يقدّرون ـ سواء عن وعي أو عن غريزة ـ أن الكاذب عادة ما يزخرف الحكاية ويجعلها أكثر انسيابية وكمالاً عبر إضافة إضافات دخيلة لا هدف لها. لكنّها تعمل على طمأنة متلقي الحكاية وإيهامه بأن القاص إنما يحكي ببراءة الأطفال وصراحتهم وبلا مكر أو خداع.

إن الطُرفة أو النكتة ضمن هذا المسرح التنافسي الذي يتنافس على جذب انتباه المتلقّين وتحقيق المتعة لهم، يمكن أن ينظر لها على أنها تجربة سايكولوجية مُصغّرة. وواحدة من الأساسيات العلمية التي تحكم إجراء التجارب، هو أن القائم على التجربة يجب أن يتوافر على معلومات وتصوّر عمّا يأمل من تأثير ستنتجه التجربة. لأنه إن لم يكن لديه مثل هذا التصوّر، فإن التجربة لا يمكن لجمها عن إخراج نتائج غير مرغوبة، وستغير من تضبيطات العملية التي هي تحت الدراسة.

---

(1) حكايات أسطورية فيها شخصيات تدعو للخير وأخرى تدعو الى الشر، وخلاصاتها فيها موعظة أخلاقية ـ المترجم.

وبعد إتمام التجربة، يمكن إيجاز «المواضيع الساذجة»، وإتاحة المجال لها لتكون ضمن النكتة والتأثير بها. وخلال سياق النكتة، فإن الإحجام عن الإدلاء بالمعلومات كاملة، إلى غاية الوصول إلى»الحد الصادم»، أو جوهر الفكاهة فيها، هو أمر يحدث للتأكد من أن جميع العناصر الفاعلة قد وصلت فعلاً إلى المتلقي ولم يبقَ سوى مفاجأته بالمعلومة الصادمة، أو العبارة الصادمة في سياق النكتة. ولن يتم الإدلاء بالحد الصادم من النكتة حتى يتم التأكد من أن كل الظروف مواتية نظريًّا لمنح المرح للمتلقي.

وعلى خط سير السرد في الطرفة أو النكتة، فإن المتلقي يمكن الحفاظ عليه ضمن حالة «الجهل باكتمال المعلومات» إلى غاية اللحظة المناسبة. طبعاً، سنجد أن راوية النكتة إن كان ضعيفاً لا يتقن الإرسال والتهيئة لها، قد يلقي بطُرْفتِه فيكتشف بعض الجمهور حبكتها مبكراً، أو أنه يلقيها بطريقة تكشف الحد الصادم للنكتة مبكراً، فيفلت منه زمام التأثير المتوقّع.

إن فن الكوميديا يعتمد بصورة كبيرة على قدرة الإيصال نفسها. والقدرة على منح المتلقّين محفزات قوية لفهم الفكاهة، ومثلما يكون المؤدي الكوميدي خاضعاً لسلطة الوقت، فعليه أن يحتفظ بالحد الصادم إلى أن يكشفه في اللحظة المناسبة، لا قبلها ولا بعدها.

ومن بين التطويرات التي أدخلها مؤدو الكوميديا على الأداء، هو أنهم صنعوا «حدّين صادمين»، وذلك عبر رواية نكات تلامس استجابةً لدى الجمهور، في تفصيل مضحك بعد آخر. فما أن يخبو الضحك نتيجة هضم الجمهور للحد الصادم الأول، يسارع الكوميديان إلى طرح تسديدة أخرى تحتوي حدًّا صادماً مثيراً للفكاهة، وقد تستمر هذه اللعبة فتكون النكتة

«متعددة الحدود الصادمة». وتحمل أكثر من مفارقة واحدة أو تناقض ستكون سبباً للضحك وإشاعة مشاعر المَرَح.

إن مؤدِّي الكوميديا يعرفون كيف يستهدفون جمهورهم عبر محتوى فكاهي يكمُن في ذاكرتهم التي يسهل الوصول إليها، حيث يكون هذا المحتوى أسرع في الإستجابة والتنشيط. ولهذا فإنّهم يضبّطون عملهم كي يناسب الحشود والجموع التي تستمع إليهم.

سيلقي الفنان الكوميدي نكتة تتعلّق بأسواق الأسهم والبورصة حينما يكون أغلب جمهوره من رجال الأعمال وأصحاب الشركات أو العاملين فيها. وستكون هناك نكات عن الزوجات حينما يكون الجمهور مكوّناً في أغلبه من أزواج صحبة زوجاتهم. وكذلك مواضيع الجنس والموت والشؤون العامة تقريباً هي تناسب الجميع. إن الأمر يتطلّب بعض البداهة لاستعمال هذه الأنواع من المحتوى الفكاهي لتحسين مستوى الفكاهة. لكن كيف يتسنى لصانعي الفكاهة هؤلاء أن يضبطوا تأثيراتهم المحسوبة والمُصممة مسبقاً؟. إنهم يفعلونها عبر عدد كبير من المحاولات والخطأ، وتدريب أنفسهم على ضبط كلماتهم والتوقيتات التي يتفوّهون عندها، وكذلك ضبطهم تعابير وجوههم. إنهم يفعلون ذلك مراراً وتكراراً، إلى أن يلاحظوا أي مجموعة من الأدوات هذه ستجلب عدداً أكبر من الضحكات. إنهم يستخدمون أنفسهم باعتبارهم أوّل سرير إختباري. ويحاولون في بادئ الأمر أن يقيسوا التأثير في الآخرين عبر الإستقراء النابع من مشاعرهم حين أحسّوا بالفكاهة وتلمسوها أوّل مرّة مع التجربة الأولى للحكاية/ النكتة التي يتدربون عليها.

وواحدة من مساوئ هذا التجريب هي الظاهرة التي وصفها كار

وغريفز/ Carr & Greaves».. وخلال بحثنا لكتابة هذا الكتاب، نكون قد بحثنا ودققنا أكثر من 20 ألف طُرفة ونكتة وحكاية فكاهية. معظمها جرى ضمن صَمتٍ منعزل. وخلال نصف الطريق إلى دراسة هذه النكات، تحوّل غريفز إلى ما يشبه المُصاب بـ «العَمى اتجاه الطرائف»، وهي» حالة مأساوية تجعل من المُصاب بها غير قادر على التمييز بين النكتة المضحكة حقاً، من تلك التي تكون فقيرة في محتواها، أو ساذجة».

لكن لماذا تكون مسألة التوقيت مهمة؟. في الحقيقة هي مهمة في بعض الأحيان. حيث نجد بعض النكات تحمل الطرافة دون أن يكون مهماً من يقولها؛ ويمكن أن نبطئ أو نسرع من وتيرة إلقائهم للنكتة، دون أن يكون هناك تأثير في محتواها.

لكن هناك نكات أخرى يبدو أنها تتطلب لمسة استاذ في التوقيت والدهاء. وعندما تعيد رواية مثل هذا النوع من النكات على أصدقائك ولم تعمل على إضحاكهم ستجد نفسك آسفاً على خوض هكذا تجربة. وعندها ستسمع أحدهم يقول؛ «حسناً، لو رأيت إيدي إزارد[1] وهو يروي هذه النكتة!، لقد جعل منها أعجوبة مثيرة».

علينا أن نسأل؛ ما الذي يمكن لكوميديان مثل إيدي إزارد أن يفعله يكون مختلفاً عنّا حين نروي نفس النكتة؟. إن المحترف في مجال الكوميديا يستخدم عدداً متنوّعاً من الأدوات الدلالية كي يسيطر على «القدرة على نشر النشاط في الوقت المحدد»، فيما يتعلّق بفرد الجمهور المُنتبه. إن اللمحة التي تحدث في وقتها الصحيح، وتعبير الإرتباك أو الاندهاش أو

(1) مؤدٍّ كوميدي إنكليزي شهير (كوميديا الستاند آب) ـ المترجم.

الشعور بالخزي، أو مجرّد كلمة منفردة، أو أي إيماءة يمكن أن تشير الى لُبّ النكتة مبكراً وقبل أن يسرد الكوميديان كل مواده، يمكن أن تغيّر انتشار النشاط الدلالي على عقل الجمهور. فالكوميديا الجيدة هي التي تستغل المعتقدات المشتركة بشأن المراوغات في الشخصية. تستغلها لأجل تعجيل تكوين الإفتراضات آليًّا لدى جمهور تلك الكوميديا. وفي مثل تلك الحالات، سيكون أمامنا فرصة ضيّقة لتكرار النكتة وبنجاح جيّد، حتى لو عززنا إعادة إلقاء النكتة باستخدام مصادرنا الخاصة.

ثم هناك عامل الوقت. وهو أهم عاملٍ يتحكّم في نوعية عملية طرح النكتة وكفاءتها. وفوق ذلك، سيؤثر عامل الوقت في مستوى التوقّع والشكل الذي ستخرج به النكتة. وهو ما يتمثل ببساطة في النموذج الذي طرحناه عن الفكاهة وسبق وصفه.

وخلال عملية «نشر النشاط في الوقت المحدد»، فإن الفرد المتلقي من الجمهور عادة ما يحتاج إلى وقت كافٍ لكي يستنتج الخطأ الموجود. وبلا توفر الوقت المناسب كي يتأكد أو يفحص وجود الخطأ؛ فإنّه سيذهب إلى تبنّي إلتزامٍ غير مناسب، أي إنه سيبني فضاءً معرفيًّا غير مناسب لاستقبال المعلومات التي يفترض الكوميديان أنها ستشكل فكاهة عند المتلقي.

لو اضطر المتلقي أن ينتظر أكثر مما يجب، أو أن التنشيط انتشر إلى مساحة عقلية أبعد مما هو مطلوب، فالنتيجة ستكون فرصة مُضافة لحصول تضارب في المعتقدات لدى المتلقي. هذه المعتقدات ستمر بشكوك أبستمولوجية لدى الجمهور متلقي الفكاهة.

وما أن يحدث هذا فإن الفكاهة ستخبو. أما ضيق الوقت فسيؤدي إلى

أن الإستنتاجات التي تقود إلى إلتزامات غير مناسبة، فإنها لن تحدث بالأساس. لأن الدماغ سيتحرك ويمضي في المعالجة إلى الخطوة التالية وسيترك محاولة إنجاز «نشر النشاط في الوقت المحدد»، المحيطة بالنكتة المحتملة. وستخبو النكتة وستتحول سريعاً إلى مشاعر الإبهام والغموض.

إن هذه الأدوات المستخدمة في ضبط التوقيت، هي بمثابة أجهزة قياسية يستعملها المختصّون في البلاغة. وكذلك تخدم عملية قيادة الجمهور إلى نهاية المطلوب، وتنشط المحتوى وتجعله قويًّا بما يكفي. وتعمل على استطالة مدّته أيضاً بما يكفي، لأجل أن يبدو مترابطاً ضمن السياق. لكن مع الأخذ بنظر الإعتبار عدم ترك المستمع أو المتلقي أن يذهب بعيداً ويمضي في سياق آخر، وبالتالي يبدأ بالتساؤل فيما إذا كان ما يسمعه صحيحاً أم لا. ووفقاً لهذا، فإن عمل الكوميديان المُحترف يتطابق مع عمل المتخصص في البلاغة اللغوية إلى حد كبير.



(11)

الحد الصادم

«وأولئك الرجال من إندوستان،

تجدهم في جدل طويل وصاخب.

كلٌّ يركب رأيه،

متسلّحاً بالقسوة والقوّة.

كل منهم كان على بعض الصواب،

وكلّهم كانوا مخطئين».

جون كودفري ساكس Saxe./ شاعر أميركي، مقتبس من «الرجل الأعمى والفيل، حكاية هندية».

الحد الصادم، هو العبارة أو الجملة الأخيرة من أحدوثة أو طُرفة ما، تحتوي خلاصة الفكاهة أو أي عنصر حاسم آخر. وقد نعبّر عنه بأنه «صُلب الموضوع»، شرط أن يُحدث التأثير المرجوَّ كاملاً حين ننتهي من قوله.

إن حكاية الرجل الأعمى والفيل عادة ما يرد ذكرها في سياق الفلسفة

والعلوم. والنظريات العديدة التي ظهرت لتفسر الفكاهة عبر السنوات، لم تكن كلّها خاطئة. إن كلًّا منهم وصف نواحيَ محددة من الفيل!. كانوا مخطئين فقط في تقديم نظرياتهم على أنها البديل عن جميع ما كتبه الآخرون.

ولو أخذنا روح الحكاية الهندية إلى القلب، سنرى إننا جميعاً في موضع الرجل الأعمى حين ننظر إلى الطبيعة. وهذا ما يفرض علينا أن نفهم، أن كل ما هو مفقود سيساعد في الحقيقة على توحيد رؤانا وأوصافنا المختلفة التي وصف بها كلٌّ منا الفيل. وبهذا، نرى أن كل منظّر عمل على موضوع الفكاهة، إنما ساهم في أن يكون (كل) التنظير في الفكاهة صحيحاً.

إن الفكاهة تتضمن فضاءً عقليًا يحتوي على؛ معتقدات خاطئة، وهياكل من المغالطات، وإنطباعاً بأن أحداً ما يقف خلف هذه الأخطاء. وسيكون الضحك نصيب من يكتشف هذه الأخطاء. وعندما يكون مكتشف الأخطاء هو نفسه صانعها، عندها نفترض أن الاستجابة العاطفية المناسبة ستأتي على شكل حزن أو فزع أو حتى على شكل شعور بالعار أو الغضب. لكن الطبيعة عملت على إمالة الميزان لصالح تمجيد الإكتشاف نفسه، كما عبّر هوبس عن ذلك، بدلاً من التعبير العابس.

إن الشخص الضاحك بسبب من طُرفة، باعتباره مكتشف الأخطاء ضمن آلية عمل الطرفة التي وصفناها للتو، سيشعر في العادة بدرجة من درجات العلوية. وهذا الشعور موجّه إلى أيٍّ كان من اقترف الخطأ. وهذا يمكن أن يكون شخصاً آخر، أو نسخة سابقة من الشخص الضاحك نفسه؛ (الذات نفسها قبل أن تكتشف حُبكة الفكاهة، أو جوهر الطرفة). وبهذا، حاز أنصار نظرية الإستعلاء شيئاً من المناصرة لأطروحتهم. ولسبب آخر أوضح، وهو أن الفكاهة عادة ما تشتمل على نوع من الحُكم على الآخرين.

إن الطُرفة التي تحتوي على (حُكم) أو تقييم للآخرين، كانت هي التي ألهمت الباحثين من أنصار النظرية الإستعلائية لتفسير الفكاهة. وهي من النوع الذي يشير إلى شخص آخر أو مجموعة أخرى من الناس، سيكونون في قعر فكاهة الطُرفة.

وفي حالة الطُرفة أو النكتة التي تتحدث عن مجهول، فيتخذ الإستعلاء فيها شكل الذات فيما قبل الطرفة، مقابل نفس الذات فيما بعد الطرفة.

ثم إن الطرفة المؤدية إلى فكاهة الإستعلاء (الفكاهة المفسّرة بنظرية الإستعلاء)، تعطينا فكرة عن المتعة المتوفرة في إحساس الفرح الخبيث. أو إهانة منافس ما، أو مجموعة أخرى غير التي تدور بينها سردية الطرفة. ويبدو أن هذه الصفات تضيف متعة إلى متعة الفكاهة المنتجة.

أما الذين نظّروا في تفسير الفكاهة وفقاً لنظرية التعارض والقرارات المتعارضة، فسيجدون حتماً ضالتهم في عمق ما نطرحه من إطار نظري لعمل الفكاهة، أو معمماً على عموم الأوصاف التي وضعنا في إطارها الفكاهة وعملها.

نجحت نظرية التعرض في القرارات أن تجذب الإهتمام نحو اكتشاف ما سبق أن سمَّيناه بـ«الإلتزام باكتشاف الأخطاء»، ضمن سياق الطرفة المؤدية للفكاهة. وهي يجب أن تأتي ضمن سياق يخلو من المفاجأة، وهذا ما قد «يفاجئ» بعض الذين تبنوا هذه النظرية.

إن المفاجأة والتفاجؤ في الفكاهة، يحدث حين يكون هناك توقّع شيء ما سيتعرّض للكسر، أن تتوقع شيئاً ثم يسقط هذا التوقع. ثم يحدث اعتراف ذاتي بأن الإلتزام المسبق بمعتقد ما تبيّن أنه واهٍ ولا ينضوي على حصافة.

يعني، أن يتبيّن شيء ما كنّا نظنّه مُثبتًا إلى درجة أنه بديهي ومعتقد به، بأنه خاطئ ويجانب الصواب. فنكتشف سوء توقّعنا.

في الحقيقة ليست المفاجأة بحد ذاتها هي من تصنع الفكاهة وتظهرها إلى الوجود، إنما الحقيقة المحتواة المكتشفة داخل هيكل الطُرفة في العادة، سيكون اكتشافها وعملية التصحيح التي تقوم بها هذه الحقيقة، هي المفاجأة. ولتوضيح هذه الجزئية نقول؛ إن كانت عملية التصحيح التي تحدث خلال سرد الطرفة عملية بطيئة، فإن تصحيح المعتقد الذي تقوم به المرحلة الوسيطة، لن يحدث. وستحدث عملية استباقية (لأن سرد النكتة بطيء وعملية تصحيح ما نعتقده، والذي سيؤدي إلى الفكاهة أيضاً يحدث ببطء)، فإن الذهنَ المتلقي للطرفة، سيقوم بعملية استباقية وهي إنه سيصحح المعتقد ذاتياً، وبالتالي عندما يأتي الدور كي «يتفاجأ» عبر تصحيح المعتقد، فإنه لن يتفاجأ.

بعد ذلك بقليل، سنكتشف (نتيجة سماعنا الطُرفة)، أن معتقدنا الذي كنّا قد خزنّاه في الذاكرة طويلة الأمد ثم استحضرناه ضمن آلية سبق شرحها وحشرناه في الذاكرة العاملة، بالحقيقة لم يعد مُلتزماً به. يحدث ذلك نتيجة المفاجأة التي واجهناها خلال سرد الطرفة. وتحديداً في مرحلة تعرّفنا على «الحد الصادم». لكن هذا كلّه لا يكفي كسبب لحدوث الفكاهة.

إننا نعدُّ هذا غير كافٍ لحدوث الفكاهة، لأنه لن يكون هناك اكتشاف لحظي. وحتى الذين نظّروا في نظرية الإصدار، أو نظرية التناقض، يمكن لهم أن يجدوا بعضاً من ضالّتهم في هذا الإطار النظري المشروح. لكن عدداً كبيراً من المنظّرين يتفق، ونحن معهم، أن لُبّ الفكاهة هو المشاعر الإيجابية التي ترافق عملية التصحيح حين يفهم المتلقي حُبكة الفكاهة.

وللتذكير، فإن التصحيح المعني هنا هو تصحيح ما كنّا نظنه، ثم تأتي سردية النكتة لتغيّره وتصححه ضمن إطار السخرية، فيؤدي إلى حدوث الفكاهة.

وحين تحدث عملية لا يقين، أو إرباك في مقدمات وظروف ما قبل الفكاهة، فعلى الأغلب يأتي الكشف اللاحق ضمن الحبكة ليمنح نوعاً من الإرتياح. بل إنه يمنح شعوراً قد جرى استخدامه كعلاج عبر العصور من قبل بعض الباحثين الذين اقترحوه. واعترف لهذا الإرتياح بهذه الخاصية العلاجية وبطريقة ما جرى التعامل معه كما التعامل مع بعض الأعشاب العلاجية، أو كأنه شكل من أشكال الطقوس العلاجية.

قد يكون الموسيقيون ومقدمو الكوميديا وصانعو الحلوى وعارضو العروض المتعرّية والأطباء السَحرة (الشامان)، هم على رأس أصحاب المهن الذين اكتشفوا بطريقة المحاولة والخطأ كيفية إستغلال الإنحياز في نظامنا العصبي. وبالتالي دفعه إلى تأدية ما نرغب به بشدّة عبر مؤثراتهم وعروضهم.

كان هناك ثلاثة يحاولون عبور الشارع، دجاجة، وحيوان الغرير، وكركدن باتجاه المكتبة. وفجأة تذكّرت الدجاجة أنها نسيت كارت عضويتها في المكتبة، فاستدارت عائدة لتعبر الشارع رجوعاً.

الكركدن، سأل الغرير: لماذا عادت الدجاجة وعبرت الشارع رجوعاً؟.

فأجاب الغرير: إنها...

في الطرفة أعلاه، حاولنا أن نجمع في النهاية ختامَ الحدث المحوري. والذي يتضمن السخرية والفكاهة والسبب في نشوئها. لكن هذا كل ما لدينا. فما هو الشيء المفقود؟. إنه «الحد الصادم». إنه العبارة أو الجملة النهائية التي تمنح الطرفة قيمتها وتجعلها تنتقل من مشروع طُرفة إلى طُرفة فاعلة ومؤثرة وتحرّك تناقضات الفكاهة، بصرف النظر عن تعريفنا للآليات التي تنتج بها. إنه الجوهر الذي يجعل الطرفة باعثة للفكاهة، وهو من سيتولى مسؤولية إضحاك الجمهور/ الفرد المتلقي.

وكل الطُرَف من نوع «الطرقة ـ الطرقة»[1]، تحتوي على عبارة ختامية أو جملة نستطيع أن نعدّها هي «الحدّ الصادم».

ويرى البعض أن هذا النوع من الطرف قد تطوّر مع ظهور نمطية «النداء والجواب»، في العصور الوسطى أو قبلها. حيث كان القادم في الظلام يواجه سؤالاً عليه أن يجيبه حتى يميزه الحرّاس عن الغرباء. هذه النمطية في النداء والإجابة، انتقلت إلى ساحة الفكاهة وانطبعت على شكل الطرفة الملقاة لتأخذ هيكلها اللغوي، لكن مع تغيير يؤدي بالعبارتين إلى عقدة التناقض. ويظهر جليًا في النهاية الحد الصادم الذي سيصنع الفرق الفكاهي، وسيولّد المفاجأة. فيما يرى آخرون أن آثار هذا النوع من الطرفات ممكن تلمّسه في أعمال وليام شكسبير، وتحديداً في مسرحية «هاملت». حيث تظهر شخصية طريفة تلقي خطاباً طويلاً، وفي النهاية تواجه أسئلة من النوع الحاوي على «الحد الصادم».

---

(1) الطرف والنكات من هذا النوع شائعة جداً في معظم اللغات والثقافات. وتتطلب وجود سؤال/ طرقة، ويقابله جواب/ طرقة، أخرى ـ المترجم.

11 ـ 1. الإجابة تتوفر للأسئلة العشرين.

صار لدينا معرفة بالأسباب التي دعت المنظّرين إلى تدوين وتسبيب نظرياتهم المختلفة. ولقد أعدنا كل نظرية تفسّر الفكاهة إلى أسباب نشوئها. وكل منها قد أصاب قضيةً في العمق تتعلق بالفكاهة. وكل نظرية أشارت إلى شق من الفكاهة وتعرّضت إلى الطريقة التي تعمل بها.

وبعد أن طرحنا نموذجنا، صار مستحقاً الآن أن نعيد طرح الأسئلة التي تعاملنا معها على أنها ملامح الفكاهة ومحدداتها. ورغم أن بعض الإجابات ستبدو وكأنها مكررة، إلّا أن من الأهمية أن نعيد فحص قائمتنا للتأكد من توفر الإجابة عليها كلّها:

1 ـ هل إن الفكاهة هي نوع من أنواع التكيّف؟.

إن الفكاهة هي مكوّن من مكونات الميكانيزما العاطفية التي نمتلكها. هدف هذه الميكانيزما هو أن تشجّع العملية التي من خلالها نتمكن من إظهار محافظتنا على تكامل قواعد بياناتنا المعرفية. هذه العملية تشدد علينا أيضاً أن لا نقع في الأخطاء، وأن لا نتبنى إستدلالات مضللة. ومن دون امتلاك سمةٍ مثل هذه، فإن معرفتنا ستتعقد إلى درجة أنها قد تعجّل باحتمالية موتنا القريب. وقد أشار كل من توبي وكوزمديز/ Tooby and Cosmides، إلى أن التفسير التطوّري المقبول لانخراط البشر في الأنشطة الجمالية، مثل صناعة السرد والإنخراط فيه، قد ينقسم على قسمين؛ الأول (والذي حظي بتأييدهما)، أن هذه الأنشطة تخدم نوعاً من أغراض التكيّف يصعب تحديدها. أما الثاني فهو تفسير محتمل يذهب إلى أن هذا السلوك هو ناتج عرضي صُدفي، لا يحمل صفات معرقلة أو هدّامة. ناتج عرضي لوظائف تطوّرية أخرى.

وابتداءً فإننا نتفق معهما في تصنيف الفن عموماً ضمن الصنف الأول؛ فهذه الأشياء تنفع في «تنظيم الدماغ من الناحية العملية والمعلوماتية». أما بناء الفضاء العقلي وتنظيم قاعدة البيانات واكساب الدماغ القدرة على التلاعب بواسطتها، فهو ما سيسمح بتوفير معرفة يمكن الوصول لها، ويمكن (الإعتماد) عليها قبل ذلك. أكثر من ذلك، فإننا نذهب إلى أن إدارة هذه السلوكيات المتعقلة بـ (الجماليات) العقلية يجري إنجازها عبر مجموعة أخرى من السمات وهي؛ المشاعر المعرفية.

إن ما نتبناه من إطار نظري للفكاهة، يجسّر ما بين مسارَي الإحتمالين اللذين تؤدي إليهما نظرية توبي وكوزمديز ضمن تفسيرهما للتطوّر الذي عاشته الفكاهة. وكذلك فإن إطارنا النظري مبني أيضاً على وجود غرض تطوّري يقف وراء ظهور «المَرَح»، والمشاعر المعرفية. والهدف هو تشجيع نوع معيّن من المشاعر المعرفية. وهذا ما يجمعها في خانة تصنيف الفن التي طرحها توبي وكوزمديز.

وتبقى الوظيفة الأساس للفكاهة تنحسر وتتوارى إلى الخلف عندما نأخذ بالحسبان عدداً لا يحصى من الساعات التي يصرفها الإنسان في استهلاك الطرافة اليوم. الـ«ميمات» المألوفة[1]، وبعضها تم تصميمه بعيداً عن الأغراض التجارية، بالإضافة إلى بدائلها الثقافية المشتقة، والتي قد يسميها البعض «نكات وطرافة شعبية». والكثير من المنتجات المعاد تهيئتها لكوميديانات معروفين، وباقي منتجات الذكاء الصناعي،

(1) يشير المؤلفون إلى الإستخدام الواسع للفكاهة في مجال تبادل الرسائل عبر الموبايل، أو التعبير بمختلف الأشكال في وسائل التواصل الإجتماعي واقتطاع المشاهد من أشهر أعمال الكوميديانات وإعادة إرسالها ـ المترجم.

كلّها استولت حقيقة على آلية «عظمة الطرافة»، واستغلّتها لمصلحة تكاثرها الخاص.

2 ـ من أين أتت الفكاهة؟.

إن أبسط الكائنات التي بإمكانها أن تتعلم أي شيء. (الكائنات «السكنارية/ Skinnerian [1]»، في مقابل الكائنات «الداروينية»). إن هذه الكائنات لديها ميل فطري ضمن جهازها العصبي يدفعها نحو «مكافأة» أو إسناد أي دائرة فيها شيءٌ من الإنتظام ضمن بيئتها. وأن تفعّل إستجابة مناسبة نحوها ساعية بذلك نحو تحصيل الأحسن وتفادي الأسوأ.

إن مثل هذه الكائنات بإمكانها أن تكتسب عادات مفيدة على مرّ خط حياتها. لكن هذا في الحقيقة لا يعبر بالضبط عن (خياراتها) في الحياة. لأنها لا تمتلك فضاءً عقليًا تجري فيه عملية الأخذ بنظر الإعتبار من جانبها. إنها فقط تذهب إلى تطبيقها متى ما تطلّب الأمر.

أما الأدمغة الأكثر تطوّراً، فقد كوّنت شيئاً يشبه (النموذج العقلي). وهو هيكل يمكن له أن يخزن المعلومات بشأن العالم المحيط، ثم يستدعيها متى ما دعت الحاجة. وهنا في هذه المرحلة تجري العملية الأكثر بساطة لاختبار مدى تكامل المعلومات المتراكمة بحوزة هذا الدماغ. وإذا حدث وأن أضيفت معلومات تناقض ما مخزون بالأصل، فعليه أن يعطي شيئاً للإشارة والتنبيه. ثم إن عليه أن يقرر أي معلومة سيستبقيها وأيها سيُمحى، وهذه العملية بالتأكيد غير معصومة عن ارتكاب الخطأ في الاختيار.

---

(1) يقصد بها الكائنات التي تتعلم السلوك في قفص سكينرSkinner/ ، للتجارب السلوكية. وهو قفص يجري فيه تدريب حيوان الإختبار على إستجابة معيّنة، وبالتالي تنعكس على سلوكه ضمن دراسة سلوكية تربط بين الدافع والأداء ـ المترجم.

وبسبب من التطوّر، فقد ظهر لاحقاً الدماغ الذي بإمكانه أن يستبقي فضاءات معرفية متعددة بدلاً من الفضاء الواحد، فيخزن المعلومة ونقيضها. وهو ما فتح الباب أمام ولادة نوع يستمتع بالسرد القصصي والافتراضات المنافية للواقع. وهو بالضبط ما طرحه كل من فاكونير وتورنر، وسمَّياه بـ «نظرية العقل». مثلما كان قادراً على حل المسائل بطريقة خلّاقة. وإيجاد عقدة النماذج الأكثر تعقيداً ورقيًّا من الفكاهة.

إن الضحك، في حقيقته هو الإستجابة الأكثر صمتاً للفكاهة. وقد يشترك فيه أسلافنا مع باقي الرئيسيات التي كانت تمارس لعبة الضرب والاحتفاء، أو التمتع بلعب لعبة الإنذار الخاطئ، كأن يصيح الشمبانزي صيحة التنبيه من الخطر لكنه يقصد اللهو والتمتع بمنظر باقي أفراد القطيع وهم يرتبكون، وقد تمارس بعض اللهو.

لكن الإنسان، قد يكون هو الكائن الوحيد الذي يستطيع دماغه أن يخلق فضاءً عقليًّا لسياق حدثي أو لفظي آخر، غير ما يحدث في اللحظة له. إن قدرتنا على إبقاء سيناريو السرد ضمن فضاءات عقلية متعددة، أعطتنا فرصة أكبر لممارسة الفكاهة وصناعتها.

وحتى لو كان للقردة ميكانيزما عقلية تشبه ميكانيزما الفكاهة، فإنهم من جانب آخر لم يتوفروا على ما ييسر تواصلهم ومشاركتهم بعضهم الاكتشافات، فليس لديهم اللغة القادرة على نقل الخبرة ونقيضها في آن واحد. وبالتالي، لن يكون لديهم أي تمرين على عملية التعامل مع المعلومة والبحث عن التناقض فيها. ولهذا، بقوا كل هذه السنوات التي مرّت في التطوّر على جنسهم وهم يمارسون اللعب الإبتدائي واللهو، ولم ترتقِ هذه الممارسة إلى أن تكون فكاهة حقيقية ومعقدة.

3 ـ لماذا نتبادل الفكاهة ونتناقلها؟.

إن تداول الفكاهة والتواصل بوسائلها، كان قد بدأ كوسيلة لتنبيه نظرائنا من نفس النوع، أن يعرفوا بأننا (نصف جادين) حين نلهو معهم ونفتعل العدوان الكاذب. والتأثير سيكون بأن هذا السلوك لن يتفاقم لاحقاً ليكون عدواناً حقيقيًا. والضحك كان مادة للمشاركة والإستعمال في مناسبات إجتماعية أكثر تعقيداً. وكان نافعاً بصورة خاصة في عملية جذب الشركاء والإستعراض أمامهم وإظهار الذكاء. مثلما هو نافع في تداول رأس المال الإجتماعي بطرق عدّة.

إن رواية المواد الفكاهية، وإعادة سرد الطرائف شكّلت حقلاً متطوّراً للتواصل الفكاهي. ومن وجهة نظر ثقافية ليس هناك داعٍ أن تتوفر أجسامنا على جين مختص بالكوميديا، إذ أن الدوافع لاستغلال هذا الاستعداد شبه الطوعي للتواصل الفكاهي كانت دائماً متوفرة.

وخلال عملية رواية نكتة أو طرفة ما، فإننا نظهر للآخر تقديرنا اللحظي لأهمية الفكاهة. ونعتقد بأن المستمع سيشاركنا هذا التقدير من جانبه. وذهبت بعض الأبحاث إلى أن إخبار شخص ما بنكتة هي عملية تساوي إلى حد كبير عملية «التباهي» أمامه بميزة إجتماعية ما. لقد تطوّرت الفكاهة لتكون وسطاً لاستعراض الذكاء والمعرفة المشتركة والآراء.

ويمكن للطرائف وباقي أنواع النكات ومواد الفكاهة بعمومها أن تحمل تصميماً عالي الجودة، بحيث يجعلها تتضمن معلوماتٍ وآراءً ثقافية غاية في العمق، وفي نفس الوقت تحافظ على هويتها وتعريفها على أنها طُرفة وهي تسير على هذا الطريق السريع جداً، والخطِر جداً.

ومثلما يحدث في الانترنيت مع الرسائل غير المرغوبة/ Spam، فإن الفكاهة المقززة، أو الغبية من غير المحتمل أن تجد لها شريكاً في المناقلة. لكنها قد تجد وسطاً تزدهر فيه حسب الميول الثقافية أو تغير الأغراض. ومثل هذه البدائل الثقافية الخادعة قد تفتعل سباق تسلّح خاصًا بها. يحدث ذلك بطريقة تتخذ من الأنظمة البيئية الصاعدة ساحة لهذا الصراع.

4 ـ لماذا نشعر بالمتعة في الفكاهة؟.

إن الشعور بمتعة المَرَح، هو مكافأة عاطفية نظير النجاح في مهمة اختبار تكامل قواعد البيانات في العقل. العقل الذي اختبر الطرفة وتلمّس الفكاهة فيها. هذا الأمر قد جرى تصميمه من قبل التطوّر لأجل أن يدفعنا نحو المثابرة في هذا السلوك المعرفي تحديداً في المستقبل. بعبارة أخرى، بعد أن تبينت منافع الفكاهة وآلياتها في اختبار وفحص قواعد البيانات الخاصة بنا ونجحت في إثبات أنها نافعة، يأتي (المَرَح) ليكون جائزة هذا السلوك. وليغرينا بأن نكرره مستقبلاً.

إن الشخص الذي يروي طرفة ما، بين جمع من الأشخاص، ولاقت الطرفة نجاحاً في الرواية وفي العوائد المعنوية وجعلت رأس المال الإجتماعي للراوي ينمو، فإن المَرَح التالي بعد سردها سيكون دافعاً حقيقيًا لهذا الشخص أن يعيد التجربة مع مجموعة أخرى من الأشخاص، سواء برواية نفس الطرفة أو غيرها. الأمر متروك لمدى تقديره الواعي لردود الأفعال. وعلى هذا، فإن المَرَح متعلق بمُتعة الإكتشاف، وعادة ما تصاحبه هذه المتعة. لكنَّ هناك فرقًا بين المَرَح ومتعة الإكتشاف، إذ أن كلًّا منهما سيكون مكافأة لسلوك إدراكي مختلف. إن وجهة النظر هذه تجذب انتباهنا إلى رابط صادم وغير متوقع؛ إن عشقنا المبتهج للفكاهة، وولاءنا

الجاد للقوانين التي تعارض التناقض، لهما أسلاف مشتركة نتلمسها في تطوّر نظامنا الفعّال للسيطرة على (ماكنة البحث ضمن تأثير ضغط الوقت الخاصة بنا) ونعني بها دماغنا.

5 ـ لماذا نشعر بالمفاجأة في الفكاهة؟.

إن وجود المعتقدات المُلتزم بها من قبل دماغنا في الفضاء العقلي، قد يكون لا معنى له لولا وجود المفاجأة في إطار الفكاهة، ولأجل حدوثها يتوجب أن يكون هناك عنصر المفاجأة، حتى لو كان على المستوى المتوسط. وفي معظم الأحيان تكون هناك مفاجأة للشخص الثالث أيضاً، أي الشخص الذي تتحدث عنه الفكاهة.

6 ـ لماذا نجد أن الحكم النهائي، هو مكوّن شائع في محتوى المحفّز للفكاهة.

عندما يكون الفضاء العقلي غير مناسب أو بلا مفعول، سيكون هناك عنصر موضوعي عن طبيعة الصواب أو طبيعة الخطأ سيجري طرحه من قبل المنطق المستخدم. فبعد كل شيء، هناك خطأ قد ارتكب وما زال غير مكتشف. وعلى هذا فإن كل أنواع الفكاهة هي في الحقيقة تتضمن (حكماً) من نوع ما. وحين يجري استغلال الفكاهة لأغراض إجتماعية تنافسية، سنكتشف عندها أنها تحتوي على نوع آخر من إطلاق الأحكام، وهي التي تشخّص (وفق وجهة نظر الفكاهة) الطرف البغيض السيِّئ في مقابل الطرف الجيد النبيل.

7 ـ لماذا يجري استخدام الفكاهة عادة في إطار التحقير والإستخفاف؟.

إن الشتيمة، والإهانة، والسخرية، هي كلها تأتي ضمن الترسانة المجرّبة

التي يستخدمها الإنسان عادة في الحالات التنافسية. وتأتي عملية الحط من قدر شخص ما عبر السخرية، يتضمن وضعه في منزلة معرفية أدنى. وهو ما يجعل (الساخر)، والجمهور المتفرّج المستمع في منزلة إستعلائية أعلى من المسخور منه. إن هذا الإستخدام للفكاهة هو أمر شائع في المجتمع الحديث، لكن ليس باستطاعتنا القول بأن الغرض من الفكاهة هو استخدامها في توجيه الشتيمة أو الإهانة، ولا هو حتى غرض ثانوي. لكنه يظهر البراعة الثقافية في الإستغلال لإفراز الحلفاء أو الأعداء المحتملين.

8 ـ لماذا تشير الفكاهة بالعادة إلى مواطن الخلل والضعف؟.

لأن هذا هو بالضبط جوهر ما تفعله الفكاهة. إنها تؤشر الأخطاء ومواطن الفشل ضمن نموذج عقلي. إنها كذلك تقدم نوعاً من الإنصاف لهذه الأخطاء، لكن هذا مجرّد تأثير جانبي شائع. إن هذا التشخيص لمواطن الفشل هو جزء أساس من هويّة الفكاهة وعملها.

9 ـ لماذا، نتحصل في الفكاهة دائماً على مشاعر السخافة والحماقة؟.

إن تلمس مشاعر السخافة، أو اللامنطقية يأتي من التناقض المعروض. هذا التناقض سيطبع بطابعه أي استنتاج قد يجري حسابه ويطرح في الفضاء العقلي.

10 ـ إذا كان التناقض يتسبب بالفكاهة، فكيف يفعلها عمليًّا؟.

إنه ليس التعارض أو قلّة اللياقة في المحفّز هو من يسبب الفكاهة، لكنه بالصدفة يلعب دوراً في اكتشاف الأخطاء في الفضاء العقلي، أو في قيامة هيكليته على أسس مغلوطة. إن دورة عمل الفكاهة تتضمن المحفّز، وبناء الفضاء العقلي، ثم توفر اشتراطات التناقض. وهنا تحدث عملية تتعلق

بالسرعة ما بين المقارنة والفحص للمعلومات، وبين استجابة الذاكرة العاملة كي تستل من الذاكرة طويلة الأمد صفحة المعلومات الخاصة بهذا التناقض المعروف. التعارض ينشأ بين خط السرد الأساسي، وما سيحدث لاحقاً على خط الأحداث. ويحدث القرار في الذهن حين يبدأ العقل في تكوين فكرة، متبعاً قاعدة منطقية مشذبة ومتوافقة. ويبدأ بأن يأخذ زمام فهم الفعل من خط سير الحدث اللاحق، إلّا أنه حين يبدأ باكتشاف ما يحدث حقيقة، سيجد نفسه يضحك ويصاب بالفكاهة. الفكاهة المتأتية من التعارض غير المتوقع والذي يخالف من منظومة المنطق التي شرع منها.

11 ـ لماذا نضحك كليّة على الفكاهة الإنسانية؟، أو تلك المتعلّقة بالإنسان والمتضمنة نواحي أنثروبولوجية خاصة به؟.

إن العقل هو الحيز الوحيد الذي يمكن أن يؤثث بمستلزمات فهم الفكاهة الضرورية للفهم. فإما ستضحك من أجل شيء في عقلك أنت، أو إنك ستضحك من شيء له عقل، أو من الأشياء التي سنفترض بخلاف الحقيقة أن لديها عقلًا تفكر فيه. مثال ذلك الطُرف والنكات التي تروي حواراً بين الحيوانات، أو أن الأشياء المادية تنطق خلال سرد الطُرفة أو إنها تتخذ موقفًا ما.

12 ـ ما نسبة الصحة في أطروحة بيرغسون وميكانيكيته السلوكية المؤدية إلى الفكاهة؟.

إن»السلوك الميكانيكي»، كما فسّره بيرغسون، يحدث حين يتصرّف شخص ما بفعل تكراري بناءً على افتراضات غير حقيقية. وهذه الإفتراضات لن تكون حقيقية في كل الظروف.

عند هذه الحالة، فإن الشخص سيكون لديه فضاء عقلي خاطئ، فضلاً

عن وجود عادة متلازمة مرتبطة بوجود فضاء عقلي مغلوط المفاهيم يجري استيلاده مرّة بعد أخرى بلا مراجعة. إن الغلطة الكبرى هنا هي الفشل في تمييز أن هذا العقل متمسك بصناعة فاشلة. إن هذا النمط من الفكاهة المتكررة تستغل قدرتنا على (قراءة ما وراء التفاصيل)، وبالتالي يعطّل قدرتنا على رؤية الأنماط في ما يقدّمه الآخرون. ولن يكون هناك قدرة على تمييز ما يقدمونه رغم كونه أقل من المستوى المطلوب. إن قدرة العقل البشري على إنتاج فضاءات عقلية (أعلى) في مستواها مما يُقدم من فكاهة، وبالتالي ظهور فكاهة (أرقى) في محتواها، هي قدرة مدهشة، لكنها تبقى قدرة محدودة. وأي فشل مستمر سنكتشفه بواسطة هذه الميكانيكية سيؤثر فينا، وسنتعامل معه على أنه «سلوك ميكانيكي».

13 ـ لماذا يمكن استخدام الفكاهة كوسيلة من وسائل التصحيح الإجتماعي؟.

إن الفكاهة تعمل كأداة تصحيح إجتماعية، لأنها تكتشف الأخطاء، وفي بعض الأحيان تعلنها علانية وتفهم الجمهور بها. ولأجل أن نتفادى هذه العلانية، سنتوجه إلى أن نتفادى هذه الأخطاء قبل حدوثها. وعليه فإن الفكاهة تساعد على أن نعيد النظر في سلوكنا بطريقة ملطّفة.

14 ـ ماهي أوجه التشابه التي تجمع محفزات الفكاهة على تنوّعها؟.

هذا الأمر يجب أن يكون واضحاً عند هذا الحد من الكتاب؛ إن كل محفّزات الفكاهة تساهم في بناء الفضاء العقلي. وهي تساهم أيضاً في احتواء المعتقدات التي تجاوزت مسألة الإعتقاد بها من قبل الدماغ. أي إن كل محفّزات الفكاهة ستسهم في لملمة ما أفلت من الإعتقاد وتعيده إلى الشبكة من أجل إطلاق فكاهتها وهي تضمن أن المعتقد الذي يخدمها سيكون متوافراً.

15 ـ كيف يرتبط العبث بالفكاهة؟.

بينما تتوفر لأنواع العبث واللهو أغراضها الخاصة، نجد أن بعض اللهو مثل الدغدغة والألعاب الأخرى (بشكل لافت لعبة المطاردة) نجدها تنضوي على توقّعات جرى كسرها واكتشاف خطئها، مثلما تشتمل على نماذج تحدث فيها انعكاسة فجائية.

ورغم ذلك فإنها لا تحتاج إلى أن يكرس العقل نشاطه كاملاً لها. وكذلك من المحتمل أن تكون الألعاب واللهو الإجتماعي هي الأصل لنشوء عملية الضحك، ومن ثم تطوّر طبيعيًّا ليصبح تعبيراً يُستدل به على الفكاهة.

16 ـ ما العلاقة بين حل المشكلات، والاكتشاف، وإيجاد الأجوبة والفكاهة؟.

إن أوجه التشابه التي رصدها ديكون/ Deacon، وكويستلر/ Koestler، وآخرون، بين التعبير الذي نشير إليه بالضحكات «هاهاهاها»، أو التعبير الذي نشير إليه بالصوت «آها!»، تتأتى أولاً من حالة حدوثهما بالتزامن. وتشابه ميكانيكية حل المسائل في كليهما. إن حالة تسهيل الحل لوجود فجوة معرفية أو (لغز) في العقل، من قبل الفكاهة ليست حالة غير شائعة. عادة ما تعمل الفكاهة على تخليصه من هذا النوع من الحيرة. هذه العملية تتضمن التسبب بالمشاعر المصاحبة لحالة الاستكشاف.

إن عملية حل المسائل ستؤدي إلى إضافة قطع ملغّزة أو أحجية الصور المتفرقة، قد تساهم في عملية حل المسألة. لكنها في الوقت نفسه تضيف معلومات تحمل التناقض مرّة أخرى إلى العقل. وهو ما سيساعد لاحقاً على إيجاد الأخطاء ـ أي ما سبق أن وضع في غير مكانه ـ وبهذا يحدث المرح.

17 ـ لماذا نرغب في الفكاهة بشدّة وبقوة؟.

إن لدينا شهيّة قوة نحو استهلاك الفكاهة. لأن العوائد العاطفية للفكاهة كانت قد صممت كي تعزز من عاداتنا التي تعيننا على اكتشاف الأخطاء. وهي تبحث عن الأخطاء التي دُسّت خلسة في الفضاء العقلي. لم يكن لدى التطوّر أي فكرة بأننا سنحوّل هذه الوسيلة والرغبة إلى إدمان على الكوميديا التي ستدر مليارات الدولارات عبر المواد التي تعرض في التلفزيون والمسارح وعلى الشبكة المعلوماتية وعبر أي وسيلة أخرى. إن السُّكر يُشعرنا بطعم لذيذ، بينما تشعرنا الفكاهة الجيدة بمشاعر لذيذة.

إننا نتعامل مع آثار متداولة للفكاهة مثل الطُّرَف والنكات والأفلام وغيرها. والتي تستثمر في الحقيقة من كوننا نستخلص النكتة والفكاهة من عملية التصحيح. ثم نعود لنستعملها لانتاج «الحشرات/ كناية عن الأخطاء التي تبدو كالشوائب»، في فضائنا العقلي. ثم نعود إلى عملية تصحيح/ تنقية من هذه الأخطاء، فيما يشبه عملية استمناء عقلية. لكن الجائزة لن تكون في الوصول إلى الذروة الجنسية، إنما ستكون عبر حيازة المَرَح.

18 ـ ما هي الملامح المتميزة التي نجدها عادة في الفكاهة؟.

إن النماذج العقلية التي يمكن للفرد أن ينتجها في ذهنه، مرتبطة مباشرة بالمحتوى المعرفي الذي يتوفر عليه. وأي فكاهة تنتج في عقل شخص ما، ستكون خاضعة لمحددات المعرفة المتوفرة في ذلك العقل. إن الفكاهة لا تعتمد على الحقيقة الفعلية؛ إنما تعتمد على التماسك والتناسق في كيانها. وبعض الفضاءات العقلية تكون فضاءات سردية مناسبة بشكل كبير، أي تميل إلى نسج القصص، ومع ذلك فهي تبقى على مشتركاتها في الفرضيات الأساسية مع الآخرين. فالساحرات يركبن المكانس، وليس

مضرب الهوكي. والتنين ينفث النار وليس نُتف الثلج. لهذا كله، يمكن أن يضحك شخص ما لأجل شيء ليس طريفاً من وجهة نظر العموم. فقط إن كان هذا الشيء قد حقق التناسق والتماسك بطريقة ما مع بعض أجزاء تمثيلات المعرفة لدى ذلك الشخص لوحده.

19 ـ ما هو الشيء العمومي في الفكاهة؟.

هناك العديد من الأشياء تعد شائعة وملامح مشتركة في كل أنواع الفكاهة، بما أننا نعيش في نفس العالم مع الآخرين. ومن المحتمل إلى حد كبير أن تكون لدينا هياكل معرفية متشابهة، وهي ما تؤدي إلى بناء فضاءات معرفية متشابهة حين تستخدم. إذن، لن يكون مفاجئاً أن نكون جميعاً نجد الأشياء نفسها مليئة بالمرح، وكذلك جميعنا لن نستشعر المَرَح والفكاهة في مواقف أو أشياء معيّنة. إننا اتفقنا على هذا عبر ثقافة متقاربة ولها ذات الوسائل المعرفية والتميزية.

20 ـ لماذا نتلمس فوارق جندرية في الفكاهة؟.

إن تقديرات الذكاء حتماً ستلعب دوراً في عملية الاختيار الجنسي. وبما أن استخدام الفكاهة تزايد على مر العصور في استخدامها ضمن غرض التنافس الجنسي، إذن سنجد أن الجندرية تقسّم سِمات الفكاهة وتفرّقها أكثر فأكثر.

لكن هذا الإنقسام أو التفريق في سِمات الفكاهة، في الحقيقة يأتي أكثره من التأثيرات الإجتماعية أكثر مما يأتي من الفوارق الفطرية. وهذه يمكن اعتبارها مكانيكية تصحيحية تخدم أغراضاً معرفية أبستمولوجية وستكون متاحة للاستخدام أمام الجنسين.

أظهرت بحوث بروفاين وقواعد بياناته التجريبية، أن الذكور ينحازون

أكثر إلى التنافس بعدوانية أكبر من الإناث ضمن إطار الفكاهة واستخدام السخرية في الطرافة. وأن الإناث يتنافسن بينهن أيّهن تبدي تذوّقاً أعلى للفكاهة العميقة والراقية. لكن، ما لم يكن هذا الدليل إثباتاً على أن الذكور لديهم قدرة وسِعة أكبر للفكاهة مما لدى النساء، فما هو المسبب المسؤول عن هذا الفرق؟.

11 ـ 2. هل يمكن لنا أن نصنع روبوتاً يتمتع بحس الفكاهة؟.

بالأمس تمكّن حاسوب صديقي من هزيمتي في لعبة الشطرنج، طبعاً هو لم يتمكن من مواجهتي في لعبة (الكيك ـ بوكسنغ)، ولم يصمد أمامي سوى ثوانٍ!.

يقول مينسكي: «إن السؤال الحقيقي ليس إن كانت الحواسيب الذكية ستمتلك مشاعر وعواطف، وإنما السؤال هو كيف تسنّى لهذه الحواسيب الذكية أن تكون ذكية بلا مشاعر».

إن واحدة من طرق اختبار نظرية ما، هو أن نبني تجسيداً لما تطرحه، ثم نقارن إن كان سيطابق ما سبق التنظير له وتم وصفه نظريًا،وهل إن النموذج سيعمل حسب ما وصفت النظرية؟.

إننا لا نستطيع أن نضبط شفرة ما ثم نضعها في الروبوت بهذه البساطة ليتمتع بحس الفكاهة، هذا غير متاح وغير ممكن. لكن بدلاً من ذلك، قد نستطيع أن نستعرض مواطن الضعف والقوة في مخططنا النظري كي نوسع المجال أمام ظهور روبوت يتمتع بحس الفكاهة، عبر الأخذ بالتفاصيل بعين الإعتبار.

لنفترض أننا وضعنا أمام أنفسنا مهمة إنتاج روبوت يمكن له أن يقابل الفكاهة بضحكة حقيقية، فضلاً عن قدرته على طرح الطُرف والنكات. (قد نستطيع إنتاج روبوت يستجيب للضحك الإجتماعي الدوشيني، لكننا نعني هنا بالتحديد إنتاج روبوت قادر على إتيان المتعة الحقيقية في الفكاهة، وبالتالي سيقدم ويتلمس المرح).

سيكون واحداً من الحلول غير المرضية والمتسرعة هو أن ننتج روبوتاً مزوَّداً بآلة حاسبة تعمل وفق خوارزمية، يمكنها أن تتحسس المعطيات الدلالية والنحوية كوسيلة للإدخال. وبواسطة هذه الوسيلة، يمكنها (مع رُقعة احتمالية عالية)، أن تتحسس فيما لو كانت هذه النكتة مُضحكة أو أن تحكم على الفكاهة وفقاً للافتراضات المسبقة المزوّدة من قبل الخوارزمية.

يعني، بعبارة أخرى أن نزوّد (عقل) الروبوت بكمية هائلة من الاحتمالات اللغوية التي على أساسها يمكن له أن يحكم على مدى (فكاهية) ما يقول وما يطرح من طُرف ونكات.

إن صناعة مثل هذا الروبوت، قد (تبدو) لنا وكأنها تؤدي المهمة، وتخدم الغرض، وهو تقديم الفكاهة والتفاعل معها حين تلقيها. لكن هذا الأمر في الحقيقة لا يتم سوى بشكل سطحي.

وحتى لو بدا لنا أن هكذا روبوت سيكون مدهشاً في تقديم الفكاهة التي سيتقبلها البشر، لكنه لن يكون قادراً على (تقدير) الفكاهة، أمّا استجابته الضاحكة فإنها ستكون جوفاء بالفعل.

إن نظريتنا (لوعُرضت على هكذا حالة افتراضية) ستخبرنا بما هو منقوص وتفتقده فرقاً عن عملية صناعة الفكاهة الحقيقية والتفاعل معها.

إن ما هو منقوص هنا في الروبوت، هو المعرفة والإدراك المطلوب لتمييز الفكاهة. وهذا الإدراك يجب أن يكون مدفوعاً بدوافع عاطفية تمييزية. أما منظومة المشاعر التي تحكم الإدراك، يجب أن تتوافر لأسباب حسابية (كي تكون قادرة على حساب الفروقات بين المُعطيات التي تقود إلى اكتشاف التناقض الضروري لوجود الفكاهة). وبصورة مُختصرة، على الروبوت أن يكون في مأزق معرفي ـ مثلما هو الحال مع البشر ـ كي يفهم الفكاهة ويتعاطى معها أو ينتجها.

يتوجب أن يخضع هذا الروبوت إلى مأزق بحيث يكون تحت ضغط الوقت. يجب أن يضغط عليه الوقت حتى يُفعّل جهود الإكتشاف للتوقعات المُسبقة أو المرشحة لتملأ الفراغات في الطرفة وعملية فهمها. وأن يكون مضطراً للمخاطرة التي تقود إلى ظهور شوائب معرفية (مغالطات سيكتشفها في معطيات النكتة)، غير مسيطر عليها في فهمه لجوهر الطرفة. والتي يمكن لاحقاً أن تحقق أهدافها.

لأغراض النجاح في تصنيع مثل هكذا روبوت، يتوجب علينا أن نصنع آلة محوسبة يمكنها أن تستخلص لنفسها (لـ عقلها!)، مشاعر جيدة من تلقي النكتة الجيدة. وأن تكون لها القدرة على الإندماج في فضاء المُتعة الإجتماعي المتذوّق لهذه النكتة.

إن هذه العملية يجب أن تنضوي على تفريق ما بين المكونات العاطفية والمكونات الإدراكية للفكاهة (فهل يمكن أن نمنح روبوتاً هذا الإمتياز الأحيائي الحصري؟). وهذه العملية غير ممكنة بالنسبة لروبوت، حتى لو جرت عملية حوسبتها مسبقاً. إننا نضع هذا النموذج الإفتراضي ونمضي في توصيفه إلى التفاصيل لأجل أن نعيد رسم خريطة عمل الفكاهة وتأثير الطرفة وطريقة التعاطي معها في ضمن الكيان العقلي المعقّد للإنسان.

ولفهم الفكاهة، يتوجب أن تتوفر للجوانب العاطفية والجوانب المبنية على المشاعر في الطُرفة، أن يتوفر لها أداة قدح تطلق تفعيلها بالصورة الصحيحة والمطلوبة لإتمام أركان حدوث الفكاهة.

أداة القدح هذه، يجب أن تأتي من خلال التلمس الصحيح لوجود (خطأ) ما في المعلومات. وهذه العملية لن تتم إلّا باستخدام الوسائل الإدراكية المناسبة التي تتلمس وجود الخطأ ضمن عملية مقارنة وعرض واستذكار تجري مع الذاكرة طويلة الأمد.

هذه الذاكرة طويلة الأمد كما سبق أن أوضحنا قد بُنيت وفقاً لتجارب سابقة محفوظة، لكنها كانت مفعمة بالمشاعر وبمعطيات الإدراك في الوقت نفسه. ولنفترض إنه كان من الممكن تصميم روبوتٍ يتمتع بقدرة الإدراك، بحيث يتوفر على سرعة فائقة في التعامل والتعاطي المحوسب. ومن ضمن أدائه أن سيكون قادراً على حفظ تكامل قواعد البيانات دون أي تنازلات أو مبادلات مع بدائل أقل كفاءة ولا تملأ الفراغ المعرفي لو حدث نقص أو واجه احتمالاً غير متوفر، (طبعاً هذا الأمر مستحيل من الناحية العملية، لكن لنفترض أنه قد حصل).

إن الحد الصادم لأي نكتة عندها سيجري «إرساله برقيًا» إلى هذا العقل الافتراضي في الروبوت. ولنفترض أن لدى هذا الروبوت نموذجاً من المرافقة الإنسانية التي تمكّنه من رؤية وجهة الفكاهة من زاوية الإنسان وفهمه، لكنه لن يتوافر في هذه الحالة على مواطن الضعف في الإدراك، وسيفلت من سؤال حول أي أرضية سيختارها للمشاعر والموجبة التي ستمكنه من الإستمتاع بالنكتة.

إن مثل هذا الروبوت، فيما لو تمكن من حيازة هذه القدرات السريعة جداً في تمييز الفكاهة (على أمل التفاعل معها)، سينظر إلى أوسكار وايلد أو روبن ويليامز على أنهما مؤدِّيان يقولان جُملاً تفاعلية بطيئة!، ولن تكون إستجابته إلا شبيهة بردّة فعل الكبار حين يداعبون الأطفال الرضّع، ويضحكون فقط لأجل أن يقولوا شيئاً أمام الطفل.

إن العلة الأساسية في عملية تعاطي الفكاهة هو إننا لا نتشارك واقعيًا بكل ما لدينا من قدرات إدراكية ومعرفية، إلّا على قدر المناسبة التي يفرضها ظرف الطرفة الملقاة. فلو افترضنا أن مصمم هذا الروبوت تمكن بشكل أو بآخر من تزويده بمصفوفة المشاعر والعواطف التي تساعده على التفاعل إدراكيًا مع مكوّنات النكتة، وأن يتلمّس الطرافة في عناصرها، وبالتالي يضحك لمحتواها أو أن يلقي نكتة تناسب جمهوراً ما، وهذا الجمهور سيضحك من النكتة وسيتفاعل معها، فإن الفكاهة التي يتعاطى معها هذا الروبوت بالضحك ستجعلها «ضحكاً من الداخل»، أي إنه مسبق الإصطفاف والتوقع.

بمعنى آخر، إن كان مُصمم الروبوت الذي ينتج ويستشعر الفكاهة قد أعطى برمجة مسبقة له أن يستجيب بالإستجابة (ب)، حين يتلقى أو يسمع المؤثر (أ)، الذي هو عبارة عن طُرفة تلقى على مسامع الروبوت. فالأولى أن نسأل السؤال التالي: إن كانت هذه البرمجة هي من ضمن مصفوفة الإدراك، ومعدّة مسبقاً، فلماذا لم يضحك منها الروبوت (حتى قبل سماعها)، طالما أنه يمتلك بالفعل كل مقومات هضم الفكاهة التي فيها؟. إنه يمتلك النكتة ومعطياتها ويدركها بالإضافة إلى خانة في مصفوفة المشاعر تحتوي على ردّ الفعل الخاص والإستجابة الخاصة.

إن هذا غير ممكن لا نظريًا ولا عمليًا. ولهذا سبق أن طرحنا أن مشكلة إنتاج فكاهة بناءً على الذكاء الصناعي، واستيلادها تماماً من صنع غير بشري هي مهمة مستحيلة وطريق مسدود تماماً.

إن الفكاهة تعتمد كليًا على المهارات والوسائل التي تسير على طريق الإدراك والوعي الإنساني. ورغم أن هذه المهارات والوسائل قد توفرها التكنولوجيا للروبوت، إلا أن فهم الفكاهة والتعاطي معها يعتمدان بالأصل على ما نحوزه نحن من إدراك. مثلما تعتمد أيضاً على ما نمتلكه من وعي بحسّ الفكاهة. وهذه مبنية على شبكة واسعة من التجربة البشرية التي تختلط فيها المؤثرات العاطفية، بتراكم الخبرة التجريبية من المحيط الثقافي والاجتماعي. وهذا مما لا يمكن توفيره في الروبوت بشكل مصفوفة مُسبقة التوقّع.

ولو قيّض لنا في وقت ما أن ننتج كبشر روبوتاً يمتلك قدرات أبستمولوجية ومعرفية، تكون قوية بما يكفي للتعامل بعقلانية مع المسائل كما يفعل الدماغ البشري، سيتوجب علينا عندها أن نزوّده بشيء يشبه الفكاهة وباقي المشاعر الأبستمولوجية كي يكتمل فعلاً أداؤه ويقترب من أداء الإنسان في هذا المجال.

بعبارة أخرى، لو أردنا للذكاء الصناعي مهما بلغت قدراته أو ارتقاءاته، أن يؤدي مهمات العقل البشري بالضبط كما يؤديها دماغ الإنسان، توجب أن نزوّده بطريقة ما تجعله يفكر فيها بالمشاعر، وأن تكون أو تتولد لديه عواطف مؤثرة في القرار الذي يتخذه. ومن هذه التزويدات، توجَّب أن نزوّده بحس الفكاهة حتى يكتمل أداؤه.

(12)

غريفز وويلسون.
التطوّر والوظائفية للضحك والفكاهة.
مقاربة توليفية.

لقد حاولت عدّة فرضيات حديثة أن تفسر الأصل النهائي والتطوّري للضحك والفكاهة. لكن معظم هذه الفرضيَّات افتقرت إلى السعة في التناول ضمن إطار التطوّر. بينما أهملت حقيقة وجود نوعين أمبريقيين من الضحك وهما؛ الضحك (الدوشيني)، والضحك (اللادوشيني). مثلما أهملت كذلك تطبيقات هذا التمايز وتأثيراته على تطوّر الضحك على أنه إشارة أو رسالة أو علامة.

إن معظم هذه الفرضيات قد جرى وضعها في عزلة نسبية عن بعضها. وبقيت بعيدة عن الكتابات والأدبيات التجريبية التي سبق أن وُضعت في هذا المجال. هنا سنحاول أن نسد هذا النقص المعلوماتي والتحليلي عبر إيجاد مقاربة توليفية بين الدراسات التي تناولت الضحك والفكاهة. وذلك من خلال؛ أولاً، إعادة تقييم هذه الدراسات على ضوء مسارها النظري. وثانياً، إقتراح إطار تطوّري توليفي يجمعها.

هذا الإطار التوليفي الذي طرحه غريفز وويلسون/ Greaves and

Wilson يجب أن يأخذ بنظر الاعتبار تناسل الأفراد وتاريخهم. مثلما يأخذ في حسابه التكيّف والمقاربة الميكانيكية المقترحة. إننا ننظر إلى الضحك على أنه نوع من إعادة تأهيل الفرد وتوظيب تعبيراته. وقد حدث هذا تدريجاً عبر التطوّر البايولوجي والثقافي سوية.

ونرى أن الضحك الدوشيني ظهر لدى الإنسان (القرد الأعلى ـ الهوميند)، عبر تطوّر سحيق، لكنه اكتسب تعبيراته وأسبابه في حدود 2 ـ 4 ملايين سنة قبل التاريخ.

وباعتبار الضحك الدوشيني عدوى عاطفية مرحة، فقد أتاحت هذه الميكانيكية للأنواع ضمن مجموعات الهوميند الصغيرة أن تعبر عن نفسها عاطفيًّا خلال فترات الشبع وغزارة المصادر التي مرّت بها جماعات ذوات القدمين خلال ظهورها المبكّر. يعني قبل أن يتميز النزاع على الموارد بطابع اجتماعي.

وعلاوة على ذلك، فقد سعينا إلى تأصيل فرضية وجدنا لها مصاديق تاريخية عدّة، وهي تفيد بوجود سلسلة من الظروف المادية مع تعارضات غير جادة وغير مؤثرة لم تُعقها بما يمنع مسارها. تفيد هذه الظروف بأن هذا العصر السِلمي المتميز بالوفرة والأمن كان موجوداً بالفعل، وبالتالي فقد كان ظرفاً مناسباً لظهور النشاط الإجتماعي والتعبيري للضحك (على شكل وظيفة)، ونشاط المَرَح العاطفي الذي من الممكن أن يكون قد تطوّر لدى الأنواع الرئيسة (القرد الأعلى).

هذا النوع من الظروف التحفيزية، له أصله في دور الرئيسيات الإجتماعي. وكذلك له أصله في نشأة هذا الدور وميله إلى التعقّد بما

يشتمل أقصى الحالات المتبناة حديثاً، وهو التبني الوظيفي للتعبير عن المرح.

ونعتقد بأن هذا الدور كان هو الأساس في ظهور الفكاهة الإنسانية الحديثة. وضمن هذا المنهج وإطار العمل، فإن الضحك الدوشيني كان من بين مقدمات ظهور الفكاهة وتعريفها بين الأفراد. وقد جرى وضع القواعد في عصر الهوميند، وضمن السلوك البايولوجي. فقد كان أساساً ووعاءً تعبيريًا أرقى لدى الهوميند. حدث ذلك أو بدأ بالحدوث قبل مليوني سنة، وما زال يتطوّر لغاية الوقت الحاضر.

إن الوجود السحيق للضحك والفكاهة قد سمحا لها أن يجري استمالتها للتأثير ضمن أغراض سردية وروائية. ومن هنا، ظهر الضحك اللادوشيني، و (الجانب المُظلم) من الضحك وأغراضه عبر تاريخ الثقافة الإنسانية. إن وجهة النظر هذه ستؤثر على مجمل الوظائف التي يؤديها الضحك والفكاهة اليوم. وهي التي ستشرح لنا أين ومتى تطوّر الضحك والفكاهة ضمن خط سير التطوّر الأحيائي.

لقد منح داروين الضحك والفكاهة مكانة ومغزى مهمينًا في سلم التطوّر الأحيائي. ورغم بُعد الأمد عن طروحات داروين، إلّا أننا نجد هذا المجال قد نال المزيد من إنتباه العلماء خلال السنوات الثلاثين الأخيرة. هذا الإنتباه، تتوج بمحاولات عديدة لصوغ علاقات أمبريقية تفسر الضحك، وجعلت من الضحك والفكاهة موضوعين مشخّصين على مستويات عديدة. ولهذا حاولنا هنا أن نستنطق عدّة بحوث مختلفة سبق أن تناولت النواحي التطوّرية للضحك والفكاهة.

ومع ذلك، نجد أن الأبحاث حول الضحك والفكاهة، ما زالت ترتبط نسبيًّا بالأبحاث الخاصة بالعواطف والتعبيرات الشعورية.

وبقيت أسئلة أمبريقية كثيرة عن مفهومي الضحك والفكاهة بلا أجوبة، أو إنها تعاني الإهمال. على سبيل المثال؛ إن معظم الباحثين فشلوا في وضع أطر محددة وواضحة للتمييز بين الضحك الدوشيني (الضحك الذي يكون مدفوعاً بمحفّز، وله مكافئ عاطفي)، والضحك اللادوشيني (المستولد ذاتيًّا، وبلا عواطف تحيطه).

وبينما وجد أن معظم الضحك اليومي، إنما يتبع المحادثات العرضية، ولا يستلزم أن يكون متبوعاً أو مسبوقاً بفكاهة معينة، وجد الباحثون أن عليهم أن يجيبوا عن التساؤل؛ هل إن هذا الضحك يختلف عن ذلك الذي يستتبع وجود فكاهة واضحة؟.

إن هذه النظرة العامة، قد تكون هي السبب وراء الإرباك الكبير الذي يصاحب عملية تشخيص الضحك، وتحديد ملامحه اليوم. فضلاً عن الصعوبة في تصنيف أنواعه علميًّا.

وعلى صعيد بلورة النظرية، نجد أن الأبحاث التجريبية ما زالت عاجزة عن إيجاد ربط متكامل بين الضحك والفكاهة تحت عنوان وظائفي. ولو وجد هذا الربط، فإنه سيكون في معظم الحالات، ربطاً ظرفيًّا، وليس علاقة دائمة وسببية. وكنتيجة، سنجد أن لدينا قصوراً وشحة في النظريات التي تفسر برصانة هذا السلوك.

ومعظم الفرضيات جرى تقديمها دون أن تكون مدعمة بما يكفي من البيانات الاستقرائية. وبالتالي لا تكون لها حصة في التكامل العام كتفسير

تتبناه. مسألة أخرى جرى إهمالها في الحسبان وهي أن هناك تأثيرًا متراكبًا، حين تشترك أنواع الضحك سوية، وتكون محتملة التداخل.

كما أن عدداً من الباحثين أهملوا مسألة تعدد مستويات التطور فيما يخص الضحك والفكاهة المسببة له.

بينما فشل باحثون آخرون في أن يحسبوا تأثير الظهور التطوري للصفات السردية للفكاهة، فضلاً عن تطوّرها بالأصل وتمايزها عن الصفات العامة. وظهر لدينا تنازع وتضارب واضح، بين الاستخدام الحالي للضحك كتعبير، وبين الوظيفة والظهور التاريخي للضحك كتعبير وتكوينه الأصلي.

إن الوظائف التكيفية للضحك، تتنوع بشكل واسع، وفي كثير من الأحيان تتناقض مع بعضها البعض. ومع ذلك، فهناك العديد من التكيفات جرى احتسابها كملامح أو مميزات للضحك. أو إنها دليل على وجود بعض الخصال التي تختلف بالأصل عن السبب التاريخي لوجود تلك الخصال أصلاً.

وقد يكون الضحك والفكاهة قد تطورا تاريخيًا من أجل خدمة غرض أو وظيفة معينة. ثم جرت استمالتهما لأجل خدمة وظيفة أخرى مختلفة.

وقد فشل الباحثون في شأن الفكاهة والضحك في التعامل مع البرامج التي هي خارج نطاق البحث أو الدخيلة على بحوثهم. وقد احتوت تلك البرامج على آليات تتعامل مع العلوم العصبية الاجتماعية. وهي في معظمها تتعامل مع الأسس العصبية للإيماءات ومبادرات التعابير المختلفة؛ أو ما بات يعرف بـ «السايكولوجيا الموجبة».

وتتضمن السايكولوجيا الموجبة، مصادر وممكنات المعيشة الإنسانية الرغيدة ومقترباتها والوسائل المؤدية إلى الإحساس بالراحة.

كما نجد شحّة في التطرق إلى السايكولوجيا التطوّرية واهتماماتها في نواحي الضحك، وهي التي توفر ما يشبه صندوق الأدوات لأجل دراسة التطوّر في السلوك الإنساني والعاطفي للإنسان.

ولهذا نجد أن دراسة الضحك والفكاهة قد أعيقت عن التطوّر عبر إهمال ارتباطها بباقي المجالات، فضلاً عن شحة العلاقات الأمبريقية الموثقة والقصور النظري المُحاطة به

مع ذلك، أمكن جمْعُ عددٍ من النظريات التي يمكن لها أن تتكامل مع ما لدينا من معطيات، مع التذكير بأن ليس من أهدافنا أن نقوِّض ما موجود فعلًا من هذه الدراسات وما توصلت إليه.

وبدلاً من ذلك، فقد سعينا إلى تجسير هذه النظريات التي تبدو كجزر منعزلة عبر وضع أسس وروابط استنتاجية تربط بين هذه القراءات بما يوسع النظر إلى ظاهرة الضحك ووظائفها.

منهجيًا، استفدنا من وجهة النظر التطوّرية المتوازنة من جهة، والجهود المتفرقة والمتنوعة وغير المترابطة لعدد متنوع من الباحثين الذين كانوا يختلفون حتى في منطلقاتهم البحثية. وقد بدأنا بمراجعة المدونات التجريبية وقواعد البيانات المتعلقة بتلك الدراسات، ومنها استخلصنا عدداً من النقاط الأساسية.

ثم انتقلنا إلى مراجعة الأسس النظرية وقواعد البيانات المسجلة من وجهة نظر عِلم الأعصاب، ومن منظور فاعلية العواطف الإيجابية

والسايكولوجيا التطوّرية، ونظرية الانتقاء متعدد المستويات. وهذا ما خدم توجهنا البحثي باعتباره أساساً للجدليات الثنائية عن مسار الضحك التطوّري خلال الملايين السبعة الأخيرة من السنين في التطوّر الأحيائي.

الجزء الأول يتناول التطوّر الإعدادي للضحك والفكاهة ابتداءً من سلالات القرد الأعلى الأسلاف، ما بين مليوني سنة، إلى أربعة ملايين سنة مضت منذ الآن.

في الجزء الثاني برهنّا فيه على أن الضحك والفكاهة قد جرى اعتمادها واختيارها منذ مليوني عام تقريباً لتكون ذات أغراض متعددة أو مزدوجة من قبل الأسلاف الهوميند. فضلاً عن تمايز الخصائص الذي طرأ عليها. وبصورة خاصة، تطور الاستعمال الفرداني للعضلات المشاركة في إبراز الضحك لأجل تنفيذ عدد كبير من الأغراض والوظائف التي يشارك فيها الضحك، كما هو الحال الآن. وسنناقش الإستنتاجات في النهاية.

إن الضحك وجد وما زال في كل السلوك الإجتماعي لكل المجتمعات حول العالم، وبالتالي جرت ممارسته ولا تزال من قبل جميع الأفراد. بل إن الضحك، يقف من بين أولى علامات التعبير الصوتي الذاتي ابتداءً من مرحلة الرضاعة. ويظهر في العادة في هذه المرحلة ما بين عمر شهرين إلى ستة أشهر. حتى أن الأطفال من المصابين بالعمى أو الصمم، وجدوا أنهم يمارسون الضحك، رغم عدم سماعهم أو متابعتهم الآخرين وهم يضحكون.

ورغم أن الضحك يُمارَس عبر مُصاحبة صوتية متنوعة، فإن عدداً قليلاً من العلماء عارضوا فكرة أن الضحك صوتيًا وعضليًا يكون بالعادة مفهوماً

عبر كل الثقافات واللغات والأعراق. ويمكن للأعراق المختلفة تمييزه صوتيًا أو بصريًا رغم اختلاف اللغة ونظام الإشارات والإيماءات.

كما أثبتت التجارب أن طيفاً واسعاً من نوبات التعابير جرى اعتبارها من قبل المستقبلين لها على أنها (ضحك)، بشكل لا لبس فيه. ولهذا فإن للضحك ملامحَ وخواصَ نمطيةً يمكن تمييزها بوضوح. كما يمكن احتساب هذه الخواص على أنها طقوس بينية (بين فرد وفرد آخر) تجري ضمن نمط محدد.

هذه الحقائق تقود إلى استنتاج واضح بأن كل فرد إنسان لديه ميل جيني لاستيلاد الضحك أو لتلقِّيه.

وتمكنت المقارنات التطوّرية والنشوئية من تزويدنا بالمزيد من المعلومات عن تطور الضحك، والغريزة والحواس المتطورة إلى جانبه.

وضمن هذا السياق، نجد أن عدداً كبيرًا من الأنواع القريبة من الإنسان قد طوّرت نشوئيًا قدرةً تعبيريةً قريبة من ملامح الضحك وقريبة من خواص التعبير العضلي الذي يمثله الضحك. وبالأخص، الفم المسترخي المفتوح الذي (يلعب) دور الضحك.

وضمن سلالات القرد الأعلى، وعلى الأخص سلالة القرد المعروف باسم (بان الذكي)، فإن هذا التعبير المتكرر عادة ما يكون مصحوباً بما يشبه اللهاث. وبالأخص خلال ممارسة الدغدغة والمطاردة. هذه التعابير تميل إلى أن تظهر بشكل صوتي أكثر في الشمبانزي، بدلاً من التعبير باستخدام الوجه.

هنا توجِّهُنا الأدلة إلى أن البوادر السلائفية المبكّرة للضحك هي ذات

أصول تطورية سحيقة، تعود إلى مرحلة الرئيسيات المشتركة بين الإنسان وأسلاف القرد الأعلى، وهذا ما يعني على الأقل أنه قد حدث قبل 6.5 مليون عام من وقتنا الحاضر.

وبدأت فيما بعد تبرز الفوارق في الضحك، حين تقاطعت الثقافات، وتقاطعت الأسباب التي تستفز الأنواع المختلفة كي تضحك، وهو ما أيقظ الضحك الدوشيني وأوجده عمليًا.

والآن لدينا الفكاهة بشكلها الرسمي والمعروف، لتكون المصدر الأول لاستثارة الضحك. هذا الموضوع كان خاضعاً للنقاش منذ مدة لا تقل عن 2000 عام ماضية. وتزايد عدد الدراسات والكتابات التي تناولت الفكاهة التي يختص بها البالغون[1] أكثر من أي نوع آخر من الفكاهات التي تثير وتدفع نحو الضحك.

وما نتج عن هذا الأدبيات عبر الوقت، هو نوع من التوافق المتميز بما هو غير متوقع أو متعارض من الصدف التي تقود إلى تخليق سبب من أسباب استفزاز الضحك.

وهذا ما كان يعتبر لغاية الآن، على أنه الشكل المحسوس غير المتكامل ما بين مثيرات الضحك من أنواع الفكاهة الآن، وما كانت الفكاهة سابقاً قادرة على إثارته من الضحك. هذا ما تشتمل عليه هوية الضحك المستند إلى الفكاهة. وبالأساس الذي كان يفسر وفقاً للتجارب السابقة من تعريفات الفكاهة ووضعها في شروط كي تنتج الضحك. وهي طالما

(1) يتحدث البحث هنا عن السخرية والفكاهة التي يكون الطابع الجنسي، أو المواضيع الجنسية فيها محوراً مسبباً في استثارة الضحك ـ المترجم.

احتوت محتوى في إطار من الهزل وعدم الجدية، وباقي الأمور المماثلة من المعقوليات المستفزة للضحك. كل هذه، افترضت أنها تترجم بعض المحفّزات أو البواعث للضحك على أنها لم تكن متوقعة وقد أتت وكأنها مختلفة عما كان متوقعاً.

بعبارة أخرى، إن الفكاهة الباعثة للضحك، حتى تصل إلى مستوى تعريفي على أنها (فكاهة باعثة للضحك)، توجب أن تشتمل على تلقي الفرد أو الجماعة المستقبلة لحدث ما، وأن تكون نتيجته غير متوقعة أو خلاف المألوف في العادة.

هذه الشروط الأساسية وفّرت تطابقاً بين هذا التعريف، وطيف واسع جداً من الأحداث أو الأقوال أو المعلومات التي تأتي بصورة غير متوقّعة عن شاكلتها. فتسبب الاستثارة الباعثة للضحك، مثل النكتة أو التهريج البدني أو الصوتي أو التورية بالكلمات والتلاعب بها.

وعلى الرغم من أن فكاهة البالغين قد اجتذبت الاهتمام نسبيًّا أكثر من غيرها من أنواع الفكاهة (مثلاً، الفكاهة المُسببة لضحك الأطفال الرضع، أو الدغدغة، الضرب والسقوط تمثيلاً). لكن هناك روابط لا يمكن إنكارها بين كل أنواع الضحك الدوشيني التي يقف خلفها محفّز ما.

فالأطفال الرضّع، يمكن أن يمارسوا الضحك الدوشيني، حين يستلمون محفّزاً ما بصورة غير متوقعة، أو ضمن سياق غير معتاد. ويمكن لنفس المحفّزات التي تثير الضحك لدى الأطفال الرضع أن تثير البكاء، إذا كان الوضع لا يبعث على الراحة لهم، أو أن هناك أصواتًا جعلت إحساسهم بالأمن يختل، أو أن سياق المحفّز جاء بطريقة غير متوافقة.

وتفعل الدغدغة ذات الشيء لدى الأطفال، خاصة إذا حصلت في مناطق لا تثير نفس الحساسية الباعثة على الضحك. طبعاً لنتذكر أن البالغين غير قادرين على دغدغة أنفسهم وفي عالم القردة نجد أن الدغدغة مع المزاح بالمطاردة هو المحفّز الأول للضحك لدى البالغين منهم. وهو شيء مشابه لمحفزات الضحك لدى الأطفال الرضع أو الأكبر منهم سنّاً بقليل.

ويأتي حدوث المحفّز ضمن سياق إجتماعي ليكون عاملاً وفاعلاً. ولقد وُجد أن احتمالية الميل إلى الضحك والاستجابة للمحفّز تكون أكبر بثلاثين ضعفاً في حال حدوثها ضمن سياق إجتماعي. حتى أن هناك من جادل بأن الضحك يحتاج إلى وجود الآخرين كي يكون استجابة للمحفز.

ولو افترضنا أن الفرد يقرأ نكتة مطبوعة، فإن احتمالية أن يستجيب لها ضاحكاً (بالضحك الدوشيني) ستكون أكثر بعدة أضعاف لو كان هناك أحد إلى جانبه يستمع إليه وهو يقرأ نفس النكتة.

إذن هناك عائلة متشابهة من المحفزات الحدسية، تتقارب متميزة من بين مختلف المحفزات والمهيجات للضحك الدوشيني. إن هذه العائلة متشابهة بطريقة يمكن القول فيها إنها تتشارك الشكل أو الهيكل بينها. مثالها الأبرز في التوصيف هو: التغير المفاجئ غير المتوقع لحدث ما، والذي يبدو لحظيًا أنه غير جاد. وأنه متخالف مع السياق الاجتماعي. أو ما يعرف بـ (المفارقة الإجتماعية غير الجادة). مثالها: الألبسة الفنطازية للمهرجين. نصف القميص أحمر والنصف الآخر أخضر. بينما المعتاد اجتماعيًا أن يكون القميص كله بلون واحد، وهكذا.

سنشير بهذا المصطلح؛ (المفارقة الاجتماعية غير الجادة)، إلى كل ما قد يهيج أو يثير الضحك الدوشيني ويكون له جذور مشتركة لدى الانسان ولدى الأسلاف من القرد الأعلى نزولاً.

هذا الاستخدام للمصطلح لا يبتغي التأسيس لمعنى من المعاني التعريفية وتثبيتها، قدر ما يهمنا أن نستهدف غرضين أساسيين؛ الأول هو أن نسهل النقاشات عبر تصنيف ذي معنى لأنواع الضحك الدوشيني، دون الانزلاق إلى الورطة الفلسفية لتعريف ماهيّة (الفكاهة). وثانياً، كي نعطي هذا المصطح الاشتقاقي بعضاً من القوّة الوصفية.

وفيما يتعلق بالنقطة الأولى، فما زلنا نستخدم الشكل الذي يمليه مصطلح (فكاهة). وهو المستخدم حاليًّا بشكل رسمي ومعترف له بأنه يشير إلى الباعث والمهيج الأول للضحك في عالم البالغين. بينما يبقى مصطلح (بروتو ـ فكاهةProtohumors/)، أو (بواعث الانعقاد للفكاهة) وهو يشير للأشكال الأخرى من المفارقات الاجتماعية غير المتسلسلة. مثل السقطة والضرب في اللعب أوالدغدغة أو العثرات الجسمانية والمفاجآت المفرحة، سواء عند القردة أو عند الأطفال الرضع.

أما فيما يتعلق بالنقطة الثانية، إننا لا نعني أن نطرح الأمر بطريقة تفيد بأن كل (مفارقة اجتماعية غير جادة) تعني بالضرورة، أو تفيد إلى إنتاج الفكاهة المؤدية إلى الضحك. لكننا بدلاً من ذلك، نشعر بأن المصطلح يحتمل معنى تواصل واستمرار التطور في هذا الموضوع.

إن هذا الربط الأساسي بين المُسببات التي تقف وراء الضحك الدوشيني، لم يمض بلا أن يلاحظه أحد. فقد تحدث داروين (1872) عن

الفكاهة على أنها مسبب لـ «دغدغة» العقل. بينما عبر ماكغي/ McGhee (1979) عن الفكاهة على أنها: «النتاج المنطقي لاستطالة الأشكال المُمتعة من السلوك إلى حد التصادم مع العقبات الثقافية التي تصفها الأفكار!».

أما غامبل/ Gambel(2001) فإنه يشير إلى الضحك الذي تثيره المحفزات عند الأطفال على أنه: «الصورة البدائية الأولى للفكاهة». بينما طرح أن الضحك واستثاراته لدى القردة، بأشكاله التقليدية وبخاصة الشمبانزي، فهو متقارب مع محفزات الضحك التي يستشعرها الانسان البالغ. أي إنها تشابه بواعث الفكاهة التي يدركها البالغون في جنس الإنسان.

أما بروفاين، فمن جانبه أشار إلى أن الدغدغة تعد من (بواعث الإنعقاد للفكاهة)، أما ويسفيلد/ Weisfeld (1994)، فقد نص على أن الدغدغة هي «شكل بدائي مُبسّط من أشكال الفكاهة».

فعل عبثي يترافق مع إشاعة المشاعر الآمنة، ويترابط مع الشبَع والإستقرار بلا حوافز تحذر من الأخطار. وبلا انتباه مشدود للأفراد الآخرين. حتى أن الأبحاث أشارت إلى وجود علاقة تفعيلية بين الأفراد الذين يضحكون عند تعرّضهم إلى الدغدغة، وأولئك الذين يضحكون بادئ الأمر حين يتعرضون للفكاهة ومحفّزاتها العقلية. وهي علاقة تشير إلى أن الفعلين ينشطان بنفس الآليات.

وهنا وجدت الفرضية التي تقول بأن مهيّجات الضحك الدوشيني تتقاسم فيما بينها نفس البناء والهيكل. وأن لها أنصاراً كثيرين ضمن افتراض وجود «مركز تنسيق للضحك»، ضمن عقد الحبل الشوكي الظهري. هذا المركز يعمل عمل الأرضية المشتركة لانطلاق أنواع الضحك الدوشيني.

كان بروفاين أول من بشّر بوجود هذه الآلية. ولو أخذنا بنظر الاعتبار الضحك عند الرئيسيات غير الإنسان، والضحك التلقائي والعفوي عند الأطفال الرضع، والدغدغة، والضحك الإعتيادي المتأتي من الفكاهة لدى البالغين، كلها تشترك بالأساس بهيكلية وسياق يتصلان بالتطور النسيجي، مثلما يمت بصلة إلى التطور الخلوي داخل الخلية. وهو ما نشير إليه إجمالاً بمصطلح (المفارقة الإجتماعية غير الجادة).

ثم يبرز لدينا دور آخر، عنوانه؛ الثقافة والتعليم. إذ نجد بعض الشكوك تقودنا إلى أن هناك أثرًا للمحفز والدوافع الفكاهية على الضحك، يرتبط بالموروث الثقافي والتعليم السائد. هذا بالإضافة إلى الأصل البايولوجي للضحك. ومن الواضح إننا هنا إزاء «تعاون» تفعيلي بين العوامل البايولوجية والعوامل الثقافية التي تبعث الفكاهة وبالتالي تسبب الضحك.

وبالتأكيد يمكن لهذا التداخل أن يربك التحليلات التي تتقصى الأصل التطوري للضحك. وهنا تبرز أطروحة بيرلنغ (1993)، الذي أسس لحقيقة أنه لا يوجد سلوك إنساني عصي على الإنتقال بالتعليم. وإن «نسق الإيماءات والإشارات»، التي تتعلق بالضحك ليست إستثناءً من هذا التأكيد.

إن وطأة التأثيرات التي تتركها الثقافة والتعليم على الضحك البشري والفكاهة، ربما تظهر بأجلى صورها في التنوع الثقافي الذي يدعم الفكاهة، وليس عبر البناء الهيكلي لها، أو «الثيمة» الداعمة للفكاهة. أي إن التنوع سيظهر في الموضوع الذي يملأ الهيكل الفكاهي، بدلاً من القالب الذي سيساق فيه الباعث الفكاهي المحفز للضحك.

هذه الخواص يمكن أن تتنوع، من القضايا الخيالية، إلى الفكاهة المبنية على المفارقة الجنسية وإلى الفكاهة السياسية وإلى طيف واسع ومتنوع من المباني والعادات الثقافية التي تصلح كموضوع.

وتشكل شدّة الضحك وتكراره ومعدل تردده وسياقه، عوامل مختلفة هي الأخرى بين ثقافة وأخرى. وهو ما يعطي انطباعاً بأن الضحك يمكن أن يتعرّض للكَبت، أو للتحفيز تبعاً لقواعد إظهاره، وهذه تتنوع وفقاً للعادات والتقاليد.

ويبرز دور وتأثير التعليم في الضحك، في الطريقة التي يمارس بها الضحك في الحياة اليومية. وعلى النقيض من الفكرة التي تقول بأن الضحك هو نتاج لما سميناه «المفارقة الإجتماعية غير الجادة»، فقد بيّنت الدراسات أن المُتحدث في محادثة تفاعلية يكون مسؤولاً (بمهاراته في الحديث) عن 46% من الفكاهة الباعثة على الضحك.

إن مثل هذا الضحك، ينشأ بشكل عفوي ووظيفي في الوقت نفسه، ليحمل بعضاً من تعبيرية التفاعل المريح، والمشاعر الإيجابية بين المتحاورين.

وهناك ضحك مشابه يمكن أن يحدث إستجابة إلى حالة من إدراك حجم الضغط والإجهاد النفسي. بعبارة أخرى؛ حين يدرك الفرد أنه معرّض لضغط وإجهاد نفسي كبير، وتتضح له صورة مخيفة عن حجم هذا الضغط، فقد يلجأ إلى الضحك. وهذا ما يعرف بـ «الضحك التوتري». ويلجأ إليه الفرد حين يخوض غمار حالة مقلقة متفاقمة.

أما حدوث الضحك في أثناء الحوارات مع الغرباء (دون وجود قاعدة

مشتركة لتبنّي فكاهة باعثة لضحك الجميع)، فهو مؤشر على أن عادات الفرد الضاحك (أو توتُّره)، يحتاج إلى تغطية آنية. وإنه سيلجأ إلى الضحك كغطاء وقائي من إساءة الفهم، أو لإشاعة روح ودّية يشعر الضاحك بأنه يفتقدها مع هؤلاء الغرباء، وهو بأمس الحاجة إليها الآن.

إن هذه الحالات، كلها يمكن أن تكون نماذج للضحك اللادوشيني. والذي هو في الحقيقة محاكاة وتعلم للضحك الدوشيني. ولهذا فهو بالأصل نوع آخر يختلف عنه.

سجل بروفاين ملحوظة أن مثل هذا الضحك، ويقصد الضحك في أثناء المحادثة الموصوفة، إنما هو ضحك تعبيري مع تأثير وجود ما يشبه علامات الترقيم التي تغيّر معناه. فقول عبارة (إنه أحمر)، لا يشبه في المعنى عبارة (إنه أحمر!)، ولا عبارة (إنه أحمر؟).

أي إن الضحك هنا لا يترجم الخطاب، إنما يضع إشارات التنقيط على الخطاب بما يفسر معناه ضمناً.

إن هذه الظاهرة يمكن أن تفسر بأفضل طريقة عند افتراض أن مثل هذا الضحك الحواري أو أثناء المحادثة، يجري استخدامه ستراتيجيًّا خلال الخطاب، كنوع من أدوات (ماورائيات الخِطاب). وهذا على النقيض تماماً من كونه (ضحك غير مُسيطر عليه) كما يحاول أن يظهره المتحدث ـ الضاحك. مرة أخرى نعود إلى أن هذا التوصيف هو توصيف لضحك لا دوشيني.

الإستثناء من هذا، هو الضحك (اللادوشيني) الذي يحدث في أثناء الخطاب من نوع الضحك المتعلّم الهجين. وهو ما يحدث خلال

(الحديث الضاحك) أصلاً. مثاله؛ الضحك الذي يمارسه المتحدث في العروض التلفزيونية، أو ما يؤديه البائع خلال الترويج لبضاعته في متجره. هذا النوع يهدف إلى محاولة تغيير موقف الآخر أو سلوكه. إن الدراسات النفسية والعصبية المعاصرة قد دعمت بالفعل فرضية أن الضحك قد يمكن أن يخضع للسيطرة عبر التدريب والتعليم.

يقول ديفيد هورن أن هناك خمسَ استجابات عاطفية على الأقل، تشكّل بمجموعها محيطاً شاملاً لكل توقعاتنا عن تأثير محدودية الزمن المتاح لإعتمال الفكاهة. وهذه الإستجابات هي؛ الخيال، والشد، والتوقّع، والتفاعل، والتقييم.

إن الخيال هو نتاج الحث باتجاه التوقع وهو يحدث في العادة على مسافة زمنية طويلة نسبيًّا. ومع بزوغ توقّع معيّن لحدوث حدث ما، فإن شدًّا مناسباً سيبدأ بدفع الشخص نحو التعامل مع هذا الحدث؛ بعد ذلك وحالما سيحدث ذلك الحدث (أو قد لا يحدث) سيكون هناك إستجابة من نوع (نعم) أو (لا) وهي التي ستثبت فيما إذا كانت توقّعات الشخص صحيحة. وستكون متبوعة بردّ فعلٍ «سريع وقذر» وسيقيّم فيما إذا كان ذلك شيئاً جيداً أو سيّئاً، وسيُتبع بتقييم أكثر عمقاً للمخرجات.

كل هذا ممكن أن يحدث خلال أقل من ثانية. وكان هذا واحداً من أهم ابتكارات هورن في مجال التشخيص، والذي أطلق عليه تسمية «المشاعر فائقة الدقّة»، وهي تحدث بالعادة بسلاسة عالية، وتحدث أيضاً لا شعوريًّا وبعزلة عالية عن الوعي الحاضر. وطرح ستيفن بوث/ Booth، رأياً مماثلاً إلى حد بعيد، حيث استعمل قبل أربعة عقود وصفاً واضحاً للمشاعر فائقة الدقّة. وهنا نسوق ما قاله هورن كمكافئ مقابل؛

«إن المُتعة تزداد حينما يكون هناك إستجابة إيجابية تأتي بعد إستجابة سلبية. بينما تكون المفاجأة سيّئة العواقب من الناحية البايولوجية، فإن المفاجأة تلعب دوراً محوريًا في التعبير عن المشاعر الإنسانية. إن المفاجأة تؤدي دور المضخّم للمشاعر، ونحن بالفعل نستعمل هذا المضخّم لنرفع من المشاعر الإيجابية».



(13)

خاتمة وخلاصة

إن هناك نوعين من البشر في هذه الحياة؛ أولئك الذين يحتاجون إلى (قفلة/ خاتمة!).

هنا يكتمل طرحنا وتتم محاولتنا لوضع نظرية كاملة وشاملة للفكاهة وعمل الدماغ معها. نظرية تفسّر لماذا وُجدت الفكاهة، وكيف نبعت من بين نشاطات دماغنا المختلفة، ولماذا تحوّلت الكوميديا إلى فن في حياتنا.

إن ما نطرحه هنا من أساس نظري لعمل الفكاهة، يلتقي بما طرح سابقاً في هذا المضمار، لكن وعلى العكس من النظريات والأعمال التي وضعت سابقاً، فإن ما نطرحه يتحرى الواقعية ووفقاً لفرضيات تعتمد على نموذج واقعي من الفكاهة. نموذج يتضمن بنظر الإعتبار البُعد الإدراكي والعاطفي وتأثير المشاعر سوية. وذلك في عملية التعامل مع الفكاهة التي تحصل داخل الدماغ البشري (داخل الوعي البشري)، مثلما تأخذ بنظر الإعتبار حجم التطوّر الذي طرأ على الظاهرة وصيرورتها في بادئ الأمر.

وإن كنّا على صواب في ما وضعناه من أساس نظري، فإن محاولات استخلاص جوهر الفكاهة، عبر دراسة تاريخها وسردياتها ونصوصها

والدوافع والآثار لوحدها، ستتلاشى وتفشل. الأمر سيشبه محاولة دراسة البناء الجزيئي لجزيئة الغلوكوز عبر قياس مدى حلاوة المادة الحاوية له، وهي محاولة عقيمة تجانب العِلم الحديث.

إن النباتات الخضراء، في واقع الحال، تشترك فيما بينها (فقط)، في أن لها لونًا أخضر يترك إنطباعاً لونيًا محدداً على عين الإنسان. وإلّا فإنها تتنوّع بشكل يجعل من الصعب الربط بينها بعامل واحد فاعل. كذلك الحال مع الأشياء التي نصفها بأنها «طريفة». هذا الوصف يمكن تمييزه فقط عبر التأثير على منظومة إدراكية وعاطفية اعتيادية يمتلكها إنسان نموذجي، يمتلك الإدراك المناسب والأدوات الموافقة لفهم التأثير الفكاهي وهضمه.

وبما أن هذه الأنظمة، تتنوع بشكل كبير جداً ضمن مقاييس الوعي الإدراكي للإنسان على مستوى الفرد والجماعات، بالإضافة إلى كونها حساسة اتجاه التنوّع الثقافي، فإن محاولة وضع كل الفكاهة ضمن مقاس واحد يناسب الجميع ستغدو عبثاً واضح المعالم.

ولقد ميّزنا عبر هذه الخلاصات، أن منظار الوعي والخبرة الإنسانية يتمدد ويتسع، بل ويتناقض ويتضارب في مواضع كثيرة. وعليه، فإن ميدان الفكاهة المقابل، وطالما كان مُلقياً بظلاله على الوعي الإنساني، سيعاني إزاحة مستمرة. وسيتعرّض إلى التغيير والإحلال وفقاً لاستجابته الوظيفية للوظيفة التي تؤديها الفكاهة في حياتنا الإجتماعية. وستنقرض بعض أنواع الفكاهة، في مقابل أنواع أخرى ستؤثث العقل البشري وتتغلغل فيه.

لم تقتصر دراسات الدماغ على منهجية بعينها، أو على طريقة منفردة. وقد أثبت ديفيد هورن/ David Huron، على سبيل المثال، أن ظاهرة الموسيقى بإمكانها أن تكون مِسباراً لدراسة دينامية الأنشطة الدماغية

البشرية. يحدث هذا، لأن الثقافة وعبر قرون طويلة كانت قد فطنت إلى حساسية الدماغ للسمع. وأوجدت طرقاً لتضخيم الأثر الذي تتركه الموسيقى في الإستجابة البشرية. وهي بذلك ألقت الضوء على جوانب مهمة في الوعي الإدراكي والميول التي تحكمنا، وتحكم آليّاتنا الإدراكية المحسوسة. وما طرحناه هو أن الفكاهة، بشكل مماثل للموسيقى يمكن أن تكون مصدراً ذا قيمة عالية لكشف الدوافع الدقيقة، والمحفّزات الخفية التي تقف وراء قوى الدماغ.

لقد برهنت الفكاهة على أنها أداة جيدة لكشف الجانب المخفي من القمر (إستعارة). فهي قادرة على أن تكون أداة فاحصة لعناصر حالة الوعي لدى أي إنسان. يصحُّ هذا طالما كان هذا الفحص يُعلي من شأن العناصر المشكّلة للوعي وهو ما سبق أن أشرنا إليه بـ (الفضاء العقلي). الفكاهة هنا ستخدم كأداة كشف لطبيعة الفضاء العقلي لمستخدميها.

ولقد طرحنا متأكدين أنك ببساطة لا يمكن أن تستمتع بالطرفة (ج)، مثلاً ما لم تكن قد عرفت مسبقاً أن (ب) هي حيثيات موضوعية للطرفة (ج)، وإن هذه الحيثيات متوافرة في منظومتك المعرفية، وإنها فاعلة ونشطة، لكنّها مستترة خلال هذه اللحظة، لحظة تفاعلك مع الطرفة (ج).

وقد لا تُدرك أنك «تتسلّى »بهذه الإفتراضات على الإطلاق، إلى غاية أن يأتي شخص ربما مثلنا ليفكك الطرفة ويعيد عرضها بصورة بطيئة. وقد تنكر تماماً أنك قد استوعبت الطُرفة. وما لم يجرِ التنشيط بما يكفي لجعل توقّعاتك تخيب، فإنك لن تضحك على الإطلاق.

قلنا في سالف البحث إن آلية عرض الطرفة تتضمن تخييباً للآمال والتوقعات لدى المتلقي فتحدث المفاجأة التي تبنى عليها الفكاهة.

الفكاهة هنا ستعمل عمل المجسّات في «مسبار معرفي» مهمته أن يصطاد الصدى العقلي المحسوس للطُرفة لدى الآخرين، رغم أنه كان غير محسوس أصلاً ويواصل إستتاره. إن وضع الأشخاص تحت تأثير المسح وقص النكات عليهم، وبالتالي يجري قياس الإنعكاس الفعلي في أدمغتهم، لهو مسارٌ واعدٌ في جهود البحث، لكنه سيشكل الموجة الأولى فقط من معلومات الإستكشاف والفحص. إن هذا الفحص يهمل الأساس الذي تقوم عليه الفكاهة، وتتأثر به، وهو تنوّع الأساس المعرفي لنوع الطُرفة المؤثرة، وعلاقة المتلقي بهذا الجذر الأساس.

ويأتي النموذج الذي صغناه كي يتعمّد ألّا يلتزم بهذه التوصيفات حول عدد من مواصفات هياكل الديناميكيات التي تعمل الطرفة وفقاً لها. لكن الطريق بات مُعبداً أمام وضع المزيد من نقاط الإختبار، نماذج متنوعة وقد تكون متصادمة أو متضادة مع نوعها أو تبدو بالضّد من أي نموذج يقترح.

إن أي نموذج للفكاهة يستحق الفحص في المختبر، يجب أن يثبت أولاً أنه متوافق مع الكم الهائل من الأدلة التي تشير إلى الأسباب التي تجعل الناس تضحك وتتداول الفكاهة.

إننا هنا نسبح في محيط من قواعد البيانات الأمبريقية، فالمكتبات ملأى بالأعمال الكوميدية والتسالي المضحكة والنكات، والرسوم الساخرة وقائمة لا تنتهي من هذه التوصيفات المادية. ونستطيع أن نستنتج الكثير من هذا التنوع بشأن تقدير أي نوع من أنواع الفكاهة المقبولة. وعلى إثر قرون من الإحباط النظري الذي واجهه المنظّرون في مجال الفكاهة، فإن الواجب الأول الذي واجهناه ونحن نحاول تخطي هذا الإحباط، هو أن نؤطر جميع ما متوافر من مقترحات وفرضيات. وأن نستخلص وجهات

النظر منها، ثم نحاول وضع نظرية هيكيلية (يُمكن) لها أن تكون مُنصفة اتجاه كل ما سبق من نظريات.

إن ما قدمناه من عمل وأفكار في هذا الكتاب، قد ألقى بنفسه المزيد من الظلال على الأفكار التي تفسّر كيف يعمل الدماغ، وكيف يتعاطى مع الأفكار. ونعوّل بقوة على الطروحات التي تضمنت بالفعل الأخذ بالمشاعر والعواطف وتأثيرها بنظر الاعتبار. وبالأخص، تأثيرها على الشق المعرفي والإدراكي من المسألة. ودفعها البحث أن يتولى رقعة أكبر من المؤثرات والعوامل الداخلة في الحسبان. وهو ما شكل نموذجاً محدّثاً وأكثر واقعية من صفة (نشر النشاط في الوقت المناسب).

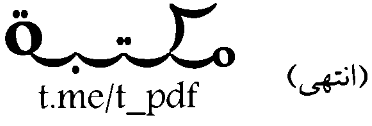
إن ما وضعناه من مخطط ونموذج تعمّدنا فيه الإبقاء على (طبيعية) الخيارات هنا، واتجاه المحتوى الذي يجري التعامل معه خلال الوقت المعني بالإستجابة للفكاهة. وهو ما يقدم شكلاً من أشكال فضاء الإنجاز أمام النموذج الناجح المؤطّر للطرفة والفكاهة ومعانيها ومفاهيمها.

وفي الوقت نفسه، هناك عدّة طرق لاختبار ما صغناه من نموذج مفاهيمي عن الفكاهة. وهو ما يضع شروطاً قد تبدو قاسية لتحديد ما هو طريف، تفريقاً عمّا يوصف بأنه غير طريف.

حاول أنم تجد شيئاً يوصف بأنه غير طريف بشكل واضح، قد يكون سبق لنموذجنا أن وصفه بأنه (طريف)!. أو أن تجد شيئاً ما وصفه نموذجنا بأنه طريف، لكنّه يحيد عمّا وصفنا ووضعنا من محددات.

إننا نتطلع بالفعل لهذا، كي نكتشف إن كانت نظريتنا قادرة على مواجهة هذا التحدي العلمي.

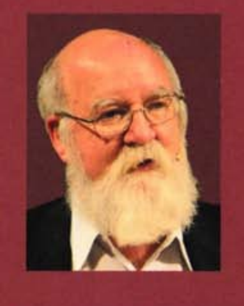
(انتهى)



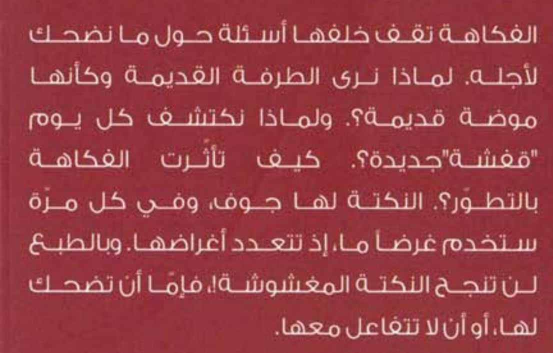
الفهرس











الفكاهة التي ترسم حياتنا وتفكيرنا.

الفكاهة تقف خلفها أسئلة حول ما نضحك لأجله. لماذا نرى الطرفة القديمة وكأنها موضة قديمة؟. ولماذا نكتشف كل يوم "قفشة"جديدة؟. كيف تأثّرت الفكاهة بالتطوّر؟. النكتة لها جوف، وفي كل مرّة ستخدم غرضاً ما، إذ تتعدد أغراضها. وبالطبع لن تنجح النكتة المغشوشة!، فإمّا أن تضحك لها، أو أن لا تتفاعل معها.

يفكك هذا الكتاب الفكاهة وعلاقتها بالإدراك. ويكشف أدواراً تلعبها الفكاهة في حياتنا اليومية ربما لم ننتبه لها بالأصل، وربما لم نكن نعرف أنها نابعة من الفكاهة. الضحك المُعدي، والفكاهة الإدراكية، كلّها مواضيع ساخنة ترتبط بالتطوّر والنظرية الداروينية التي انطلقت كسفينة لا يمكن إيقافها طالما توفّرت رياح المعرفة وتوفر السؤال الصحيح.

الناشر






دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد - شارع المتنبي - مدخل جديد حسن باشا
هاتف: 07700492576 - 07711002790
e.mail: bal_alame@yahoo.com